

الحساب الصحيح من بنيان الحكم الرشيد

بحث تفصيلي في علم الحساب وأهميته في دين الإسلام وفي نصرة الحق وإقامة الميزان

فيه موافقة العلم الكوني الحديث والمؤكد للعلم الشرعي الصحيح والثابت

مع بيان طرق ومصادر الاستدلال ورد شبه الملحدین بالحج العقلية

تأليف

ابن يوسف زكرياء الطرابلسي

قال الشافعي رحمه الله:

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ
لَعَلِّي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهُ
وَأَكْرَهُ مِنْ تِجَارَتِهِ الْمَعَاصِي
وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبِضَاعَةِ

المحتويات

11	المقدمة
17	1 علم الحساب والغاية منه
17	1.1 المقدمة
22	1.2 الحساب داخل في أسماء الله وصفاته وأفعاله
25	1.3 الحساب داخل في أمر الله الشرعي
31	1.4 الجهل بالحساب من الأمية
37	1.5 نهج القرآن في تعلم الحساب
40	1.6 معرفة الوقت بحساب حركة الأفلاك
44	1.7 طرق الإستدلال وبطلان الأخذ بالمشاهدة فقط
49	1.8 مفاهيم خاطئة حول الأرض والشمس والقمر
56	1.9 مناقشة علمية لأقوال أهل العلم في حقيقة حركة الأفلاك

64	1.10 الإستدلال بالحساب في المواقيت
68	1.10.1 هل حكم الأخذ بالرؤية هو على الإطلاق أم مقيد بعلّة؟
73	1.10.2 هل يجب الأخذ بالحساب عند زوال علّة الجهل به؟
77	1.11 العقل بين الإفراط والتفريط
88	1.12 الحساب بين الإفراط والتفريط
95	1.13 الخلاصة

2 الميزان الكوني والميزان الشرعي 99

99	2.1 المقدمة
100	2.2 الميزان الكوني
111	2.3 الميزان الشرعي
121	2.4 الميزان بمعنى العدل والميزان المحسوس
122	2.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية
126	2.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية
129	2.7 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته
132	2.8 الظلم يتنافى الميزان الكوني والميزان الشرعي
135	2.9 المراد بالعلم والميزان
139	2.10 أقسام الميزان الكوني
139	2.10.1 الميزان السببي
145	2.10.2 الميزان الغيبي

155	2.11 أقسام الميزان الشرعي
155	2.11.1 الميزان الفطري
157	2.11.2 الميزان الديني
162	2.12 الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب
165	2.13 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة
167	2.14 الإصلاح وأنواعه
170	2.15 الحكمة والرشاد
173	2.16 مكانة أهل العلم الشرعي
175	2.17 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي
177	2.18 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي
181	2.18.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة
182	2.18.2 الدولة المسلمة الظالمة
186	2.18.3 الدولة الكافرة الظالمة
187	2.18.4 الدولة الكافرة العادلة
189	2.18.5 الدولة المؤمنة العادلة
191	2.18.6 ملخص حال الأمم
195	3 حساب الله
195	3.1 مقدمة
198	3.2 صفة العد والحساب

3.3	التجارة مع الله في الدنيا	200
3.4	القبر أول منازل الآخرة	200
3.5	يوم القيامة	202
3.5.1	البعث	204
3.5.2	المحشر	204
3.5.3	الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء	204

4 الحكم الرشيد 211

4.1	مقدمة	211
4.2	مكانة ذي السلطان المقسط	212
4.3	أركان الحكم الرشيد	212
4.4	شروط الحكم الرشيد	215
4.5	واجبات الحكم الرشيد	216
4.6	الحكم الرشيد في زمن الصحابة	220
4.7	مختصر سيرة معاوية بن أبي سفيان	224
4.8	مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز	226
4.9	الحساب في زمن الحكم الرشيد	239
4.10	عودة الحكم الرشيد في آخر الزمان	244
4.11	معادلات	246

247 4.12 نص الفصل الأول - الصفحة الثانية .

248 4.13 نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة .

249 5 الحساب الشرعي

249 5.1 مقدمة .

249 5.2 الحساب داخل في المعاملات .

251 5.3 أمثلة حسابية من القرآن والسنة .

251 5.3.1 مكوث أهل الكهف .

252 5.3.2 مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ .

253 5.3.3 عدد ساعات اليوم واللييلة .

255 5.3.4 نسبية الوقت في القرآن .

257 5.3.5 ظاهرة الغلاف الجوي .

257 5.3.6 ظاهرة تعاقب الليل والنهار .

258 5.3.7 ظاهرة توسع الكون .

259 5.3.8 ظاهرة المجال المغنطيسي .

261 6 الحساب الكوفي

261 6.1 مقدمة .

262 6.2 جداول .

263 6.3 مراجع باستخدام BibTeX .

264	6.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية
265	6.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة
267	7 الذكاء الإصطناعي
267	7.1 مقدمة
267	7.2 المعرفة والوعي والإدراك
269	8 رد شبه الملحدين
269	8.1 مقدمة
269	8.2 المعرفة والوعي والإدراك
271	9 الملحق
271	9.1 مسألة محاجة إبراهيم لقومه
272	9.2 مسألة كروية الأفلاك لشيخ الإسلام ابن تيمية
275	9.3 مسألة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس
280	9.4 مختصر رسالة الشيخ أحمد شاكر في الأخذ بالحساب
283	9.5 مسألة الأخذ بالحساب لشيخ الإسلام ابن تيمية
289	9.6 مختصر سيرة مطرف بن عبد الله بن الشخير
292	9.7 مسألة أول ما خلق الله
292	9.7.1 الأحاديث الخاصة بالمسألة
295	9.7.2 أقوال أهل العلم

299	9.8	مسألة يدين الله
300	9.9	مسألة أثقل المخلوقات
301	9.10	مسألة تفاوت الزمان
301	9.11	مسألة فناء النار
302	9.12	مسألة العدل مع الكفار
305	9.13	مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين
309	9.14	مسألة التفرق في الدين
309	9.15	مسألة تجريح الأعيان
310	9.16	دعاء النبي ﷺ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العزيز العليم فائق الحب والنوى خلق كل شئ بقدر معلوم فقدره تقديرا. فائق الإصباح وجعل الليل سكا والشمس والقمر حسبانا فقدر للقمر منازلنا وجعل الشمس تجري لمستقر لها وكل في فلك يسبحون. لا إله إلا هو وحده لا شريك له إيماننا بروبوئته وتسليما وإقرارا بألوهيته وتصديقا بأسمائه وصفاته على الوجه الذي يحب ويرضى من غير تحريف ولا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل. بعث الرسل بالحق والميزان مبشرين ومنذرين وليبينوا للناس أمور دينهم ودنياهم ومن أجلها إقامة التوحيد بإفراذه سبحانه وحده بالعبادة بالطريقة التي ارتضاها وإقامة الميزان بالقسط والعدل بين الناس. ومن رحمته أنه أرسل محمدا ﷺ خاتما للنبيين وأنزل عليه القرآن هدى وبشرى للمتقين، أما بعد:

هذا كتاب ألفتة لشرح علم الحساب وأهميته في دين الإسلام وإقامة أركان الحكم الرشيد. فالعلم بالحساب يدخل في الكثير من العلوم: منها العلوم الشرعية كالمواثيق، والمواقيت، والمعاملات، ومنها العلوم الكونية السببية النافعة مثل الهندسة، والفلك، والطب، والفيزياء، الكيمياء، وعلوم الحاسب الآلي كعلوم البيانات وعلوم الآلة والذكاء الاصطناعي وغيرها من العلوم النافعة التي لا يمكن فهمها

ولا إتقانها إلا بالحساب الصحيح. وسعياً إلى بيان الحق الموافق لأمر الله الكوني والشرعي معاً، وجدت أن هذا البحث لا يكتمل إلا بالجمع بين العلم الكوني الحديث والمؤكد مع العلم الشرعي الصحيح والثابت. ورغم قلة العلم وضعف العمل ولا حول ولا قوة إلا بالله، لم يكن لي إلا أن أستعين بالله العزيز العليم وأتوكل عليه، راجياً توفيقه وطالبا لفضله ورحمته، مستفيداً مما حصلته من العلوم الكونية في مجال الحساب والهندسة والفيزياء وعلوم البيانات والذكاء الاصطناعي، ومجتهداً في الأمور الشرعية المهمة المتعلقة بهذا البحث في العقيدة والتفسير لبيان أهمية الحساب في الإسلام وفي إقامة الحكم الرشيد متبعاً في ذلك ما جاء في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد ﷺ وسبيل المؤمنين من سلف هذه الأمة وعلماءها.

سميت هذا الكتاب: "الحساب الصحيح من بنیان الحكم الرشيد". فالحساب هو وسيلة يحتاجها الناس لغايات عديدة منها ما هو فرض، ومنها ما هو نافع، ومنها ما هو بخلاف ذلك. ولا يكاد يوجد علم إلا والحساب داخل فيه. ولهذا فقد حثنا الله جل جلاله على الحساب في أكثر من موضع في كتابه العظيم. فالحساب موافق للفطرة والعقل وهو رياضة العقل وهو مفتاح العلوم الكونية النافعة وهو السبيل لفهمها وبه تكشف العديد من حقائق وأسرار هذا الكون. وهو الرياضيات وهو الأساس الذي تبنى عليه الهندسة بكافة أنواعها وفروعها. وهو العلم الذي به تبنى قوانين الفيزياء والكيمياء وغير ذلك من العلوم السببية. وهو أساس علوم البيانات والآلة والذكاء الاصطناعي. وفيه قوة الاستدلال والحجة في رد شبه الإلحاد. وفيه معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله. فإن كانت الغاية من الحساب هي منفعة الناس بالعموم في أمور دينهم ودنياهم وإقامة الميزان الشرعي الذي أمر الله به، كان هذا الحساب صحيحاً، وكان من بنیان الحكم الرشيد، وكان سبباً في الزيادة في الإيمان وإقامة العدل بين الناس بالقسط، وسبيلاً للتطور العلمي والحضاري، وقوة في دحر الأعداء ونشر الحق ونصرتة.

استل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يبارك فيه ويكتب له القبول في الأرض ويجعله سببا لعودة أمة الإسلام إلى الطريق المستقيم، الطريق الذي فيه يقام الحق والميزان معا. وأن يجعل دعوتنا دعوة الراغبين في العلم كما في قوله تعالى: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾ آل عمران. اللهم اجعل دعائنا كدعاء نبينا ﷺ كما جاء عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ كان إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ؛ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (صحيح مسلم). وكما جاء عن عبدالله بن عمر أن نبينا ﷺ قلما يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللهم اقسِمْ لنا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتِكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تَهْوُونَ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، واجعله الوارث مِنَّا، واجعل ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وانصرنا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا (صحيح الترمذي). وكما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: لَا أُعْلِمُكُمْ إِلَّا مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبَخْلِ وَالْجَبَنِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ نَفْسِي تَقَوَّاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ودعوة لا يُسْتَجَابُ لها (صحيح النسائي).

اللهم اعنا على إقامة الحق واجعلنا من المهتدين واعنا على إقامة الميزان واجعلنا من المقسطين
واهدنا إلى الرشاد واجعلنا من المصلحين وزدنا علما نافعا واجعلنا من الخاشعين
اللهم اهدنا إلى الإسلام واجعلنا من الذاكرين واهدنا إلى الإيمان واجعلنا من المخلصين
واهدنا إلى الإحسان واجعلنا من الموقنين وتوفنا وأنت راض عنا واجعلنا من المتقين
اللهم إننا نسألك الصلاح والصدق والصبر والهدى والسداد واليقين والتقى والعفاف والغنى
واجعلنا اللهم من الشاكرين والفائزين

ربنا أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا وعلى والدنيا وأن نعمل صالحا ترضاه
وأصلح لنا في ذريتنا أنا تبنا إليك وإنا من المسلمين وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين

اللهم اغفر لنا ولوالدينا وإلّاخواننا الذين سبقونا بالإيمان

وجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات

وأدخلنا جميعا في رحمتك وأنت أرحم الرحمن

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ملاحظة:

هذا البحث ما هو إلا إجتهد شخصي وقد يحتوي على أخطاء ونقص، فها وافق الحق فن الله جل جلاله وما خالفه فن نفسي واستغفر الله وأتوب إليه. هذا البحث إنما هو لرفع الجهل عن نفسي ولولا أن الله فرض علينا نشر الحق وبيانه وأن النبي ﷺ أمرنا بأداء النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم، لما نشرته وخصوصاً أن هذا البحث لم يراجعه أهل العلم كما أنني لست من أهل العلم ولا أدعي ذلك وإنما أنا أجهل أكثر مما أعلم ولكنني أبحث عن الحق حيث كان بالحجة والبرهان. يمكن للقارئ الكريم المساهمة بالنقض البناء في تصحيح وتحسين هذا الكتاب بإرسال ملاحظاته ومقترحاته وتعليقاته على البريد الإلكتروني. هذا بحث حر لا يتقيد إلا بالحق وما قامت عليه الحجة بالجمع بين الأدلة الصحيحة والثابتة دون الأخذ ببعضها ورد بعضها الآخر ودون التعصب لأقوال العلماء أو أصحاب المذاهب مهما كانت منزلتهم في الإسلام وخصوصاً متى كان ذلك مخالفاً لقول الله جل جلاله أو لقول المعصوم النبي محمد بن عبد الله القرشي عليه أفضل الصلاة والتسليم. هذا البحث فيه الجمع بين الحجة العقلية والحجة الشرعية وبين العلم الكوني المؤكد والعلم الشرعي الثابت. المنهجية المطروحة في هذا البحث فيها يتوافق العقل مع النقل لا إفراط يجعل العقل مقدماً على الشرع ومقرراً له، ولا تفريط يجعل الشرع مستغنياً عن العقل ومضاداً له. وإنما الوسط بين ذلك وهو أن العقل في الحقيقة موافق للشرع ومقرراً ومسلماً له ومصدقاً به، وبه تقام الحجة ويزداد الإيمان، وهو من طرق الاستدلال التي أرشد الله إليها في كتابه الكريم مع السمع والبصر وهو وسيلة وليس غاية من الله بها على عباده المكلفين لمعرفة الحق والهدى من مصادر الاستدلال الكونية والشرعية. بل إن الله تبارك وتعالى رفع مكانة أصحاب العقول الذكية ووصفهم بأولي الألباب الذين يستدلون بآيات الله الكونية والشرعية على الحق وأنكر سبحانه على كل من خالف ذلك كما سيأتي بيان ذلك في هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

علم الحساب والغاية منه

1.1 المقدمة

الحساب من حيث اللغة له العديد من المعاني وهذا البحث يتناول المعنى اللغوي الذي يشمل العدُّ والإحصاء والتقدير والتفصيل، ويمتد هذا المعنى ليشمل أيضا المكافأة والجزاء والمراقبة والحفظ بعلم وعدل. ومن معاني الحساب أيضا الإتيان والضبط. ومصدره حَسَبَ مثل حَسَبَ الشيء أي عدّه وأحصاه وقدره. وحَسَاب على وزن فَعَال بمعنى محسوب أي مفعول مثل كُتِبَ أي مكتوب. وجمع حساب حسابان مثل شهاب شهبان ومن معاني صيغة الجمع العذاب وهو من الجزاء. والذي يَحْسُب الشيء يقال له حَاسِب (على وزن فَاعِل) من الفعل حَسَبَ وجمعه حَاسِبُونَ عند الرفع وحَاسِبِينَ عند النصب والجر. ويأتي اسم الحسيب على وزن فَعِيل بمعنى الكافي وبمعنى الحاسب. والحسيب هي صيغة مبالغة للفعل حَسَبَ ولإسم الفاعل حَاسِب مثل عليم للفعل عَلِمَ ولإسم الفاعل عَالِم. ويقال أيضا على الحَاسِب الذي يحاسب غيره أنه مُحَاسِب على وزن مُفَاعِل من الفعل حَاسَبَ وجمعه مُحَاسِبُونَ عند الرفع ومُحَاسِبِينَ عند النصب والجر. والذي أُجْرِيَ له الحساب يقال له مُحَاسَب (أي مفعول به أول) وجمعه

مُحَاسَبُونَ عند الرفع ومُحَاسَبِينَ عند النصب والجر. والشيء الذي حُسِبَ يقال له مُحْسُوبٌ (أي مفعول به ثاني) وجمعه مُحْسُوبُونَ عند الرفع ومَحْسُوبِينَ عند النصب والجر.¹

وأما في الشرع فمدار الدين كله على الحساب أي أن الله عز وجل خلق الناس لحكمة عظيمة وهي عبادته وحده لا شريك له وإنه سبحانه لم يخلقهم عبثا بل إنهم مكلفون ومُحَاسَبُونَ على أعمالهم كبيرها وصغيرها ظاهرها وباطنها. وهذا الحساب يترتب عليه الجزاء العاجل في الدنيا والجزاء الآجل في الآخرة لكل ذي عقل من الجن والإنس. ويدخل الحساب أيضا في المعاملات بين الناس التي بينها الشرع كالزكاة والمواثيق والبيع والشراء وغير ذلك. والله جل جلاله هو الحَاسِبُ وهو المُحَاسِبُ الذي يُحَاسِبُ المكلفين يعلم وعدل وهو الحسيب الكافي لعباده الصالحين. والمكلفون من الجن والإنس مُحَاسَبُونَ على أعمالهم ومُحَاسَبُونَ لأنفسهم. وجميع الأعمال مَكْتُوبَةٌ وَمَحْسُوبَةٌ لا يخفى منها شيء عند الله تبارك وتعالى. والحساب يوم القيامة يشمل الجزاء الذي يكون إما جنة أو نار ولا يكتمل الحساب إلا بذلك. ولذلك فقد سمي الله جل جلاله يوم القيامة بيوم الحساب وهو يوم الدين. ويكون الحساب يوم القيامة عند الميزان وهذا فيه علاقة الحساب بالميزان وأن الميزان هو الميزان الشرعي الذي كلفنا الله به في صورته الحسية.

وفي الإصطلاح فإن الحساب هو ميزان معنوى لتقدير وتفصيل الأشياء بالأعداد (أو الأرقام) وإحصائها بالجمع (أي الزيادة) والطرح (أي النقصان) والضرب (أي المضاعفة) والقسمة (أي التقسيم) وغير ذلك من العمليات الحسابية والتي بها يضبط الميزان بالعدل وهو التساوي (أي المساواة) والذي به تعرف المقادير المتغيرة والثابتة والعلاقات بينها. وعرف الحساب قديما وحديثا وله العديد من المسميات والأنواع. وهو علم العقول الفذة والذكىة الذي به تكون رياضة العقل حتى عرف

¹ إن الإعتناء بصيغ ومعاني الحساب في اللغة العربية يعتبر أساس هذا البحث ولهذا كان من المهم ذكره في أول المقدمة.

بالرياضيات. وهو علم الدقة وهو الأساس الذي تبنى عليه الهندسة بكافة أنواعها وفروعها. فالهندسة لا تقوم إلا بالحساب الصحيح الذي به يمكن بناء معادلات ونماذج رياضية للتعبير بدقة عن العلاقات البسيطة والمعقدة والعوامل المؤثرة فيها. وهذا لأنه بالحساب تعرف المجاهيل بعدة طرق منها ما هو سهل وبسيط ويحسب ذهنيا ومنها ما هو صعب ومعقد ويحسب كتابيا أو باستخدام الطرق الحديثة. والحساب حاله كحال الميزان الحسي يبنى على الوزن ولهذا فقد سماه الخوارزمي رحمه الله بالجبر والمقابلة بحيث يبنى الحساب على التساوي بين المتغيرات لجبر ما اختل من الميزان وعليه يمكن حساب ما جهل منها وهو ما نعرفه اليوم بالتساوي (أي علامة =) في المعادلات الرياضية بجميع أشكالها. فيكون بذلك الطرف الأيمن والأيسر بالنسبة لعلامة التساوي في المعادلات الرياضية ككفتان الميزان تماما ولا يستقيم ذلك إلا بالحساب الصحيح الذي به يمكن تحقيق العدل في المعاملات.

ولهذا فإن الآيات الشرعية التي تأمر بالوفاء في الكيل والميزان بالقسط في المعاملات بين الناس هي بلا شك تشمل الحساب وهذا لأن الحساب في أصله داخل في معنى الميزان. ومن الأمثلة على تطبيقات علم الحساب في اتباع آيات الله الشرعية كحساب الزكاة والصدقات والمواقيت والموايرث والبيع والشراء وغيرها من المعاملات التي يحتاج إليها الناس. ومن الأمثلة على تطبيقات علم الحساب في فهم آيات الله الكونية كمعرفة حركة الشمس والقمر والأرض وغيرها من الظواهر الطبيعية التي خلقها الله لما في ذلك من مصالح دينية مثل التفكير في عظمة الله والزيادة في الإيمان ومصالح دنيوية مثل حساب الوقت والمواسم. فعلم الحساب من الضروريات التي يحتاج إليها الناس في أمور دينهم ودنياهم وهو مفتاح جميع العلوم الكونية السببية الظاهرة وهو الوسيلة لتحقيق الغاية العظيمة التي أمر الله بها وهي إقامة الميزان الشرعي.

ولهذا كان البحث في علم الحساب من الأمور التي حث الله تعالى عليها في أكثر من موضع في كتابه

العظيم. قال تعالى: وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ۚ فَحَوِّنَا إِلَى اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا تُفَصِّلًا ﴿١٢﴾ الإسراء. يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: (وَلِتَعْلَمُوا) بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر (عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ) فتبنون عليها ما تشاءون من مصالحكم. (وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا تُفَصِّلًا) أي: بينا الآيات وصرفناه لتتميز الأشياء ويستبين الحق من الباطل ﴿١﴾ [1]. وقال تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس. يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تنفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقرينة ﴿١﴾ [1]. وقال تعالى: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٍ ﴿٥﴾ الرحمن. يقول السعدي في تفسيره: أي خلق الله الشمس والقمر، ونخزهما يجريان بحساب مقتن، وتقدير مقدر، رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب ﴿١﴾ [1]. وقال تعالى: فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ الأنعام. يقول القرطبي رحمه الله: ومعنى حُسْبَانًا أي بحساب يتعلق به مصالح العباد. وقال ابن عباس: حُسْبَانًا أي بحساب. قال الأخفش: حُسْبَان جمع حساب، مثل شهاب وشهبان ﴿٢﴾ [2].

وفي هذه الآيات الحث والترغيب في علم الحساب والأخذ والإستدلال به وهذا فيه الحكمة البالغة من الله جل جلاله. ومن ذلك حتى يبينى عليه الناس مصالحهم الدينية والدنيوية ويقوموا بالقسط في جميع عباداتهم ومعاملاتهم وعلى الوجه المطلوب. ومن حكمة الله تعالى أنه جعل علم الحساب موافق

للفطرة والعقل وجعله مفتاح جميع العلوم الكونية السببية الظاهرة² التي يمكن فيها العد والقياس والتي لا يمكن في الغالب فهمها فهما صحيحا من دون الحساب. ومن ذلك الظواهر الطبيعية كحركة الأفلاك وغيرها والتي جعل الله لها أقدارها بحيث تتبع حساب متقن لا تحيد عنه ولا تميل. فعلم الحساب به يفهم الميزان الكوني من آيات الله الكونية وبه يقام الميزان الشرعي باتباع آيات الله الشرعية. وهذا لأن علم الحساب ما هو إلا صورة من صور الميزان ولكن ميزان معنوى، وأما الميزان المعروف الذي توزن به الأشياء فهو ميزان حسي. فالميزان تقدر به الأشياء بالوزن، والميكال تقاس به الأشياء بالحجم، وأما الحساب فتحسب به الأشياء بالعدد لكل ما هو مقاس وزنا أو حجما أو ثمنا أو غير ذلك من وحدات القياس الأخرى. ولهذا فقد قرن الله جل جلاله الحساب مع العدد فلا حساب دون عد بالإحصاء أو القياس ولو على وجه التقريب. كما أنه أيضا لا هندسة دون حساب. ولا حساب دون إدراك وعقل وعلم.

ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون في قدراتهم الحسابية كل بحسب إجهاده وبما أودعه الله جل جلاله فيهم من إدراك وعقل وعلم. والأشياء أيضا تتفاوت في إمكانية ودقة حسابها، فمنها السهل والمعروف كعدد ساعات اليوم، ومنها الصعب والمعقد كحركة السحاب والمطر، ومنها المستحيل من الأمور الغيبية كموعد الساعة الكبرى أو الصغرى إلا بقدر ما جعل الله لها من العلامات الدالة على ذلك. وهذا فيه أن الإنسان قد يخفى عليه العديد من الأمور وقد يتخلل حسابه النقص وبالأخص ما يصعب إدراكه أو إدراك أسبابه. ومتى أدرك الإنسان أسباب الأشياء، كانت له القدرة على قياسها وتقديرها. فإن كان لديه العقل الراجح والعلم النافع، استطاع الإستدلال بالحساب والإسترشاد به في

² ظاهرة بالحجة العقلية والقياس في العلم التجريبي ولا يشترط أن تكون ظاهرة للحواس. فالعديد من الظواهر يمكن قياسها

ولا يمكن رؤيتها على سبيل المثال.

1.2. الحساب داخل في أسماء الله وصفاته وأفعاله

تقرير حقائق الأشياء ولو على وجه التقريب. وكلها زاد إدراكه للأشياء وعلمه بها، زادت بصيرته وزاد معها تعقله لها وضح حسابه حتى كان حسابه صحيحا وموافقا للحق بإذن الله تعالى.

ومن عظيم آيات الله جل جلاله أنه جعل الناس متوافقين في أصل العدد والحساب بفطرتهم. ولهذا فإن العدد والحساب من الأمور التي توافقت عليه جميع الحضارات البشرية ولم تختلف في أصل هذا العلم إلا في طرق التعبير عنه كالرموز واللغات المستخدمة في ذلك. والله جل جلاله له كمال العدل في حسابه وهذا لأن حسابه وتقديره كامل لا نقص فيه لأن الله هو العليم بكل شيء والقادر على كل شيء. وفي معرفة حساب الله العديد من المصالح منها أن الله قائم بالقسط في الدنيا والآخرة، وفي الميزان الكوني والميزان الشرعي. وفي معرفة ذلك الاستعداد ليوم الحساب الذي فيه يحاسب الله المكلفين. وفي هذه المعرفة أيضا الترغيب في إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب والتي بها يمكن تحقيق الحكم الرشيد. وغير ذلك من المصالح الدينية والدنيوية والتي سيتم تناولها في هذا البحث بعون الله وتوفيقه.

1.2 الحساب داخل في أسماء الله وصفاته وأفعاله

العد والإحصاء والحساب كلها داخلية في أسماء الله جل جلاله وصفاته وأفعاله. ومن ذلك ما دلت عليه أسماءه الحسنى سبحانه وتعالى ومنها العليم والحكيم والحسيب والحفيظ واللطيف والخبير والحي والقيوم والرقيب والمحيط والشهيد والحكم والوكيل والعدل. وهذا من كمال عدله وحكمته سبحانه ومن ذلك حتى يعطي لكي ذي حق حقه يوم الحساب. ويستثنى من ذلك أنه سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب كما أنه يوفي للصائرين أجرهم بغير حساب. ولقد أثبت سبحانه في مواضع كثيرة في كتابه

العظيم أنه سبحانه أحصى كل شيء عدداً، وأنه على كل شيء حسيباً، وأن كل شيء عنده بمقدار، وأنه سبحانه أتعن كل شيء، وأنه سبحانه فصل كل شيء تفصيلاً، وأنه سبحانه سريع الحساب وأسرع الحاسبين كما يليق بجلاله بدون تشبيه أو تكييف أو تعطيل أو تمثيل. وهذا كله فيه إثبات كمال الحساب لله جل جلاله لإجتماع معاني الحساب كلها في صفاته وأسمائه وأفعاله.

فالله جل جلاله قدر المقادير كلها وأحصاها عدداً، وسبق علمه بذلك وكتبه في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض. ومن كمال عدله سبحانه أنه يقوم بحاسبة كل نفس يوم الحساب وهو سبحانه أسرع الحاسبين كما قال تعالى: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ الأنعام. وجاء في تفسير الطبري رحمه الله: وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم أيها الناس وأحصاها وعرف مقاديرها ومبالغها لأنه لا يحسب بعقد يد ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴿٣﴾ سبأ [3].

فالعد والإحصاء والحساب من كمال حكمة الله سبحانه وتعالى وعدله. ومن أعظم ذلك أن الله عز وجل قائم بالقسط وهو العدل الظاهر في حكمه الكوني³ والشرعي والجزائي. فيكون عدله سبحانه ظاهر لنفسه في حكمه الكوني بالميزان الكوني الذي وضعه في يده،⁴ وظاهر لخلقه في حكمه الشرعي بالميزان الشرعي الذي كلفنا به في الدنيا، وظاهر لخلقه في حكمه الجزائي بالميزان الشرعي الذي يحاسبنا به في الآخرة. ولهذا فقد شهد الله جل جلاله لنفسه بالقسط في حكمه كله الكوني والشرعي والجزائي في أعظم شهادة في كتابه العظيم فقال جل في علاه: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلَأَ مَكَّةَ وَأَوَّلُو الْعِلْمِ

³ حكم الله الكوني هو حكم الله القدري التابع لإرادته والقضاءي النافذ بقدرته والذي فيه شأن الله عز وجل وتديره لهذا الكون بحكمته ورحمته وعدله، والذي سبق علم الله به أزلاً وكتابه له في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض.

⁴ سيأتي بيان ذلك في فصل الميزان الكوني والميزان الشرعي.


قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. وأخبر سبحانه أنه أرسل الرسل بالحق والميزان الشرعي ليقوم الناس بالقسط بحسب ما كلفهم به فقال تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (الحديد). وأخبر أنه سبحانه أنزل الكتب بالحق والميزان الشرعي في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ (الشورى). وأخبر سبحانه أنه سيضع موازين القسط يوم القيامة لحساب المكلفين في حكمه الجزائي المترتب على حكمه الشرعي الذي كلفهم به فقال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴿٤٨﴾ الأبياء. وجعل الرسل عليهم الصلاة والسلام شاهدين على ذلك يوم الحساب فقال سبحانه: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ يونس.

فتأمل كيف أن الله عز وجل وصف نفسه بأنه قائم بالقسط في حكمه الكوني، وأمر عباده بالقسط في حكمه الشرعي، وأنه سبحانه سيحاسبهم بالقسط يوم الحساب في حكمه الجزائي. وهذا كله من كمال عدله وحكمته سبحانه وتعالى. ومن تمام عدله أنه سبحانه حرم الظلم على نفسه في حكمه الكوني والجزائي وجعله محرما على عباده في حكمه الشرعي كما أخبر النبي ﷺ في الحديث القدسي فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما. فلا تظالموا ﴿٤﴾⁵.

⁵ صحيح مسلم: 2577.

1.3 الحساب داخل في أمر الله الشرعي

أرسل الله عز وجل الرسل وأنزل عليهم الكتب لإقامة الحق والميزان (أي الميزان الشرعي) معاً. ولقد كان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أكثر الناس إعتباراً بآيات الله الكونية وأعلم الناس بأحكام الله الشرعية والجزائية وأكملهم إدراكاً وعقلاً. ولهذا فقد سعى الرسل إلى إقامة الحق أولاً بالدعوة إلى توحيد الله في عبادته، وإلى إقامة الميزان الشرعي ثانياً بالدعوة إلى القسط والعدل بين الناس. فلزم بذلك معرفتهم للكيل والميزان وما يدخل في ذلك من العد والحساب الذي به تحفظ الأموال والحقوق في المعاملات بين الناس. فالحساب يمكن حفظه أو تكاتبه وفي صحته وبيانه القسط الذي أمر الله به. والغش في الحساب أو الجهل به من مخالفة الميزان الشرعي ومن الظلم والفساد الذي لا يرضى الله به ومن أسباب تعجيل سخط الله في الدنيا قبل الآخرة.

وقد كان يوسف عليه السلام عالماً بالحساب حافظاً وكتاباً له كما في قوله تعالى: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ يوسف. فقد جاء في تفسير الطبري والبغوي معنى (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ): أي كاتب حاسب حفيظ للخزائن عليم بوجوه مصالحها، وقيل: أي حفيظ للحساب عليم بالألسن أعلم لغة كل من يأتيه [3][5]. وجاء في تفسير القرطبي: إِنِّي حاسب كاتب، وأنه أول من كتب في القراطيس [2]. ويقول السعدي في تفسير ذلك: (إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ) أي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه. فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها .

[1]. وهذا فيه أنه بالحساب الصحيح تحفظ الأموال وتعطى الحقوق بالعدل وبه يقام الميزان الشرعي لتحقيق العدل بين الناس.

ولقد كان النبي ﷺ يرشد الناس إلى الحساب الصحيح ويحثهم عليه بحسب ما أوحى له وفي هذا دليل نبوته فهو نبي أمي لا يحسب فعن أبي سعيد وأبي هريرة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا عَلَى خَيْرٍ بَعْدَهُ بِتَرَجْنِيبٍ فَقَالَ: «أَكُلْ تَمْرَ خَيْرٍ هَكَذَا؟» قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَأْخُذُ الصَّاعَ مِنْ هَذَا بِالصَّاعَيْنِ وَالصَّاعَيْنِ بِالثَّلَاثِ فَقَالَ: «لَا تَفْعَلْ بَعِ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَغِ بِالدَّرَاهِمِ جَنْبِيًّا». وَقَالَ: «فِي الْمِيزَانِ مِثْلُ ذَلِكَ» (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). وهذا فيه حرص النبي ﷺ حيث علم أنه بزيادة الصاع لا تثبت قيمة البيع لا حجا ولا وزنا ولا ثمنا. فيكون من أخذ صاعين بدل صاع فقد اشترى بنصف قيمة ما باع، بينما من أخذ ثلاثة بدل اثنين فقد اشترى بثلثي قيمة ما باع، وهكذا. وهذا من الظلم في المعاملات الذي لا يقع إلا خطأ أو جهلا أو غشا. فأخبر النبي ﷺ أن هذا بخلاف الميزان وهو الحساب الصحيح في البيع والشراء، بل ونهى عن ذلك وأمر بأخذ القيمة عند البيع ومن ثم الشراء حتى تثبت القيمة بالنسبة للنوع وزنا أو حجا. وفيه أيضا أن الرسول ﷺ سمى الحساب الصحيح ميزانا في قوله "في الميزان مثل ذلك". ولهذا فإن الحساب في أصله ما هو إلا صورة معنوية للميزان الحسي.

وغير ذلك من المواقف الأخرى التي كان النبي ﷺ يبين فيها الحساب الصحيح للناس كبيان عدد ساعات اليوم وأيام الشهر وغير ذلك من الأمور التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم. ومن ذلك بيان أحب الصلاة والصيام عند الله تبارك وتعالى فعن عبد الله بن عمرو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَتِمُّ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَتِمُّ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا. ومجموع النصف مع الثلث والسدس هو واحد وهو مجموع ساعات الليلة الواحدة من بعد صلاة العشاء إلى أذان صلاة الفجر. ولا يحسب

ذلك من غروب الشمس لأن النبي ﷺ أولاً بدأ بالنوم وثانيا جعل الثلث لصلاة قيام الليل والثلثين للنوم ولم يدخل صلاتي المغرب والعشاء في ذلك، فدل على أن ساعات الليل المذكورة في هذا الحديث تبدأ من بعد صلاة العشاء مباشرة. فلو إنتهت صلاة العشاء عند التاسعة مساءً وكانت صلاة الفجر عند السادسة صباحاً، كان مجموع ساعات الليل الخاصة بالقيام والنوم معا 9 ساعات. وبهذا تكون ساعات النوم الأولى قبل قيام الليل أربعة ساعات ونصف (أي من 9:00 م إلى 01:30 ص)، وتكون ساعات القيام ثلاث ساعات (من 01:30 ص إلى 4:30 ص)، وساعة ونصف من النوم قبل الفجر (من 4:30 ص إلى 6:00 ص). ولو أدخلت صلاتي المغرب والعشاء وما بينهما في ذلك للزم دخولهم في ثلث القيام وبالتالي يكون المغرب أول قيام الليل، والعشاء منتصف قيام الليل، وقيام الليل آخر قيام الليل وكلها جميعاً ثلث الليل وكانت باقي الثلثين للنوم وهذا غير راجح لأن النبي ﷺ بدأ بالنوم فدل على أن ذلك إنما يكون من بعد صلاة العشاء مباشرة، والله فوق كل ذي علم عليم.

ومن ذلك أن النبي ﷺ بين للناس حساب العشرة الأضعاف من الحسنات خلال اليوم والليلة في الذكر وأنها تذهب مثلها من السيئات في العدد. فعن عبد الله ابن عمرو أن النبي ﷺ قال: خَصْلَتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلْ بِهِمَا قَلِيلٌ، يُسَبِّحُ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا (10)، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا (10)، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا (10) (ومجموع ذلك 30 في الصلاة الواحدة)، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةً بِاللِّسَانِ (50 = 5 × 30 أي في الصلوات الخمس)، وَالْفُؤَادُ وَخَمْسُمِائَةً فِي الْمِيزَانِ (1500 = 10 × 150 أي عشرة أضعافها). وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ (34)، وَيَحْمَدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ (100 = 33 + 33 + 34 أي حاصل جمعها)، وَالْفُؤَادُ فِي الْمِيزَانِ (1000 = 10 × 100 أي عشرة أضعافها)، فَأَيْكُمُ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةٍ سَبِّحَةً؟ (2500 = 1000 + 1500 أي عدد الحسنات الكلي المترتب على هذا الذكر خلال اليوم

1.3. الحساب داخل في أمر الله الشرعي

والليلة). قال عبدُ الله: رأيتُ رسولَ الله يعقدهنَّ بيده. قال: قيل: يا رسولَ الله! كيف لا يُحصيها؟ قال: يأتي أحدكم الشيطانُ وهو في صلاته فيقول له، اذكرْ كذا، اذكرْ كذا، ويأتيه عند منامه فيؤممه (صحيح الجامع، وصححه الألباني في صحيح الترغيب).

وكل ذلك فيه دليل على نبوته ﷺ فهو أُمِّي لا يحسب ولكن لا ينطق إلا بالحق كما أخبر ذلك الله عز وجل في كتابه العظيم: وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ النجم. فلك أن تتأمل في حكمة الله عز وجل في الحث على تعلم العدد والحساب وكيف أن النبي ﷺ كان يحسب ويبين للناس الحساب الصحيح في الأعمال الصالحة للمحافظة عليها طلبا لرضوان الله جل جلاله وجنته وعلما بأن الله كان على كل شيء حسيبا كما في قوله تعالى: وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيْبًا ﴿٨٦﴾ النساء. قال البغوي: حسيبا أي: محاسبا مجازيا [5]. وقال الطبري: وأصل "الحسيب" في هذا الموضع عندي "فعيل" من "الحساب" الذي هو في معنى الإحصاء [3]. فالحساب وبالأخص في الأعمال الصالحة من هدي النبي ﷺ ومن ذلك أيضا ما جاء عن عمران بن الحصين أنه قال: كُتِّبَ جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ". فَرَدَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: عَشْرُ (10). ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ". فَرَدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: عَشْرُونَ (20). ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: "السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ". فَرَدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: ثَلَاثُونَ (30). (حسنه البيهقي في شعب الإيمان). ولعل هذا معناه أن كل كلمة في تحية السلام لها 5 حسنات إلا "وبركاته" لها 10 فدل على واسع بركة الله جل جلاله وفضله. وهذا فيه أن النبي ﷺ كان يعلم حساب الحسنات من الأعمال الصالحة وكان حريص عليها وكان يبينها لأصحابه. حتى أن الصحابة رضوان الله عليهم أخذوا هذا الهدي من النبي ﷺ ومن ذلك أنهم كانوا يحصون ذكر النبي ﷺ كما جاء عن عبدالله بن عمرو:

إِنْ كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَجْلِسِ الْوَاحِدِ مِثْلَ مَرَّةٍ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿6﴾ [6].⁶

ولقد جاء عن النبي ﷺ أنه دعى لمعاوية تعلم الحساب مع كتاب الله عز وجل في شهر رمضان المبارك فعن العرياض بن سارية أنه قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو إِلَى السَّحُورِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: هَلُمَّ إِلَى الْغَدَاءِ الْمُبَارَكِ ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ، وَالْحِسَابَ ، وَقِهِ الْعَذَابَ. وفي رواية أخرى: اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب ﴿7﴾ [7] [8] [9] [10] [11].⁷ وفي رواية أخرى بتقديم الحساب على الكتاب: اللهم علم معاوية الحساب، والكتاب، وقه العذاب ﴿8﴾. ولعل هذا فيه الإشارة الكافية لأهمية علم الحساب وأنه من الدين وأنه من أسباب التمكين لأن به يقام العدل في الحكم كما سيأتي بيانه في فصل الحكم الرشيد. وفي هذا الحديث العديد من الأسرار والحكم. ومن ذلك أن معاوية رضي الله عنه كان من كتبة الرسول ﷺ فكان يعرف الكتابة والقراءة ويكتب الوحي. فدعى له النبي ﷺ تعلم الحساب مع الكتاب حتى تزال عنه الأمية بكاملها. فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ (صحيح البخاري) فجعل الجهل بالحساب من الأمية. ولهذا فإن الأمية تحققت في حق معاوية من جهة الجهل بالحساب فقط. ولقد كان معاوية رضي الله عنه أرحم من غيره في ذلك لذهاءه فقد كان من أصحاب العقول الذكية حتى قال عنه عمر بن الخطاب في مجلسه: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما؛ وعندكم معاوية! ﴿11﴾ [11]. وقد جاء في سيرته أنه تعلم وأتقن الحساب حتى كان من الكتبة الحسبة الفصحاء ﴿9﴾ [9].

لعل من الحكم أيضا أن النبي ﷺ علم أن معاوية رضي الله عنه سيكون ملكا على الشام فدعى له

⁶ سنن أبي داود: 1516.

⁷ أحمد: 17152، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء وابن كثير في البداية والنهاية، والإمام الألباني في السلسلة الصحيحة.

1.3. الحساب داخل في أمر الله الشرعي

تعلم الحساب حتى يقيم العدل في حكمه فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ نُبُوَّةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَكُونُ خِلَافَةٌ وَرَحْمَةٌ، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَرَحْمَةٌ** [10].⁸ ولقد إستجاب الله جل جلاله دعاء نبيه ﷺ في معاوية مرتين. الأولى أن معاوية تعلم الحساب والثانية أن الله مكن له في البلاد. فقد كان معاوية رضي الله عنه أول ملوك المسلمين بعد الخلفاء الراشدين وكان حكماً عادلاً حتى عرف بالمهدي عند أئمة التابعين فقد جاء عن مجاهد رحمه الله أنه قال: **"لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي"** [11]. وقال قتادة رحمه الله: **"لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي"** [12]. وقد ذكر عند الأعمش عمر بن عبد العزيز وعده، فقال الأعمش: **"كيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: يا أبا محمد، يعني في حلمه؟ قال: لا والله، ألا بل في عدله"** [13]. ولهذا يقول شيخ الإسلام بن تيمية: اتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك [12].⁹

ومن هذا يعرف أن علم الحساب هو علم صادق وشريف ودقيق به يقام العدل والقسط في الحكم والمعاملات وهو من بنیان الحكم الرشيد. يقول الإمام الشافعي رحمه الله: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تكلم في الفقه ثما قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه،¹⁰ ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه [8]. فإضافة علم الحساب مع القرآن والحديث والفقه واللغة فيه بيان شرف هذا العلم وأهميته في إقامة الحق والميزان معاً. ولهذا فقد نقل شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله إعتناء أهل السنة في زمانه بالعلوم الصادقة ومنها الحساب وخص الخوارزمي في ذلك فقال: ولهذا يرغب كثير من علماء السنة في النظر في العلوم الصادقة الدقيقة كالجبر والمقابلة وعريص الفرائض والوصايا والدور وهو علم صحيح في نفسه [٠] وأما "حساب

⁸ صححه الألباني في السلسلة الصحيحة: 3270.

⁹ مجموع الفتاوى: 4/478.

¹⁰ جزل أي عظم وغلظ. جزل رأيه أي صار ذا رأي فصيح محكم. الجزل من الكلام أي القوي الفصيح الجامع.

الفرائض" ففرقة أصول المسائل وتصحيحها والمناسخات وقسمة التركات. وهذا الثاني كله علم معقول يعلم بالعقل كسائر حساب المعاملات وغير ذلك من الأنواع التي يحتاج إليها الناس. ثم قد ذكروا حساب المجهول الملقب بحساب الجبر والمقابلة في ذلك وهو علم قديم لكن إدخاله في الوصايا والدور ونحو ذلك أول من عرف أنه أدخله فيها محمد بن موسى الخوارزمي. وبعض الناس يذكر عن علي بن أبي طالب أنه تكلم فيه وأنه تعلم ذلك من يهودي وهذا كذب على علي عليه السلام [12].¹¹

1.4 الجهل بالحساب من الأمية

ومن البلايا في زماننا هذا أن المسلمين قد غفلوا عن أهمية علم الحساب والإستدلال به حتى ظن الكثير منهم أنه ليس من الدين في شيء فضيعوه وتأخروا فيه علما وتهاونوا فيه عملا بعد أن كانوا روادا فيه ووضعوا أسسه بالإيمان الصادق للبشرية جمعاء. فقد تمكن المسلمون بناء على آيات القرآن الكريم التي ترشد إلى الإستدلال بالحساب والآيات التي تأمر بالقسط والعدل في الميزان من وضع أسس وقواعد علم الجبر والمقابلة في زمن هارون الرشيد على يدي العالم الجليل محمد بن موسى الخوارزمي رحمه الله تعالى. فسبقوا بذلك كل الأمم الأخرى كما سيأتي وكان الخوارزمي أول من كتب المعادلات الجبرية وأول من حلها بطريقة التي عرفت بإسمه "الخوارزميات" حتى أطلق عليه أبو الحساب، وأبو الجبر، وأبو الخوارزميات. فاعتنت وتسابقت وتهالفت على علمه الأمم الأخرى وكان سببا في نهوضها وإزدهارها بل وأيضا تسلطها على أمة الإسلام. وفي المقابل تأخر المسلمون في علم الحساب وفُقدت كتب الخوارزمي وسرق وما طبع إلا بعد ألف عام من تأليفه بعد أن تشبعت الحضارات الأخرى من علمه وبالأخص الحضارات الغربية. فقد ترجم كتابه إلى أغلب اللغات الأوروبية وأعتني به في

¹¹مجموع الفتاوى 9/214.

جامعاتهم وأدخلت مصطلحاته إلى معاجهم وكان هذا هو المفتاح والسر وراء نهضتهم العلمية في كافة العلوم الكونية السببية النافعة. فتقدموا في كافة المجالات ولا زلنا نرى إلى يومنا هذا تأثير علم الجبر والخوارزميات في جميع علوم التكنولوجيا وبالأخص في مجال الحاسوب والذكاء الاصطناعي بجميع أنواعه. وأصبحنا نسعى لتعلم هذه العلوم منهم بعد أن تعلموها منا. وما هذا إلا لأن تضييع علم الحساب والجهل به من الأمية التي جاء الإسلام بالحث على خلافها من طلب العلم ونشره وإقامة الحق والميزان.

فالأمية لا تكون فقط بعدم القدرة على القراءة والكتابة كما هو شائع، وإنما أيضا بعدم القدرة على الحساب الصحيح وعلى الوجه المطلوب. ومما يؤكد هذا قوله ﷺ عندما سأل عن عدد الأيام في الشهر فقال ﷺ: إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ" (صحيح البخاري). فجعل ﷺ الجهل بعلم الحساب في زمانه من الأمية. ولا ينبغي أن يستدل بهذا على عدم تعلم الحساب والأخذ به فهذا الاستدلال باطل يخالف كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ كما تقدم. وإنما المقصود بالأمية في هذا الحديث هو الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين الذين وصفهم الله جل جلاله بالأمية، أي أنهم في غالبيتهم لا يكتبون ولا يحسبون. وقد بين الله جل جلاله الأمية في حق نبيه في قوله تعالى: فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ الأعراف. والأمية في القراءة والكتابة والحساب لا تعارض النبوة في شيء بل هي دليل على صدق النبي ﷺ. وقد بين الله جل جلاله الأمية في حق الصحابة رضوان الله عليهم في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ الجمعة. وهذا هو المعنى الصحيح كما بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله حيث قال: فكل إنسان لم يتعلم ولم يكتب يقال له: أمي، والأمة العربية هكذا كان الغالب عليها أنها أمية لا تكتب ولا تقرأ، هذا الغالب على أمة محمد ﷺ [هـ]. ومن ذلك أيضا أنها

كانت أمة لا تحسب كما بين ذلك النبي ﷺ.

وقوله ﷺ: "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ" لا يعنى بأي حال من الأحوال أن تبقى أمة الإسلام أمة أمية لا تكتب ولا تحسب. فقد جاءت الشريعة أولاً بالحث على القراءة والكتابة، وثانياً بالحث على الحساب لرفع الأمية بكاملها عن أمة الإسلام. فكان أول ما أنزل الله "اقرأ" وفيه الحث لأمة الإسلام على تعلم القراءة والكتابة وطلب العلم ونشره. يقول تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ العلق. ومن ثم جاء الحث على التأمل في آيات الله الكونية في مواضع كثيرة ليس فقط لمجرد النظر فيها ولكن للتفكر فيها وتعللها وتعلم العدد والحساب والاستدلال به كما جاء في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس. وكان هذا الحث على القراءة والكتابة والحساب منذ بداية فجر الإسلام في العهد المكي الذي اتم بالدعوة إلى التوحيد الخالص. فدل ذلك على أن دين الإسلام هو دين الحضارة التي تبنى على الحق والعدل معاً. ولهذا فإن كل إنسان لم يتعلم الحساب مع القراءة والكتابة على الوجه المطلوب يكون أمياً كما بين ذلك النبي ﷺ. والله حث هذه الأمة في كتابه العظيم على العلم الذي يتأتى بالقراءة والكتابة حتى تقيم الحق، وعلى تعلم العدد والحساب حتى تقيم الميزان الشرعي بالعدل والقسط في جميع المعاملات بين الناس.

وفي سيرة النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم العديد من المواقف والتي فيها إهتمامهم برفع الأمية عن أمة الإسلام ومن ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد عن ابن عباس قال: "كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فداءهم أن يعلموا أولاد

الأنصار الكتبة" [7].¹² وهذا فيه إهتمام النبي ﷺ بتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة. وكان زيد بن ثابت رضي الله عنه ممن تعلم القراءة والكتابة من الأسرى حتى أن النبي ﷺ قدمه على غيره من الصحابة حتى صار من كتبة الوحي والرسائل. ولقد كان أبو هريرة رضي الله عنه أحفظ الناس لحديث النبي ﷺ إلا أنه كان لا يكتب وجاء في صحيح البخاري أنه قال: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب [7].¹³ وهذا فيه بركة الكتابة في حفظ العلم حتى بوب لذلك البخاري: باب كتابة العلم.

وفي ذلك الحكمة البالغة من الله جل جلاله حتى يكون لأمة الإسلام دعوة الحق والميزان ويكون الحساب مفتاحاً للعلوم الكونية السببية النافعة، فتأخذ بالأسباب وتتقدم في كافة المجالات على سائر الأمم الأخرى كما كان الحال في زمن هارون الرشيد في بداية العصر الإسلامي الذهبي قبل أن تعصف به رياح البدع والأهواء. وبالأخص فتنة خلق القرآن في زمن الإمام أحمد رحمه الله وما جاء بعد ذلك في زمن شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله. ورغم ذلك فقد جعل أهل السنة أوقات فراغهم لتعلم الحساب والهندسة كما نقل ذلك شيخ الإسلام بن تيمية في قوله: وكذلك كثير من متأخري أصحابنا يشتغلون وقت بطالتهم بعلم الفرائض والحساب والجبر والمقابلة والهندسة ونحو ذلك؛ لأن فيه تفريحاً للنفس وهو علم صحيح لا يدخل فيه غلط. وقد جاء عن عمر بن الخطاب أنه قال: "إذا هوتم فالهوا بالرمي وإذا تدهتتم فتحدثوا بالفرائض". فإن حساب الفرائض علم معقول مبني على أصل مشروع فبقى فيه رياضة العقل وحفظ الشرع. لكن ليس هو علماً يطلب لذاته ولا تكمل به النفس [12].¹⁴ فتأمل في وصف شيخ الإسلام لعلم الحساب أن فيه حفظاً للشرع وهذا من المصالح الدينية العظيمة.

¹² مسند الإمام أحمد: 2216.

¹³ صحيح البخاري: 116.

¹⁴ مجموع الفتاوى 9/129.

وكل هذا فيه اهتمام السلف بعلم الحساب والهندسة في أوقات فراغهم رغم إنشغالهم بالأمر العظيم الأخرى في بيان الحق ورد البدع والشبهات التي عصفت بذلك الزمان كعلم الكلام أي الفلسفة في الدين والعقائد التي تخالف صريح كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه ﷺ. وهذا لأن الجهل بعلم الحساب يترتب عليه العديد من المفاصد الدينية والدنيوية. فمن المفاصد الدينية أن التفريط بالحساب الصحيح يؤدي إلى الظلم والفساد في المعاملات والمواثيث والزكاة والصدقات وغيرها بل وحتى المواقيت والتي هي عماد الدين. ومن المفاصد الدنيوية أن الجهل بالحساب يؤدي إلى الجهل بالعلوم الكونية السببية النافعة والتي لا سبيل لفهمها فهما صحيحا إلا بالحساب كالهندسة والطب وما يترتب على ذلك من التخلف الحضاري عن سائر الأمم الأخرى في كافة الصناعات والمجالات الأخرى. وقد كان الإمام الشافعي رحمه الله يتحسر على تأخر المسلمين في علم الطب في زمانه كما نقل ذلك الإمام الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء أن الإمام الشافعي قال: لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب إلا أن أهل الكتاب قد غلبونا عليه. وقال حرمله: كان الشافعي يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول: ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى [8].

ولقد كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالأخذ بالعلم السببي النافع مثل الرمي لحاجة المسلمين له فقال: مَنْ عِلْمِ الرَّمِيِّ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنَّا، أَوْ قَدْ عَصَى (صحيح مسلم، وصححه الألباني). ولهذا فإن العلوم الكونية السببية النافعة كالهندسة والطب وغيرها، التي يحتاج إليها المسلمين والتي هي من فروض الكفاية، تكون واجبة عند حاجة المسلمين لها في دينهم ودنياهم وفي تضييعها ضعف المسلمين والحاجة إلى الكفار والإعتماد عليهم والإنهزام أمامهم. وفي الأخذ بها قوة للمسلمين وكفائتهم عن غيرهم. وما فيه المسلمين اليوم من ضعف وتفرق وتسلط الأعداء يوجب عليهم أكثر من أي وقت مضى جمع الكلمة والرجوع لله مع الأخذ بالأسباب التي شرعها الله تبارك وتعالى ومن ذلك العلوم الكونية السببية النافعة وعدم

إضاعته. فكيف بتضييع مفتاحها وهو علم الحساب الذي جاءت الشريعة بالحث عليه لإقامة العدل بين الناس. فالحساب هو علم الإتيان ولقد كان النبي ﷺ يحث أمته على الإتيان في كل شيء فعن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ [13].¹⁵ فالإتيان من معاني الحساب والإتيان الذي به يحصل القسط في المعاملات واجب لا ينبغي أن يتهاون فيه لأن خلاف ذلك يترتب عليه الظلم في المعاملات.

ولا يزال علماء السنة يبحثون على هذه العلوم النافعة إلى زماننا هذا. يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: لا شك أن الدراسة للعلوم الدنيوية أمرٌ مطلوبٌ، والله يقول سبحانه: وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ، فالمسلمون بحاجة إلى العلوم الدنيوية حتى يستعينوا بها على طاعة الله، وعلى الاستغناء عما في أيدي الناس، وعلى جهاد أعداء الله، مع كون المسلمين يتعلمون الجيولوجيا والهندسة والطب وغير ذلك مما يُعينهم، وكذلك ما يخترعون في القوة التي يُجاهد بها الأعداء؛ كل ما يُعينهم على جهاد الأعداء واتِّقاء شرِّ الأعداء ويغنيهم عن الأعداء فهو أمرٌ مطلوبٌ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ [٠] فالاشتغال بالعلوم الدنيوية التي تنفع المسلمين إن كان لله؛ أُجِرَ عليها، مع فائدتها العظيمة، وإن كان يتعلَّمها للدنيا ليستفيد في دنياه فهذا مباحٌ ولا يضرُّه ذلك. لكن العلوم الدينية أهم، فليأخذ منها بنصيب، ويجتهد في تعلم دينه، والتَّفَقُّه في دينه، ثم مع ذلك يتعلم ما ينفعه في دنياه إذا استطاع ذلك، وإذا جمع بين الأمرين فهو خيرٌ إلى خيرٍ [١٦].¹⁶

فالحساب وما يبنى عليه من شتى العلوم الأخرى وبالأخص الهندسة فيها العديد من المنافع المعرفية التي تطور الإدراك ومن أهم ذلك قوة الاستدلال العقلي في فهم الأسباب والبحث فيها ومناقشتها وإثباتها بالحجة والبرهان والحقائق وليس بمجرد الآراء. وقبلها وجدت مهندسا بارعا في مجاله إلا ورأيت

¹⁵ صحيح الجامع: 1880، وقال الألباني حديث حسن.

¹⁶ فتاوى الدروس، ما حكم وأهمية دراسة العلوم الدنيوية؟.

فيه قوة الحجّة والإستدلال العقلي. فإن إجتمع ذلك مع الصدق في النظر في آيات الله الكونية والشرعية كان سببا في قوة الإيمان. وإن إجتمع ذلك مع النظر في مختلف المعطيات كان ذلك سببا في إنجاز ما يصعب إنجازُه. ولقد تقدم قول الإمام الشافعي: "ومن نظر في الحساب جزل رأيه". ولعل من ذلك ما ذكره الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله من خلال دراسته للرياضيات والفيزياء والكيمياء في كلية الهندسة فقال: في كلية الهندسة [٠] وجدت البيئة التي فيها مناقشة عقلية قوية، فيها بحث عن البرهان، فيها بحث عن المشكلة وحلها، فيها فهم حقائق الأشياء [٠] وفي كلية الهندسة كان يقال لنا كلمة آتشتاين المشهورة: "الجنون هو أن تفعل نفس الشيء مرارا وتكرارا وتتوقع نتائج مختلفة" [٠] إذا تخرجت بصير مهندس هذا شرف ما في شيء، أفتخريعي لو كنت مهندسا لما عابني ذلك بالعكس، وأحترم كل المهندسين لأنهم عقول نافعة والبشرية كلها بنيت بالهندسة [٠] الذين أسدوا للبشرية نفعا في حياتهم هم المهندسين [٠] هم الذين بنوا الطرق والمباني، هم الذين مدوا جسور الحياة. التقنية الآن المفيدة كلها عمل مهندسين، ثلث أرباع الحياة عمل مهندسين، والطب جزء والباقي منظّمون ينظّمون الحياة [٠]. ولقد نوه الشيخ حفظه الله التشابه بين علم الحديث وعلم الهندسة وأن دراسته للهندسة كانت باعثا له للاهتمام بعلم الحديث لما فيه من قواعد وأصول في تقرير أسانيد الأحاديث كما في الهندسة من قواعد وقوانين في تقرير العمليات الحسابية.

1.5 نهج القرآن في تعلم الحساب

إن أفضل طريقة لفهم علم الحساب وتعلمه والبحث فيه هي التأمل والتفكر في آيات الله الكونية وهي الظواهر الطبيعية التي خلقها الله وجعل لها الميزان الكوني. فتى أدرك الإنسان هذه الآيات

العظيمة وتبصر فيها وتعلقلها وفهم حركاتها وسكاتها وأسبابها كان ذلك باعثا له على تعللها وحسابها. وهذا لأن جميع الآيات الكونية هي المرجع لنا لتعلم الحساب والتحقق من صحته. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. فجميع الآيات الشرعية التي تدل على تعلم العدد والحساب جاءت مقرونة بالآيات الكونية كالشمس والقمر والليل والنهار (أي حركة الأرض). ولهذا فإن علم الحساب يرتبط إرتباط مباشر بعلم الفلك. ويمكن أيضا دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا نهج معروف.¹⁷ ولكن الجمع بين العلوم الطبيعية كعلم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية هي الطريق الأمثل لتعلم وتطوير علم الحساب وهذا معروف لأهل هذا العلم.¹⁸ وبهذا يكون الميزان الكوني طريقا لتعلم الحساب الصحيح ومن ثم يكون الحساب الصحيح وسيلة لإقامة الميزان الشرعي الذي أمرنا الله به. وهذا النهج فيه العديد من المصالح الدينية والدنيوية منها الزيادة في الإيمان ومعرفة قدرة الله جل جلاله ومعرفة فضله علينا والرقى بالحضارة في تطوير الطرق الحسابية وأدائها على الوجه المطلوب. وهذا الطريق يفتح الآفاق في معرفة الأسباب وتعللها وبه يكون الحساب مفتاحا لجميع العلوم الكونية السببية النافعة مثل الطب والهندسة وغير ذلك من العلوم الأخرى.

فكل الظواهر الطبيعية التي خلقها الله جل جلاله هي تذكير لعباده حتى يتفكروا فيها ويعقلوها ومن ذلك قوله تعالى: وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَدْعًا مَوْتًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ الروم. وقوله تعالى: وَتَخَرَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ الجاثية. ووصف الله جل جلاله من أعتبر بهذه الآيات بأولي الأبواب وذكر خصالهم في قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ

¹⁷ يعرف هذا المجال اليوم بالرياضيات البحتة وقد وجد فيه أن أغلب المفاهيم الرياضية لها تطبيقاتها.

¹⁸ يعرف هذا المجال اليوم بالرياضيات الفيزيائية وهو من أهم مجالات الرياضيات التطبيقية والهندسة.

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ آل عمران. وهذا كله فيه الحث من الله تبارك وتعالى على التفكير والتأمل في آياته الكونية والتي بها يعرف العبد قدرة الله جل جلاله وفضله علينا فبرجوا رحمته ويخاف عذابه فيزداد إيماناً ويكون ذلك باعثاً له على قيام الليل كما في قوله تعالى: أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ آل عمران.

ومن أهم الظواهر الطبيعية التي يزداد بها الإيمان ويتعلم منها الحساب هي حركة الأفلاك من الكواكب والنجوم وبالأخص الأرض¹⁹ والشمس والقمر التي بها يعرف الوقت كما قال تعالى: وَيَخْرُجُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ النحل. وهذا لأن الله جل جلاله جعل حركة هذه الأفلاك في غاية الإنظام والتناسق كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ الأنبياء. وقال تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ يس. وبمعرفة ذلك يزداد الإيمان ويعرف فضل الله علينا ودقة خلقه وأنه سبحانه أتقن كل شيء خلقه وأنه سبحانه هو بديع السماوات والأرض خلق كل شيء بقدر معلوم فقدره تقديراً. ولهذا فقد حثنا وأوصانا الله عز وجل بالتدبر والنظر في هذه الآيات العظيمة وذكرنا بذلك في غالب آيات القرآن حتى

¹⁹ من أهم دلائل هذا البحث هو الإستدلال بالليل والنهار على حركة الأرض وهذا لكون أن هذه الحركة جاءت مستقلة عن حركة الشمس والقمر في جميع الآيات الشرعية فدل ذلك على حركة الأرض. ولا ينبغي أن يترك هذا لما يترتب عليه من الإستدلال الخاطئ الذي يخالف آيات الله الشرعية والكونية. وهذا بخلاف ما قرره العديد من أهل العلم أن الليل والنهار يكون بحركة الشمس حول الأرض وهذا غير صحيح ولا يثبت شرعاً ولا كوناً.

نعرف فضل الله علينا ونتفح بذلك وننوق بلفائه كما في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ الرعد.

1.6 معرفة الوقت بحساب حركة الأفلاك

إن من أعظم النعم التي بها تقوم مصالح الناس الدينية والدنيوية هي معرفة الوقت الذي جعله الله جل جلاله بحسب حركة الأفلاك كما أرشد في كتابه العظيم. ولهذا يعرف الوقت بالعد والحساب لحركة الأفلاك المتناسقة والمتزنة وهذا من فضل الله جل جلاله على الناس أجمعين ومن ذلك قوله تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ الأنعام. يقول السعدي رحمه الله في تفسيره: جعل تعالى الشمس والقمر حُسْبَانًا بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتتضبط بذلك أوقات العبادات، وآجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس، بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت [1].

وبدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس يعرف تتابع الليل والنهار حيث قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ الفرقان، ومقدار كل منهما 12 ساعة على خط الإستواء كما بين ذلك النبي ﷺ في قوله: يَوْمُ الْجُمُعَةِ ثَلَاثَا عَشْرَةَ سَاعَةً. ودوران القمر حول الأرض ومعها حول الشمس يعرف به منازل القمر والتي بها تعرف أيام الشهر حيث قال

تعالى: وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ يس، ومقداره 29 أو 30 يوما كما بين ذلك النبي ﷺ في قوله: الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ.²⁰ ودوران الأرض والقمر جميعا حول الشمس يعرف به السنة ومقداره 12 شهر منها أربعة حرم كما بين ذلك ربنا سبحانه وتعالى في قوله: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ التوبة. وهذه هي الأشهر القمرية التي دلنا الشرع عليها. كما يمكن أيضا تقسيم السنة إلى 12 شهرا بحسب مكان الأرض من النجوم الثابتة في السماء خلال دورة الأرض حول الشمس وهذه هي الأشهر الشمسية.

ويعتدل طول الليل والنهار في الأرض على خط الإستواء طول العام فيكون عنده الليل 12 ساعة والنهار (أو اليوم) 12 ساعة وبهذا يكون اليوم كاملا 24 ساعة. ولا يزيد طول اليوم الكامل عن 24 ساعة ولكن يزداد طول النهار ويقصر فوق وأسفل خط الإستواء بحسب أوقات السنة. فإذا قصر النهار طال الليل وإذا طال النهار قصر الليل بنفس ذلك المقدار. وقد جاء عن جابر بن عبد الله أن النبي قال: يَوْمَ الْجُمُعَةِ ثِنْتَا عَشْرَةَ سَاعَةً. فإن كان المراد الساعة التي هي 60 دقيقة، لا يكون ذلك على طول العام إلا على خط الإستواء. ويمكن معرفة مقدار هذه الساعة بطول النهار وقصره بتقسيم عدد ساعات النهار على 12. فمثلا لو قصر طول النهار من 12 ساعة إلى 10 ساعات يكون مقدار الساعة 50 دقيقة. ولو زاد طول النهار إلى 14 ساعة يكون مقدار الساعة 70 دقيقة، وهكذا. وتأمل في أن النبي ﷺ قد دل على عدد ساعات الليل والنهار بالمتوسط الذي لا يعتدل طول العام إلا على خط الإستواء، ولم يقيّد ذلك بالمكان أو أوقات السنة فدل هذا على العموم وهذا بلا شك صحيح

²⁰ صحيح البخاري: الرقم.

ومن دلائل نبوته ﷺ. وقد خص ﷺ يوم الجمعة لأنه خير الأيام وهو عيد للمسلمين وفي آخره ساعة الإستجابة.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه جعل الليل والنهار خلفه، وأنه سبحانه يقلب الليل والنهار، وأنه سبحانه يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل، وأنه سبحانه يوج الليل في النهار ويوج النهار في الليل. فلما كانا الليل والنهار في الأرض، وأن الله جل جلاله وصف حركة الليل والنهار بحركة مستقلة غير حركة الشمس والقمر، دل ذلك على أن الليل والنهار يكون بحركة الأرض وأن الأرض كروية تدور حول نفسها بزاوية مائلة بالنسبة لمدارها حول الشمس. وهذا فيه أن الله يكور الليل على النهار بدوران الأرض حول نفسها وليس بدوران الشمس عليها. فن معنى التكوير تدوير الشيء نفسه وهذا لا يكون بتدوير الشمس على الأرض. وقد جاء في تفسير القرطبي: معنى التكوير في اللغة، وهو طرح الشيء بعضه على بعض، يقال كور المتاع أي: ألقى بعضه على بعض، ومنه كور العمامة [2]. وبهذا يخلف الليل والنهار كل منهما الآخر، ويلج أحدهما في الآخر باستمرار، فما طال من الليل يدخل في النهار والعكس بحسب مكان الأرض في مدارها وإتجاه درجة ميلانها بالنسبة للشمس. وهذا لا يتعارض بأي حال من الأحوال مع حركة الشمس. ولا يلزم من إثبات حركة الشمس هو دورانها حول الأرض فهذا استدلال باطل فالله جل جلاله أثبت جريان الشمس بالعموم ولم يجعل ذلك دليلا على دورانها حول الأرض. كما أنه لا يلزم بالقول بدوران الأرض حول الشمس بنبات الشمس بالكلية، فهذا ينافي صريح كتاب الله جل جلاله.²¹

ولهذا تتابع الفصول الأربعة وهي الشتاء والربيع والصيف والخريف خلال السنة الواحدة. وهذا

²¹ وكل هذا فيه أن الأرض هي التي تدور حول الشمس وليس العكس بخلاف ما قرره العديد من أهل العلم الشرعي أخذا بظاهر الآيات مع الملاحظة فقط دون الرجوع إلى القياس أو الحساب.

لأن الأرض تدور حول نفسها بزاوية دوران مائلة تقدر 23.5 درجة بالنسبة لمحور دورانها حول الشمس. وهذه الزاوية هي التي تتسبب في طول النهار وقصره فوق وأسفل خط الإستواء خلال السنة الواحدة. فلو كانت الأرض تدور حول نفسها بشكل عمودي بالنسبة للشمس لما كانت الفصول الأربعة ولما قصر أو طال النهار خلال العام الواحد في نفس البلد. ولو كانت الأرض تدور حول نفسها بشكل أفقي بالنسبة للشمس لما كانت الفصول الأربعة ولأستغرق الليل والنهار عاما كاملا. ولك أن تتصور حكمة الله البالغة في ميل زاوية دوران الأرض بالنسبة للشمس بهذه الدرجة الدقيقة لكي يتابع كل المواسم الأربعة خلال العام الواحد فتكون بذلك فترة كل موسم 3 شهور وتتابع جميعها خلال 12 شهرا لتم العام الواحد كما يتتابع الليل والنهار خلال 24 ساعة ليم اليوم الكامل. وتتابع هذه المواسم ابتداء من الشتاء الذي يقصر فيه النهار فيبرد فيه الجو وتكثر فيه الأمطار، والربيع الذي يتوسط فيه النهار بعد قصره فيعتدل فيه الجو بعد برودته فتتلون فيه الأشجار، والصيف الذي يطول فيه النهار بعد توسطه فيسخن فيه الجو بعد إعتداله، إلى الخريف الذي يتوسط فيه النهار بعد طوله فيعتدل فيه الجو بعد سخونته فتسقط الأشجار أوراقها. وتتفاوت الأشجار والحيوانات ومصالح الناس في هذه الفصول والمواسم كل بحسب ما قدر الله جل جلاله له وهذا من فضل الله ورحمته.

وقد ذكر الله جل جلاله هذه الفصول والمواسم التي بتتابعها تسقط الأمطار فتنمو الأشجار وتتلون ثم تصفر فتسقط أوراقها كما في قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢١﴾ الزمر. يقول ابن كثير في تفسيره: وكثيرا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء، وينبت به زروعا وثمارا، ثم يكون بعد ذلك حطاما، كما قال تعالى: وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الكهف [14]. وكل هذا فيه تذكير من الله لعباده لكي يعتبروا بذلك ويستحضروا أن الله قادر على بعثهم وحسابهم كما قال تعالى: فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتِ ۖ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ التوبة.

1.7 طرق الاستدلال وبطلان الأخذ بالمشاهدة فقط

ولتقرير حقيقة أن الليل والنهار يكون بدوران الأرض حول نفسها وليس بدوران الشمس عليها، وجب بيان طرق الاستدلال لإقامة الحجة الشرعية والكونية على هذا الأمر. فن المعلوم أن الأشياء الظاهرة في العلم الكوني السببي تكون قابلة للقياس والحساب ولهذا يمكن إثباتها بالعلم التجريبي بما تقوم به الحجة العقلية.²² وهذا أمّا يكون في العلم الكوني السببي الظاهر وليس في العلم الشرعي أو العلم الغير ظاهر كعلم الغيب الذي لا يدرك إلا بالوحي من عند الله تبارك وتعالى. ولكن الأخذ بالمشاهدة فقط في تقرير الحقائق الكونية دون الإعتبار بطرق الاستدلال الأخرى يؤدي إلى الخطأ في وصفها على الوجه الصحيح. فالعديد من الظواهر الكونية السببية القابلة للقياس لا تظهر بوضوح للمشاهد، وقد تظهر بشكل مغاير تماما للواقع، وقد لا تظهر بالكلية. فعدم مشاهدتها لا يلزم عدم وجودها، كما أن مشاهدتها على وجه معين لا يلزم حقيقتها إلا إذا توفرت الحجة في إثبات ذلك مع عدم وجود الموانع بطرق الاستدلال الأخرى. ولهذا لا يمكن الإعتماد على الاستدلال بالمشاهدة فقط في تقرير حقائق الأشياء. بل إن ذلك قد يكون مضللا في العديد من الأحيان.

فالحة العقلية تدل على أن الأشياء التي لا تدرك بالمشاهدة لا يلزم بالضرورة عدم وجودها وإنما

²² أما القول بأن التجارب المثبتة هي مجرد أوهام وظنون فهذا كذب محض من بالغ في إبطال الحجة العقلية حتى عطلها.

وإنما الظنون تكون فقط في النظريات الغير مثبتة والغير مؤكدة وهناك فرق كبير بين العلم المؤكد والغير مؤكد.

فقط غيابها. ولهذا لا يدرك الإنسان ما غاب عنه إلا إن توفرت له السبل في معرفة ذلك. ومما يؤكد هذا المعنى أن إبراهيم عليه السلام وصف غياب النجوم والقمر والشمس بالأفول ولم ينكر وجود أي منها عند غيابها كما في قوله تعالى: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ^ط قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ^ط فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ الأنعام. ولهذا فقد أستدل إبراهيم عليه السلام بالحجة العقلية على وجود الخالق بالغيب بوجود هذه الأشياء وأن الله جل جلاله هو وحده المستحق للعبادة فقال: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ^ط وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ الأنعام. انظر 9.1 مسألة بحاجة إبراهيم لقومه.

إن الفرق بين الاستدلال بالملاحظة فقط والاستدلال لمعرفة حقائق الأشياء كالفرق بين النظر والبصر. فالتنظر فيه رؤية الشئ على ظاهره وأما البصر فيه إدراك الشئ على حقيقته. فلا يلزم أن يكون ظاهر الأشياء موافق لحقيقتها على الإطلاق. فالعديد من الأشياء قد لا تدرك على حقيقتها بمجرد النظر فقط كما هو معروف مع السراب. ولقد ضرب الله جل جلاله السراب مثلا على أعمال الكفار في قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ^ط وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ التور. وقد جاء في تفسير البغوي: "السراب" الشعاع الذي يرى نصف النهار عند شدة الحر في البراري ، يشبه الماء الجاري على الأرض يظنه من رآه ماء ، فإذا قرب منه انقش فلم ير شيئا [5]. وهذا فيه أن الاستدلال بالملاحظة فقط على وجود الماء من بعيد في وضخ النهار دون تأكيد ذلك بطرق الاستدلال الأخرى يكون غير صحيح وغير موافق للواقع.

وبهذا يتبين بطلان الإستدلال بظاهر الأشياء فقط في تقرير حقائقها دون إتباع طرق الإستدلال الأخرى التي أرشدنا الله تعالى إليها. ولأن الأخذ بالنظر فقط لا يلزم بذلك إدراك حقيقة الأشياء كما هو الحال مع البصر، فإن البصر أكل من النظر. فالبصر هو إدراك الأشياء على حقيقتها مع معرفة أسبابها ومراد الله منها والإعتبار بها. ولهذا تكرر في كتاب الله جل جلاله أن العبرة تكون لأولي الأبصار ولم يأتي لفظ أولي الأنظار ولو لمرة واحدة. فدل ذلك على أن العبرة في معرفة الحق وإتباعه والإنتفاع به وليس فقط مجرد النظر في الأشياء دون تعقلها والتفكر فيها. وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ الأعراف. فقد أثبت الله جل جلاله مجرد النظر لهم على الظاهر ونفى عنهم البصر وهو إدراك الشئ على حقيقته. وجاء في تفسير السعدي رحمه الله معنى ذلك: فتراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون حقيقة [١] وقيل: إن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق [1].

ومن ذلك أن الله عز وجل نفى إدراك الأبصار له على الإطلاق في قوله تعالى: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ الأنعام. مع إثبات النظر إليه في الجنة كما في قوله تعالى: وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ القيامة. وجاء بيان ذلك في تفسير السعدي رحمه الله: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ) لعظمته، وجلاله وكأله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه، وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يثبتها بالمفهوم. فإنه إذا نفى الإدراك، الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دل على أن الرؤية ثابتة. فإنه لو أراد نفى الرؤية، لقال "لا تراه الأبصار" ونحو ذلك [1].

كما أن الله جل جلاله وصف نفسه بالبصير وهو الخبير المطلع على كل من في السموات والأرض كما في قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ المجرات. كما أنه سبحانه مطلع على أعمال العباد على حقيقتها ولا يخفى منها شيء كما في قوله تعالى: وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ البقرة.

ولهذا فإن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وصفوا بالبصر لإعتبارهم بآيات الله على وجهها الصحيح كما في قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام: فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ^ط قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ يوسف. ولهذا أثبت الله سبحانه وتعالى صفة البصر له ولأبويه إبراهيم وإسحاق عليهم السلام في قوله تعالى: وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ ص. وقال تعالى في حق من يدعوا الناس لدعوة الحق: قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ^ط وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ يوسف.

وطرق الاستدلال التي هي من أسباب إدراك حقائق الأشياء الظاهرة ثلاث: السمع والبصر والعقل. وقد جاءت مجتمعة في قوله تعالى: قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ^ط قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ الملك. ولكن الله جل جلاله جعل العقل أساس هذه الطرق، ففتى أغلق العقل إنسد طريق الاستدلال بالسمع والبصر. قال تعالى: وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ^ط صُمُّ بَكْمٌ عُمِّي فُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ البقرة. قال السعدي رحمه الله في تفسيره: فهم يسمعون مجرد الصوت، الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم، فهذا كانوا صما، لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميا، لا ينظرون نظر اعتبار، بكما، فلا ينطقون بما فيه خير لهم. والسبب الموجب لذلك كله، أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجاهلاء [1]. وقال تعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا

تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ الحج. فدل على أن العمي لا يكون بمجرد إلتفاء النظر ولكن إلتفاء البصيرة والتي أساسها العقل ومحلها القلب. وجاء في تفسير ابن كثير رحمه الله: أي: ليس العمي عمى البصر، وإنما العمي عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر [14]. وجاء في تفسير البغوي: معناه أن العمي الضار هو عمى القلب، فأما عمى البصر فليس بضار في أمر الدين [5].

ولقد ذم الله تبارك وتعالى الكافرين لعدم إلتفاعهم بطرق الإستدلال رغم تعددها وتنوعها والتي هي من أعظم أسباب معرفة الحق وإتباعه. ولم يذكر سبحانه وتعالى النظر فقط في طرق الإستدلال بل أضاف السمع والعقل مع البصر كما في قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ يونس. يقول السعدي في تفسيره لهذه الآيات: وهذا الاستفهام، بمعنى النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً [٠] وأما سماع الحجّة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسده عليهم، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر. ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ فَلَا يَفِيدُهُ نَظَرُهُ إِلَيْكَ، ولا سبر أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء. فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصول لهم إلى الحق؟ [1]. وهذا فيه بيان طرق الإستدلال الموصول إلى الحق وهذا يشمل السمع والبصر وأساس ذلك العقل.

ولهذا فإن الأخذ بالنظر (أي المشاهدة) فقط دون الإعتبار بطرق الإستدلال الأخرى وخصوصاً مع وجود الموانع يؤدي إلى الخطأ في الإستدلال كما هو الحال في القول بثبات الأرض بالكلية وبدوران

الشمس حولها. وهذا مخالف لما أرشد الله تعالى إليه في كتابه العظيم ومن ذلك وجوب الإعتبار بالحجة العقلية والتي جاءت في هذا الأمر على وجه الخصوص في قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٩٠﴾ آل عمران. فدل ذلك على وجوب الإعتبار بالحجة العقلية مع النظر لتحقيق البصيرة التي بها يمكن إدراك الحقيقة كما في قوله تعالى: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ النور. ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية. فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم [1]. ومن طرق الإستدلال التي دل الله جل جلاله إليها في معرفة حقيقة الشمس والقمر والليل والنهار على وجه الخصوص العقل والحساب. فعدم الإعتبار بالعقل والحساب مخالفة واضحة وصریحة لكتاب الله جل جلاله. وعليه فإن تنوع طرق الإستدلال من سمع وبصر وعقل وغير ذلك من طرق القياس والحساب الموافقة للعقل يكون واجبا في تقرير الحقائق الكونية لمعرفة الحق بالحجة والبراهين الثابتة وليس مجرد الآراء والإجتهادات التي لا تقوم بها الحجة البالغة.

1.8 مفاهيم خاطئة حول الأرض والشمس والقمر

وأما من فسر كلام الله على أن الأرض في حقيقتها ثابتة بالكلية لا تدور حول نفسها وأن الشمس هي التي تدور عليها أخذاً بالمشاهدة فقط ودون الإعتبار بطرق الإستدلال الأخرى فهذا كلام خاطئ لا يصح عقلا ولا يثبت شرعا. وإن فهم أن ظاهر الأدلة في ذلك وهذا لأن الله جل جلاله وصف هذه الآيات على وجهين. الوجه الأول وصفها بالنسبة لظاهرها مثل قوله تعالى: قَالَ إِبْرَاهِيمُ إِنَّ اللَّهَ

يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ (البقرة). وقوله تعالى: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَوَارَوْعَ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ (الكهف). وأما الوجه الثاني وصفها بالنسبة لحقيقتها مثل قوله تعالى: وَخَرَجَ لَكُمْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ دَائِبَيْنِ^ط وَخَرَجَ لَكُمْ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ﴿٣٣﴾ (إبراهيم). وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ (الأنبياء). وقوله تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ^ج لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ (يس).

فالوجه الأول فيه بيان هذه الآيات على ظاهرها بحسب المشاهدة وبما تفهمه العقول. فالله جل جلاله يخاطب الناس بما يناسب عقولهم كما في قوله تعالى: وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (الروم) أي بالنسبة للعقول فالله على كل شيء قدير. وأما الوجه الثاني فيه بيان هذه الآيات على حقيقتها بالطريقة التي سخرها الله بها. ولا يلزم أن يكون ظاهر الأشياء موافق لحقيقتها وبالأخص فيما يتعلق بحركة الشمس والقمر والأرض. ولمعرفة الحق في ذلك لابد من الاستدلال بالطرق التي دل الله عليها ومن ذلك العقل مع السمع والبصر. وقد أرشد سبحانه وتعالى إلى الحساب عند ذكره للشمس والقمر والليل والنهار في العديد من المواضع في كتابه العظيم فدل على وجوب الأخذ والاستدلال به لمعرفة هذه الحقائق الكونية. وأما الاستدلال بالمشاهدة فقط دون الاعتبار بطرق الاستدلال الأخرى التي أرشد الله تعالى إليها فهذا يخالف كتاب الله جل جلاله. ولهذا يجب أن يكون الاستدلال بالمشاهدة معتبرا في تقرير حقائق هذه الأشياء إذا كان مدعوما بالحجة البالغة والدليل القاطع ولا يوجد ما ينافي ذلك من طرق الاستدلال الأخرى.

وأما الاستدلال بثبات سطح الأرض بأنها ثابتة بالكلية فهذا لا يقوم لا بالحجة العقلية ولا الشرعية.

وثبات سطحها لا ينافي دورانها حول نفسها بالنسبة لمن هو عليها كالذي يثبت على سطح المركوب المنتظم في السير. كما أن ثبات سطح الأرض لا يلزم دوران الشمس عليها. وهذا لأنه بالنسبة لمن هو على الأرض فإنه يشاهد الشمس تدور عليه بتعاقب الليل والنهار. ولكن في حقيقة الأمر أنه ثابت على سطح الأرض التي تدور حول نفسها في غاية الانتظام فلا يشعر بدورانها ويظهر له أن الشمس تدور عليه ولكن الأرض الكروية هي التي تدور حول نفسها وهذه الدورة الكاملة هي التي مقدارها 24 ساعة والتي فيها يتعاقب الليل والنهار. وقد ثبت بالقياس دوران الأرض حول نفسها بتجربة بندول فوكو.²³ وفي المقابل فإن القول بثبات الأرض بالكلية ودوران الشمس عليها لا يثبت حتى بالملاحظة لأطوار الزهرة بل أن ذلك موافق لدوران الزهرة حول الشمس. وقد ثبت أيضا أن للمشتري أربعة أقمار كبيرة تدور عليه. كما أنه لا يمكن تفسير إختلاف مواقع النجوم في السماء خلال العام الواحد إلا بدوران الأرض حول الشمس وليس العكس. وكل هذا بخلاف القول أن كل شيء يدور حول الأرض بما في ذلك الشمس. وقد تبين بالحساب أن النماذج الرياضية على أساس دوران الكواكب في المجموعة الشمسية حول الشمس أعم وأشمل وأدق بكثير من النماذج التي تكون على أساس مركزية الأرض. وهذا لأن هذه الأخيرة لا يمكنها تفسير حركة الكواكب والنجوم إلا بكثير من التعقيد والتعديلات التي تنافي الحركة الطبيعية لهذه الأفلاك فدل ذلك على بطلان القول بمركزية الأرض.

ومن جعل الأرض ثابتة بالكلية لا تدور حول نفسها ولا تسير في فلكها فقد خالف النقل والعقل ونفي عنها السير في الفلك والسباحة فيه وهي الدوران. بل ويترتب على هذا الفهم الخاطئ معارضة الآيات الشرعية التي تدل على تكوير الليل والنهار في الأرض بدورانها حول نفسها لأن هذه الحركة

²³ ثبت بالتجربة أن البندول المتأرجح ثابت الإتجاه نتيجة لقانون حفظ الزخم الزاوي. وقد وجد أن البندول المتأرجح يدور دورة كاملة خلال 24 ساعة عند القطب الشمالي. كما أمكن أيضا حساب فترة دورانه بحسب موقع القياس. يعتبر هذا من أبسط وأقوى الأدلة العقلية على دوران الأرض حول نفسها دون الحاجة للإستدلال بالنجوم الثابتة في السماء.

جاءت مستقلة دون حركة الشمس والقمر كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ الأنبياء. ومن قال أن هذه الحركة لا تشمل الأرض فقد خالف سياق الآيات التي عammt هذا الحكم الكوني على هذه الأفلاك والتي إشمئت على الليل والنهار اللذان يكونان في الأرض. ويلزم بهذا النفي إنكار وجود الليل والنهار في الأرض وهذا لا ينكره عاقل. فجميع آيات "وكل في فلك يسبحون" إشمئت على الليل والنهار فدل بشكل لا لبس فيه أن الأرض في فلك تسبح أي تدور حول نفسها وتسير في فلكها حول الشمس. ومما يوضح هذا المعنى أن الله عز وجل وصف النهار بأنه يحلي الشمس وأن الليل يغشي الشمس في قوله تعالى: وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ الشمس، فدل هذا على أن الليل والنهار يكونان بحركة مستقلة وهي حركة الأرض وليس حركة الشمس. ولهذا لما كان سياق الآيات السابقة عن الشمس، جعل الله تعالى ظهور الشمس بالنهار وغيابها بالليل. وعندما كان سياق الآيات عن الليل والنهار لم يجعل ذلك مقيدا بحركة الشمس كما في قوله تعالى: وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ الليل، فجعل سبحانه تجلي النهار وتغشى الليل مستقلان فدل على أن الليل والنهار يكونان بإستمرار دوران الأرض حول نفسها وأن الشمس ثابتة بالنسبة للأرض التي تدور عليها، والله فوق كل ذي علم عليم ﷻ.

فدورة الأرض الواحدة حول نفسها تستغرق 24 ساعة، ودورة القمر حول نفسه مقيدة بدورانه حول الأرض فيتم دورة كاملة عند تمام دورته على الأرض ومقدارها 29 أو 30 يوما. ولهذا فإن وجه القمر ثابت لا يتغير بالنسبة لمن هو في الأرض. وقد ثبت أن الشمس تدور حول نفسها ومقدار ذلك 27 يوم وقد صور ذلك بالتلسكوبات. وقد ثبت أيضا أن الشمس وما معها من كواكب في هذا النظام الشمسي تدور جميعا حول مجرتنا كما تدور الأرض ومعها القمر حول الشمس. ويمكن

معرفة ذلك بحركة النجوم في السماء وبالأخص النجوم الثابتة والتي جعلها الله تبارك وتعالى مرجعا للأرض وللنظام الشمسي كله للإهتداء بها كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ (الأنعام). فدل هذا على ثباتها بالنسبة للمجموعة الشمسية وأنها تدور معها وهذا من فضل الله ورحمته بعباده. والقول بدوران الأرض حول نفسها لا يلزم أن تكون الشمس ثابتة لا تتحرك بالكلية وإنما ثابتة فقط بالنسبة لمن يدور عليها من الكواكب ولكنها تدور حول نفسها وتتحرك حول المجرة مع كواكبها في النظام الشمسي كما أن الأرض ثابتة بالنسبة للقمر وهم معا يدورون حول الشمس.

وقد أرشدنا الله جل جلاله أن كل الأفلاك في فلك يسبحون، وهذا يعني أن الأرض لها فلك أي مدار تسير عليه كما للشمس والقمر وسائر الكواكب والنجوم الأخرى وأن كل منهم يسبح في هذه المدارات أي في حركة مستمرة يدور حول نفسه بحسب ما قدر الله عز وجل لها. فالفلك هو المدار والسباحة هي الدوران. وقد جاء في تفسير ابن كثير عن معنى قوله تعالى: وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ (يس) أي: يدورون. قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل في الفلكة. وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن [ص 14]. فتأمل تشبيه الصحابة لحركة الأفلاك بحركة المغزل في الفلكة وهذا فيه أن الصحابة رضوان الله عليهم قد فهموا ذلك فهما صحيحا من النبي ﷺ فتحقق فيهم وصف أولي الأبصار لأنهم أدركوا ذلك على حقيقته. وهذا موافق للعلم الحديث والمؤكد وفيه دليل نبوته ﷺ وأن هذا الوصف لا يأتي قبل 1400 عام إلا من العليم الخبير الذي خلق هذا النظام وأتقنه سبحانه وتعالى. فمن المعروف أن المغزل لا يغزل به إلا بتدويره حول نفسه وهذا فيه وصف السباحة وهي الدوران. ومن تمام معرفتهم أنهم شبهوا مدار الأفلاك بالمغزل الذي يسير في الفلكة أي في مداره وهذا

فيه إثبات السير مع الدوران لكل الأفلاك. وهذا يدل على أن الأرض تدور حول نفسها كما يدور القمر والشمس وسائر الكواكب والنجوم الأخرى. وأنها جميعا تسير مع الدوران في مداراتها ومن ذلك حركة القمر حول الأرض وحركة الأرض حول الشمس وحركة الشمس حول المجرة وكذلك سائر النجوم والكواكب الأخرى تدور حول نفسها وتسير في أفلاكها وهذا معروف وثابت بالملاحظة والقياس والحساب وبالأخص في النظام الشمسي.

وبهذا يعلم أن الأفلاك الصغيرة تتبع الأفلاك الأكبر حجما والأثقل وزنا وكلها تتابع في سلسلة مقيدة بذلك لا تحيد عنه ولا تميل في نظام بدیع ودقيق وجميل لا يدل إلا على عظمة الخالق وعظيم سلطانه وكمال علمه وواسع فضله. فكل الأفلاك تسير في حركة مستمرة ومتناسقة ومنظمة بإستمرار تدور حول نفسها وتسير في مداراتها.²⁴ ومن ذلك حركة الشمس والقمر والليل والنهار في الأرض كما في قوله تعالى: **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ** ^ط **وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ** ﴿٣٣﴾ (إبراهيم). يقول السعدي رحمه الله: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ) لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصلحكم، من حساب أزمتمكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم ﴿٣٣﴾ [1]. وتستمر هذه الحركة المنتظمة إلى أن يشاء الله كما في قوله تعالى: **خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ** ^ط **وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى** ^ط **أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ** ﴿٥٥﴾ (الزمر). ﴿١﴾ [1] يقول السعدي رحمه الله: (لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلائها وشمسها وقمرها، وينشيء الخلق نشأة جديدة ليستقروا في دار القرار، الجنة أو النار ﴿١﴾ [1].

وقد ظن الناس قديما أن الشمس بل والسماء كلها هي التي تدور حول الأرض أخذاً بالملاحظة

²⁴ وهذا الدوران والسير يكون غالبا عكس عقارب الساعة بالنسبة للأقطاب الأفلاك الشمالية. والسير يكون في حركة دائرية

تشبه حركة الطواف حول الكعبة. وكل ميسر لما خلق له بأمر الله تعالى.

فقط لقلة علمهم بالحساب وعدم توفر أدوات القياس وعدم الإعتبار بمنازل القمر وفصول السنة ومواقع النجوم في السماء وماذا يترتب على هذا القول الخاطئ. فلو كانت الشمس هي التي تدور حول الأرض بنفس زاوية الميل لتعاقبت علينا الفصول الأربعة خلال اليوم واللييلة الواحدة وهذا لا يكون. ولو كانت الشمس هي التي تدور حول الأرض لوافقت منازل القمر تعاقب الليل والنهار وكان بذلك الشهر هو نفسه اليوم واللييلة وهذا لا يكون. بل إن هذا يلزم أن القمر يتبع الشمس في دورتها اليومية حول الأرض وأن الشمس تدور على القمر مرة في الشهر رغم بعدها فلزم أن تكون الشمس في حركة سريعة جدا يتنافى مع طبيعة هذه الأفلاك. وهذا يلزم أيضا أن الشمس تدرك القمر مرة في الشهر خلال دورانهم حول الأرض والله جل جلاله نفى أن تدرك الشمس القمر على الإطلاق في قوله تعالى: لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ (يس). والعديد من الظواهر الطبيعية الأخرى كظاهرة المد والجزر التي لا تستقيم بالقول بثبات الأرض ودوران الشمس عليها.²⁵ وهذا الظن سببه أن الإنسان لا يشعر بدوران الأرض ولا بكرويتها. وهذا أولا لأن حركة الأرض في مدارها مع دورانها حول نفسها في غاية الإنتظام والتناسق، وثانيا لأن حجم الأرض حتى بالنسبة لنظر الإنسان كبير جدا فيصعب عليه إدراك كرويتها فضلا عن إدراك حركتها دون الابتعاد عنها.

ولا يستقيم أن يقال الأرض مسطحة في شكلها بالكلية وإنما قد تبدوا مسطحة بالنسبة للمشاهد لكبر حجمها ولكنها كروية في شكلها الكلي. فلو كانت مسطحة في شكلها بالكلية لإختلت كل الظواهر الطبيعية الأخرى التي نعرفها. ومن ذلك تعطل منازل القمر وانعدام ظاهرة الكسوف والخسوف وغيرها من الظواهر الأخرى. فمن قال أن الأرض مسطحة جعل الشمس والقمر على مسافة واحدة

²⁵ وهذا لأن ظاهرة المد والجزر هي ظاهرة يومية تحدث بفعل جاذبية القمر والشمس ودوران الأرض حول نفسها.

من الأرض ولو كان ذلك حقاً لما حجب القمر الشمس في ظاهرة الكسوف ولضرب كل منهما الآخر وتخلت هذا النظام كله ولما حجب الأرض ضوء الشمس عن القمر في ظاهرة الخسوف. ولو كان القمر أبعد من الشمس لما حجب القمر الشمس ولما رأينا الخسوف على البدر في ظلمة الليل ولتعطلت منازل القمر فما رأينا إلا البدر. وأما من جعل الأرض مسطحة ولكن القمر أقرب من الشمس فقد عطل منازل القمر ولما رأينا البدر أبداً فضلاً عن الخسوف في ظلمة الليل.

ودوران الأرض حول نفسها مع كرويتها لا يتعارض مع كونها مهيبة ومسطحة بالنسبة لمن يعيش فيها ويمشي عليها. فمن المعروف أن السطح المكور لا يعرف تكويره بالنسبة لمن هو عليه إن كبر حجمه أو صغر جزء القياس والنظر فيه. ولهذا تعرف كروية الأرض بالإستدلال بكروية الشمس والقمر وبالمشاهدة كما هو معروف وثابت بالصور الملتقطة من الفضاء. وبهذا فإن طرق الإستدلال الكونية والشرعية توافقت على كروية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس وبطلان القول بدوران الشمس عليها.

1.9 مناقشة علمية لأقوال أهل العلم في حقيقة حركة الأفلاك

لا شك أن حب العلماء والتأدب معهم ولزوم غرضهم من أعظم أسباب الصلاح في الدنيا والآخرة. ولكن ذلك لا يمنع مخالفتهم متى كان الحق في خلاف قولهم وثبت الدليل بذلك. فأهل السنة والجماعة يدورون مع الحق أينما كان ويعرفون الرجال بالحق وليس الحق بالرجال. فالله جل جلاله كلفنا بالحق بل إن معرفة الحق وإتباعه والتحاكم إليه فرض على كل مكلف عاقل وهذا من أعظم ما يتعبد الله به. ولهذا فقد حذرنا الله تعالى من مخالفة الحق وكتمانه متى إستبان كما في قوله تعالى: وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ

بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ (البقرة). كما إن الله تبارك وتعالى ذم المقلدين الذين لا يخالفون الحق تعصبا لغيره فقال: يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ (الأحزاب). قال الشيخ ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله: (هذا في المقلدين). ولا ينقص من قدر أهل السنة والجماعة أن يخطئوا في بعض المسائل الإجتهدية التي لا تخالف أصول الدين ومنهج أهل الحق. ولهذا فإن دراسة أقوال أهل العلم لبيان الحق والبحث فيها لمعرفة الراجح منها يكون من شهادة القسط التي أوصى الله تعالى بها في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ (النساء). وقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ (المائدة). ولهذا كان من الواجب النظر في أقوال أهل العلم فيما يتعلق بحقيقة الشمس والقمر والأرض وعرض ذلك على ما تقدم من الأدلة.

نقل شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله عن السلف وكذلك اجماع أهل العلم في زمانه على أن كل الأفلاك كروية، راجع 9.2 مسألة كروية الأفلاك لشيخ الإسلام ابن تيمية. إلا أن شيخ الإسلام نقل أيضا أن الأرض في وسط السماء وأن السماء كالقبة تدور حول الأرض نظرا لأن جميع الكواكب تدور جميعا من المشرق إلى المغرب على ترتيب واحد. وهذا صحيح بالنسبة للمشاهد فقط كالذي يرى أن الشمس تدور عليه بتعاقب الليل والنهار. ولكن في حقيقة الأمر أن الأرض هي التي تدور حول نفسها فتبدو للمشاهد وكأن السماء بكاملها تدور عليه. ولقد تقدم بطلان الأخذ بالمشاهدة فقط في تقرير حقائق الأشياء وبالأخص فيما يتعلق بالشمس والقمر والأرض. فلو كانت السماء هي التي

تدور حول الأرض لما تغيرت مواضع النجوم التي يهتدى بها خلال العام الواحد ولزم بهذا القول أن نجوم الإستدلال ثابتة في اليوم واللييلة كما في العام الواحد وهذا غير صحيح. فلا يمكن تفسير حركة النجوم في السماء إلا بالقول بدوران الأرض حول الشمس وليس العكس. وبهذا لا يلزم أن تكون الأرض في وسط السماء ومحور الكون كله ومركزه بل هي في جزء صغير جدا منه تدور حول نفسها وتسير في مدارها حول الشمس.

ولقد قرر الشيخ العثيمين رحمه الله تعالى أن الشمس هي التي تدور حول الأرض واستدل بقوله تعالى: وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ (الكهف). وقال: فهذه أربعة أفعال كلها مضافة إلى الشمس، إذا طلعت تزاور، وإذا غربت تقرضهم. والأصل في إضافة الفعل إلى فاعله أنه قائم به فترى الشمس هي التي تطلع، وهي التي تزاور، وهي التي تغرب، وهي التي تقرض [٠] فعلياً أن تؤمن بهذا الظاهر إلا إذا جاءنا أمر يقين مثل الشمس: أن الشمس ثابتة، وأن تعاقب الليل والنهار يكون بدوران الأرض فحينئذٍ تؤمن بهذا، ويمكن أن يؤول القرآن إلى أن معنى قوله: (إذا طلعت) أي: في رأي العين؛ لأن على من يقول: إن تعاقب الليل والنهار بسبب دوران الأرض: هل هي التي طلعت علينا؟ أم نحن الذين طلعتنا عليها؟ نحن الذين طلعتنا عليها؛ لأننا نحن الذين جئنا إليها، ما دام تعاقب الليل والنهار يكون بدوران الأرض معناه: نحن الذين جئنا إليها حتى رأيناها، وهي واقفة في مكان ثم دارت الأرض، نحن الذين جئنا ونحن الذين طلعتنا عليها. وعلى كل حال: نحن لا نعلم الغيب إلا ما علما الله -عز وجل-، فنؤمن بظاهر القرآن، ونقول: إن الشمس والقمر يكون سببها تعاقب الليل والنهار، هذا هو الظاهر لنا، فلو قدرنا أننا علما علم اليقين بأن الأمر ليس على ظاهره، أمكن أن نصرف الآيات عن ظاهرها إلى معنى لا ينافيه ^{هــ}، ولقد أقر الشيخ العثيمين رحمه الله أن سبب هذا الترجيح هو الأخذ بالمشاهدة فقط كما أنه أقر القول الأخر عند

ثبوت الدليل. وقد تقدم معنا عدم لزوم موافقة ظاهر الأشياء لحقيقتها وأن المشاهدة فقط لا تكفي. ولقد تحققت الحجة العقلية والشرعية في أن الليل والنهار لا يكونان بدوران الشمس حول الأرض وإنما بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. ومن ذلك أن النص الشرعي جعل الليل والنهار بحركة مستقلة غير حركة الشمس والقمر فدل على أن ذلك لا يكون إلا بحركة الأرض وليس العكس.

ولقد كان الشيخ ابن باز رحمه الله يرى بثبات الأرض بالكلية فقال: "وبين سبحانه وتعالى أنه ثبتها بالجلال وأرساها وجعلها لها أوتادا. فالواجب التمسك بهذا والأخذ بهذا وأنها لا تميد ولا تضطرب ولا تدور. ولو دارت لأحسوا بها العباد من أجل الزلازل. ولو زلازل قليلة عرفها الناس. وربما هلك من حولها إذا عظمت الزلزلة وتهدمت البيوت وسقطت الأشجار وهلك الناس بأقل زلزلة". إلا أنه قال: "ومن شاهد أشياء وتيقنها يقينا وأن هناك حركة لا تمنع وصف الأرض بأنها غير مائدة وأنها قرار وأنه دوران خاص لا ينافي كونها قرارا ولا ينافي كونها قد أرسيت بالجلال ولا ينافي كونها لا تميد، من تيقن هذا وعرفه بقلبه وصدقه بعينه فلا لوم عليه إذا اعتقد ذلك [٠] فأنا أعتقد، وقد كتبت هذا في كتابا من مدة سنوات، أعتقد أنها قارة كما قال الله وأنها لا تدور ولا تضطرب ولا تتحرك بل هي ثابتة" **هـ**. ولكن الشيخ ابن باز رحمه الله لم يغلق باب البحث والإجتihad في هذه المسألة فقال رحمه الله: "ولا يمكن أن نسلم لهم ذلك إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام أو شيء نلسمه بأيدينا ونراه بأبصارنا ونعقله لا شبهة فيه. فإذا وجد ذلك أمكن تأويل أن تميد بالإضطراب الذي يضر الناس وأن الحركة التي لا تضر الناس من دوران وغيره لا تخالف الميد الذي ذكره الله" **هـ**. وكل هذا فيه أن العبرة إنما تكون بالحجة والبرهان.

فلا يلزم القول بدوران الأرض حول نفسها بمحدث الإطراب لها فقد جعل الله جل جلاله هذه الحركة في غاية الانتظام والانتقان وذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء. ومن فسر أن الجبال

أوتادا يعني ثبات الأرض بالكلية فهذا بلا شك تفسير خاطئ. فلا تقوم بذلك الحجة بل هو حجة على عكس ذلك كما بين ذلك الشيخ الألباني رحمه الله، راجع 9.3 مسألة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. فقد جعل الله جل جلاله الجبال أوتادا لتثبيت سطح الأرض حتى لا تطرب ولا يلزم بهذا ثبات الأرض وعدم حركتها بالكلية. وقد جاء في تفسير ابن كثير في معنى قوله تعالى: «لَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾» النبأ أي: جعلها لها أوتادا أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها [14]. وهذا لا يلزم ثباتها بالكلية بل ثبات سطحها. وقد جاء في معجم اللغة أن معنى أوتاد أي وتد: ما رُزَّ وثبت في الحائط أو الأرض من خشب وغيره: «وتد الخيمة». فدل ذلك على أن المراد هو ثبات سطحها وليس ثباتها بالكلية. بل أن ذلك فيه إثبات أصل الحركة للأرض وإلا فما الغاية من تثبيت شيء لا يتحرك.

كما أن القول بثبات الأرض بالكلية بالجبال ينافي الحجة العقلية، فلا يمكن تثبيت شيء بالكلية بوتر غرس فيه وللزم بهذا القول أن تغرس الجبال في شيء آخر ثابت غير الأرض مع ارتباطها به لتثبيتها بالكلية وهذا بخلاف الواقع. ولعل مثال ذلك أن وتد الخيمة تربط به الخيمة ويغرس في الأرض الثابتة ولو غرس في الخيمة نفسها لما ثبتت البتة. ولقد جاء هذا المعنى في حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال للأعرابي الذي ترك الناقة سائبة متوكل على الله: فقال له: اعقلها وتوكل [13].²⁶ فلزم بذلك أن تربط الناقة في شيء آخر ثابت كالجدار أو الشجر وهذا معروف. وقد ثبت بالقياس والحساب في علم الجيولوجيا أن سطح الأرض عبارة عن صفائح تكتونية تتحرك باستمرار وتتصادم مع بعضها البعض مما يسبب العديد من الظواهر الطبيعية الأخرى مثل تكون الجبال وتصادم الحمم البركانية والزلازل نتيجة لهذه التصادمات والتحركات. كما أن هذه الحركة تتأثر أيضا بحركة القمر والشمس

²⁶الجامع الصغير: 1948، وقال الألباني حديث حسن.

والأفلاك الأخرى حول الأرض بسبب الجاذبية ومن ذلك ظاهرة المد والجزر. وهذا فيه أن الله جل جلاله جعل لهذه الظواهر أسبابها بحكمته وعلمه. وقد ثبت أن الجبال لها جدور عظيمة تمتد في أعماق الأرض وكأنها مسامير تمنع طبقات سطح الأرض من الإنزلاق والتحرك وهذا من فضل الله ورحمته بعباده كما في قوله تعالى: **وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ النحل.** ولولا فضل الله علينا لهلك من في السموات والأرض جميعا كما قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ فاطر.**

ويقول الشيخ الفوزان حفظه الله عندما سأل: هل الشمس تدور على الأرض؟ فقال: بلا شك، هذا هو ما دل عليه القرآن، والشمس تجري. هم يقولون لا، الشمس واقفة والأرض هي التي تجري. هذا عكس ما جاء في القرآن. وإبراهيم عليه السلام قال للنمرود: **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ (البقرة).** فكون أننا نترك ما دل عليه القرآن ونأخذ بالنظريات الحديثة، هذا لا يكون من المسلم. ويجب على المسلم أن يتبع القرآن. الله جل وعلى يقول: **مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴿٥١﴾ (الكهف) حم.** وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله وصف هذه الآيات على وجهين ولا يصح أن يستدل بظواهرها على حقيقتها. بل إن ذلك مخالف لطرق الاستدلال التي دل الله تعالى عليها في كتابه العظيم. والله جل جلاله أثبت جريان الشمس بالعموم وليس حول الأرض. كما أن دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس لا يلزم ثبات الشمس بالكليّة وإنما فقط بالنسبة للأرض. وقد تقدم أيضا موافقة الأدلة الشرعية للقول بدوران الأرض حول نفسها وحول الشمس. وكل هذه الأدلة ليست مجرد نظريات بل ثابتة بالقياس والحساب بالعلم الكوني السببي الظاهر والمؤكد والتجريبي.

وقال الشيخ الفوزان حفظه الله في فتوى أخرى: الله جل وعلى يقول: ما أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ (الكهف). هذه أمور كونية لا نحيط بها [٥] ظاهر القرآن أن الشمس تدور وأن الأرض مستقرة وثابتة والشمس هي التي تدور عليها وجميع الأفلاك: الشمس والقمر والنجوم، كلها تدور على الأرض. هذا هو الذي يدل عليه ظاهر القرآن. أما نظريات الفلكيين، هذه لا يعتمد عليها. والواجب على الإنسان أنه يمسك عن هذه الأمور ولا يدخل فيها. وكونها تدرس في المدارس للإطلاع فقط، ماهو بأجل أن تعتقدها أو تجزم بصحتها، فأنت تدرسها للإطلاع فقط وأن هذا شيء قيل. لكن أنت لا تصدق به ولا تعتقده [٦]. ولا يصح أن يقال: هذه أمور كونية لا نحيط بها. فالعلوم الكونية قسمان: علم ظاهر وهو العلم السببي وعلم غير ظاهر وهو علم الغيب. والعلم الظاهر السببي منه المؤكد الذي أمكن إثباته بالقياس ومنه الغير مؤكد والذي لم يمكن إثباته وهذا هو الذي يقال له نظريات. وأما جعل العلم الظاهر السببي المؤكد كله غير مؤكد ومجرد ظن أو غيب فهذا لا يصح عقلا ولا شرعا. كما أن الأخذ بالنظر فقط في تقرير حقائق الأشياء لا يكون دائما صحيحا. فالله جل في علاه لم يثبت النظر فقط للإستدلال على هذه الأمور الكونية بل إن الله تعالى أرشد إلى طرق الإستدلال في العلم السببي الظاهر وهي السمع والبصر مع العقل. وذكر سبحانه وتعالى أولى الأبواب وأولى الأبصار والحساب مع آيات الليل والنهار والشمس والقمر فدل على أن ذلك من الأمور التي يمكن إدراكها بطرق الإستدلال التي أرشد الله لها. كما أنه لا يوجد في القرآن ما يدل على دوران الشمس حول الأرض بل العكس. وقد تقدم بطلان مركزية الأرض والقول بأن الأرض هي محور الكون بناء على حركة النجوم في السماء وغير ذلك من طرق الإستدلال ومنها القياس والحساب.

وقال الشيخ الفوزان حفظه الله في فتوى أخرى عندما سأل عن ذلك: والله يشبّون هذا، فإن القرآن على أن الأرض ثابتة وأن الله أرساها بالجبال، وجعل الأرض قرارا. هذا الذي في القرآن.

وبعد الإطلاع على أقوال أهل العلم يمكن للباحث رؤية إختلاف منهجية العلماء في تقرير هذه الحقائق الكونية: فمنهم من يأخذ بظاهر الآيات الشرعية فقط دون الرجوع إلى العلوم الكونية المؤكدة ومعاملتها على أنها في مجملها علوم ظنية مثل الشيخ الفوزان حفظه الله. ومنهم من يأخذ بظاهر الآيات الشرعية مع إقرار إمكانية التأويل إذا ثبت الدليل بخلاف ذلك في العلوم الكونية مثل الشيخ العثيمين والشيخ ابن باز رحمهم الله. ومنهم من يأخذ بالحجة العقلية الثابتة في العلوم الكونية في فهم الآيات الشرعية مثل شيخ الإسلام ابن تيمية والشيخ الألباني رحمهم الله. ورغم قلة العلوم الكونية في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية مقارنة لما وصلنا إليه اليوم، إلا أنه كان كثير الإطلاع في علوم الهيئة (علم الفلك) وعلم الحساب والعلوم الطبيعية (الفيزياء والكيمياء) ما مكنه من مناقشة هذه الظواهر الطبيعية مناقشة علمية مع محاولة إيجاد وجه التوافق بين الأمر الكوني والأمر الشرعي. ولقد شابهه في ذلك الشيخ الألباني رحمه الله من حيث المنهجية في تقرير الحقيقة العلمية الكونية للنظام الشمسي بعد الإطلاع عليها وعلى أدلتها الثابتة والمؤكدة. ورجوعا لما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية في عدم تعارض العلم الكوني المؤكد مع العلم الشرعي الثابت، فإن منهجية شيخ الإسلام التي تبعه فيها الشيخ الألباني رحمهم الله جميعا هي الأصح، والله فوق كل ذي علم عليم.

1.10 الاستدلال بالحساب في المواقيت

إن من أعظم المصالح في شريعة الإسلام هي معرفة المواقيت وإجتماع المسلمين عليها كالصلاة والصوم والحج. فهذه العبادات العظيمة هي من أركان الإسلام والتي جعل الله لها أوقاتها وعلاماتها. ومن ذلك أوقات الصلاة خلال اليوم والليلة والأهلة التي بها تعرف أيام الصوم والإفطار في شهر رمضان

وشوال وأيام الحج في شهر ذي الحجة. ولا شك أن إجتماع المسلمين في هذه المواقيت من المصالح العظيمة في دين الإسلام والتي ينبغي الإعتراف بها لما في ذلك من الألفة والتآخي وتوحيد الصف. بينما يبقى الاختلاف في أوقات الصلاة من قطر إلى قطر أمر طبيعي لا إشكال فيه، إلا أن الاختلاف في رؤية الأهلة من قطر إلى قطر وأحيانا داخل القطر نفسه قد ترتب عليه ظهور تفرق المسلمين في أعيادهم كل عام. ولعل من أسباب ذلك إنتشار وسائل التواصل بجميع أنواعها مع سهولة السفر حتى أصبح هذا الاختلاف ظاهراً. وهذا بلا شك أمر لا بد من البحث والإجتهاد فيه سعياً لتوحيد كلمة المسلمين على الحق الذي يحبه الله ويرضاه.

ورغم كثرة إستخدام الحساب في تقدير أوقات الصلاة وأيام الشهور القمرية في الساعات الإلكترونية والهواتف الذكية، إلا أن مسألة ثبوت دخول وخروج الشهر من عددها وبالأخص شهر رمضان دون غيره من الشهور قد قيدت بالرؤية فقط دون الحساب على الإطلاق. ولإختلاف الرؤية من قطر لآخر، ترتب على هذا إختلاف أيام الصوم، والعيد، وأحيانا حتى أيام الحج. ورغم دقة الحساب في زماننا هذا والذي قد يكون سبباً لتوحيد المسلمين في الأهلة،²⁷ إلا أن أكثر علماء أهل السنة قديماً وحديثاً اتفقوا على وجوب الأخذ بالرؤية فقط على الإطلاق دون الإعتبار بالحساب لما صح عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: الشهر تسع وعشرون ليلة، فلا تصوموا حتى تروه، فإن غم

²⁷ لا تختلف الأهلة حسابياً لأن دخول الشهر يكون عندما يتجاوز مركز القمر الخط الإفتراضي الذي يصل بين مركز الأرض ومركز الشمس. ولكن المطالع تختلف بالرؤية بحسب مكانها من بلد لآخر. ولقد قرر جمهور العلماء أنه لا عبرة بإختلاف المطالع وأن المطالع واحدة وإن اختلفت أي يجب على جميع المسلمين الأخذ بالرؤية متى تبثت في أي قطر. وهذا القول موافق للحساب من حيث أن دخول الشهر واحد لا يتعدد إلا من جهة الرؤية ومكانها. عملياً، الأخذ بالرؤية أصبح مقيد بكل قطر بإعتبار أن لكل قطر ولاية خاصة به.

عليكم فأكلوا العدة ثلاثين ﴿١٥﴾²⁸. وفي حديث أخر في صحيح مسلم بعدة روايات عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: إذا رأيتم الهلال فصوموا. وإذا رأيتموه فأفطروا. فإن غم عليكم فصوموا ثلاثين يوماً ﴿١٦﴾. وفي رواية: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته. فإن غمي عليكم فأكلوا العدة ﴿١٧﴾. وفي رواية: صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته. فإن غمي عليكم الشهر فعدوا ثلاثين ﴿١٨﴾. وفي رواية: إذا رأيتموه فصوموا. وإذا رأيتموه فأفطروا. فإن أغمي عليكم. فعدوا ثلاثين ﴿١٩﴾²⁹. فهل هذا الحكم هو على الإطلاق أم مقيد بعله؟ وهل يوجد ما يدل على وجوب الأخذ بالحساب عند زوال هذه العلة؟ فهذه أسئلة حري بنا أن نتعن ونبحث فيها لمعرفة الحق في ذلك.

إن حصر المسألة على ما تقدم من الأحاديث يفضي بلا شك إلى وجوب الأخذ بالرؤية فقط على الإطلاق دون الاعتبار بغيرها. إلا أن النصوص الأخرى قد جاءت بألفاظ تبين أن هذا الإطلاق غير صحيح وأن المسألة فيها تفصيل لا يجب أن يغفل عنه. فمن منهج أهل السنة والجماعة الجمع بين النصوص من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ والتوفيق بينهما. ومن منهج أهل البدع والأهواء أنهم يأخذون ما يوافق أهوائهم من النصوص ويتركون ما لا يوافقها بل ويردونه. يقول الشيخ فلاح مندكار رحمه الله نقلاً عن الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله: ينظرون إلى النصوص بعين عوراء، والحق لا يكتمل، ودين الله جل وعلا لا يتضح، إلا إذا جمعت بين النصوص كلها [٥] تخرج بمذهب وصراط (وأشار بيده أي: صراط مستقيم) ﴿٢٠﴾. ويقول الشيخ العثيمين رحمه الله: والذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه ويضربون كتاب الله بعضه ببعض ويقولون هذا يناقض هذا وهذا يكذب هذا وما أشبه ذلك أو يلجئون إلى القول بأحد النصين وإلغاء الآخر. ولكن أهل الإيمان والعلم يسلكون مسلك آخر وهو أنه لا تعارض في كلام الله عز وجل ولا تعارض بين كلام الله وبين سنة رسول

²⁸ صحيح البخاري: 1918.

²⁹ صحيح مسلم: 1081.

الله ﷺ التي صحت عنه لأن الكل من عند الله ﷻ.

وهناك العديد من الأدلة الأخرى من كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ التي تتعارض مع الحكم بالأخذ بالرؤية على الإطلاق. فقد جاء عن عبدالله بن عمر حديثين مهمين في الصحيحين في هذه المسألة ولا يستبعد أن يكون ذلك في مجلس واحد وهذا لإرتباط الأحاديث من حيث المتن ومن حيث الراوي.³⁰ فأما الحديث الأول فقد صح عن عبدالله بن عمر أن رسول الله ﷺ ذكرَ رَمَضَانَ فَقَالَ: لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهَلَالَ، وَلَا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدُرُوا لَهُ ﷻ [15].³¹ وفي رواية أخرى: إِذَا رَأَيْتُمْ فَصُومُوا، وَإِذَا رَأَيْتُمْ فَافْطَرُوا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدُرُوا لَهُ ﷻ [15] ﷻ [4].³² وأما الحديث الثاني فقد صح عن عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا. يَعْنِي مَرَّةً سَعَةً وَعِشْرِينَ، وَمَرَّةً ثَلَاثِينَ ﷻ [15] ﷻ [4].³³ وبالجمع بين هذه الأحاديث مع ما سبق يتبين أن الحكم في هذه المسألة مقيد بعلمين. فقد جاء في الحديث الأول علة الإغماء ووجوب الأخذ بالتقدير عند الإغماء لإستحالة الرؤية. وأما الحديث الثاني فقد جاء فيه بيان علة الجهل بالحساب. ووجه الجمع بينهما أن النبي ﷺ كان يبين لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما دخول شهر رمضان وخروجه وعدد أيام الشهر. وفي هذا الجمع يتقرر أن النبي ﷺ أشار للتقدير بالحساب أي أنه قال: "فاقدروا له" قاصدا الحساب لأنه قال أيضا: "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ". وهذا لأن الخطاب في قوله "فاقدروا له" ليس في حق من جهل الحساب وإنما هو في حق من علم الحساب فقط. وأما قوله ﷺ: "إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ" فهو في حق من

³⁰ حتى أن مسلم أورد الحديثين معا كحديث واحد. بينما أورد البخاري الحديثين في أبواب متقاربة بل وفي نفس الباب

بصريح متقاربة.

³¹ صحيح البخاري: 1917.

³² صحيح البخاري: 1911، صحيح مسلم: 1080.

³³ صحيح البخاري: 1924، صحيح مسلم: 1080.

جهل الحساب وهذا هو الغالب على أصحاب النبي ﷺ بل على عموم العرب في ذلك الزمان.

1.10.1 هل حكم الأخذ بالرؤية هو على الإطلاق أم مقيد بعلّة؟

بناء على ما تقدم من الأدلة، فالحكم بالأخذ بالرؤية ليس بالإطلاق وإنما مقيد بعلتين وهما الإغمام والجهل بالحساب. فإن تحققت العلتين أكمل العدد إلى 30. وإن تحققت علة الجهل بالحساب مع ثبوت الرؤية يوم 29 أخذ بالرؤية. وإن تحققت علة الإغمام يوم 29 مع العلم بالحساب وجب التقدير. وإن ثبتت الرؤية يوم 29 مع العلم بالحساب أمكن الأخذ بأيسر الأمور وهو الرؤية أو الأدق وبالأخص في حالة الشك وهو الحساب. ولعدم تأكد علة الإغمام أو الشك قبل ذلك، وجب التقدير تحسبا للأخذ به عند تحقق علة الإغمام أو الشك. وعليه لو أمكن الحساب الصحيح الذي به يتحقق اليقين حل محل الشهادة الظنية وأغنى عنها.

إن من الأهمية بمكان هو الإعناء بتقرير معنى التقدير الذي دل عليه النبي ﷺ. فإن الاختلاف في تأويل معنى الأحاديث السابقة إنما جاء من هذا الباب. وقد تقدم أن من معاني الحساب العد والتقدير ولكن كثير من العلماء فسر هذا بأن يتم الشهر 30 يوما على الإطلاق ولا يعني ذلك الأخذ بالحساب. إلا أن هذا التفسير ينافي معنى التقدير في اللغة ولا دليل عليه إلا إجتهدا لجعل هذا المعنى موافقا لإكمال العدد ثلاثين ومخالفا لمعنى الحساب وهذا لا يصح. وإنما الذي صح عن النبي ﷺ أنه قال: "فأقْدُرُوا لَهُ" في موضعين. الموضع الأول (شجري): أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ التقدير في رَمَضَانَ فَقَالَ: لَا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهَلَالَ، وَلَا تَنْفِطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَقْدُرُوا لَهُ. وفي رواية لمسلم: وقال: فَأَقْدُرُوا لَهُ وَلَمْ يَقُلْ ثَلَاثِينَ.³⁴ وفي هذه الزيادة الدليل الكافي على علم الراوي بالفاظ الحديث الأخرى التي جاءت بإكمال العدد وأنه أثبت التقدير مع نفي إكمال العدد ثلاثين حتى لا يلتبس الأمر وحتى لا

³⁴ صحيح البخاري: 1906. صحيح مسلم: 1080.

يفسر التقدير بذلك. وأما الموضع الثاني (عام): عندما سأل الصحابة رضوان الله عليهم النبي ﷺ عن فترة مكوث الدجال في الأرض. فقد جاء عن النّوّاس بن سَمعان الأنصاري أنه قال: قلنا: يا رسول الله وما لبثُ في الأرض؟ قال: أربعون يوماً، يومٌ كسنةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويومٌ كجمعةٍ، وسائر أيامه كأيامكم، قلنا: يا رسول الله هذا اليوم الذي كسنةٍ أتكفينا فيه صلاةً يومٍ وليلةٍ؟ قال: لا، فاقدروا له قدره.³⁵ فهل يعقل أن يفسر التقدير بإكمال العدد الثلاثين وهو ينافي فترة مكوث الدجال إذ لا يوجد 30 يوم وإثنا يوم واحد كسنة أو كشهر أو كأسبوع. والله جل جلاله يقول: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ (النساء): أي: مفروضا في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتا لا تصح إلا به [1]. ويقول تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ (البقرة) أي: ليعرف الناس بذلك، مواقيت عباداتهم من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج [1].

ولقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية أن من فقهاء البصرة من فسر "أقدروا له" بالحساب فقال: أن فقهاء البصريين ذهبوا إلى أن قوله: "فاقدروا له" تقدير حساب بمنازل القمر وقد روي عن محمد بن سيرين قال: خرجت في اليوم الذي شك فيه فلم أدخل على أحد يؤخذ عنه العلم إلا وجدته يأكل إلا رجلا كان يحسب ويأخذ بالحساب ولو لم يعلمه كان خيرا له. وقد قيل: إن الرجل مطرف بن عبد الله بن الشخير وهو رجل جليل القدر إلا أن هذا إن صح عنه فهي من زلات العلماء. وقد حكي هذا القول عن أبي العباس بن سريج أيضا [4].³⁶ ويفهم من هذا الأثر أن فقهاء البصرة أفطروا في يوم الشك إكالا لشعبان ثلاثين يوما إتباعا لقول الرسول ﷺ: "إن غم عليكم فأكلوا العدة ثلاثين" وهذا الفعل صحيح لمن جهل بالحساب. وأما الرجل الذي أخذ بالحساب في يوم الشك فعمله موافق

³⁵ صحيح ابن ماجه: 3310، وصححه الألباني.

³⁶ مجموع الفتاوى: 25/181.

لقول الرسول ﷺ: "فإن غم عليكم فاقدروا له" في حق من علم الحساب كما تقدم، والله فوق كل ذي علم عليم. ولو كان هذا الرجل هو فعلا مطرف بن عبد الله بن الشخير فهو رجل مبارك مستجاب الدعوة ابن صحابي نقل أحاديث الرسول ﷺ عن أبيه وعن أصحاب النبي ﷺ ونقل عنه الحسن البصري وغيره من أتباع التابعين. إلا أن محمد بن سيرين رحمه الله أنكر ذلك عليه بإجتهاده. وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كان لا يرى بالأخذ بالحساب في الأهلة وغلط القول في ذلك بإجتهاده ولهذا قال عنه: "وهو رجل جليل القدر إلا أن هذا إن صح عنه فهي من زلات العلماء". ونحن معشر أهل السنة والجماعة نؤمن بأن من سبق من هذه الأمة من الصحابة وتابعيهم من القرون المفضلة هم خير الناس. وعليه فإن مطرف بن عبد الله بن الشخير هو خير من شيخ الإسلام ابن تيمية. فهو من كبار التابعين ثقة عرف بالرسوخ في العلم والثبات في الفتن ولا يضره أنه كان يأخذ بالحساب بل إن هذه منقبة عظيمة له جعل لنا بها سلف، راجع 9.6 مختصر سيرة مطرف بن عبد الله بن الشخير.

ولبيان الحق في هذا وجب النظر في هذا الأمر من عدة وجوه. أولا: أن الله جل جلاله سمي الحساب تقديرا وبالأخص فيما يتعلق بالليل والنهار والشمس والقمر والتي جميعها من أسباب معرفة المواقيت كما في قوله تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ (الأنعام). فدل على أن الحساب الذي دلنا عليه هو من تقدير الله جل جلاله وهذا فيه أن من معاني الحساب التقدير. ثانيا: أن النبي ﷺ أرشدنا إلى تقدير أوقات الصلاة والشهر وبالأخص متى إحتاج المسلمين إلى ذلك في قوله ﷺ: "فاقدروا له" في موضعين مختلفين كما تقدم. ثالثا: موافقة سنة الرسول ﷺ لكاتب الله جل جلاله يلزم بأن يكون معنى "فاقدروا له" أي "اكتبوه" لأن الصلاة كانت كتابا موقوتا ولأن لكل موسم ميقات معلوم و"أحسبوه" لأن الله جل جلاله أرشد للحساب في قوله تعالى: (لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) في موضعين في كتابه الكريم. رابعا: أن الله

جل جلاله جعل الصلاة كتاباً موقوتاً على المسلمين وجعل المواقيت فدل ذلك على وجوب الإعتناء بأوقات الصلاة والمواقيت كتابة وحساباً. فهذه أربعة حجج ظاهرة بينة تدل على أن معنى قوله ﷺ "فاقدروا له" وجوب الأخذ بالحساب متى أمكن ذلك واحتياج المسلمين له وبالإلحاح إن توفرت شروطه كالإغمام أو الشك أو تغير الزمان لأي عارض كفتنة الدجال. وهذا لا يتعارض مع الأخذ بالرؤية لمن جهل الحساب لأن الله جل جلاله يقول: وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج). والأمية كانت متحققة في زمن الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم بنص القرآن وكما بين ذلك النبي ﷺ في قوله: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب".

وأما الإستدلال بقوله ﷺ: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" على عدم جواز الأخذ والإستدلال بالحساب فهذا إستدلال باطل يخالف كتاب الله عز وجل وسنة نبيه من عدة وجوه. الوجه الأول: أن الله جل جلاله دل في موضعين في كتابه الكريم على تعلم الحساب من آيات الله الكونية التي بها تعرف المواقيت كالليل والنهار والشمس والقمر. فكيف يدلنا الله جل جلاله على الحساب وبالإلحاح فيما يتعلق بالمواقيت والنبي ﷺ ينهانا عن الأخذ به؟ ومن قال أن هذا النهي في حق الأخذ بالحساب في الأهلة فقط فلا حجة له في ذلك بل إن هذا مخالف لصريح كتاب الله جل جلاله لأن الله جعل الأهلة مواقيت وجعل لها أسبابها وبين أنها بحساب متقن ليتعلم الناس منها الحساب وليبنوا عليه مصالحهم ومن ذلك حساب المواقيت. الوجه الثاني: أن النبي ﷺ دعى لمعاوية رضي الله عنه تعلم الحساب مع الكتاب. فكيف يدعو النبي ﷺ لمعاوية تعلم الحساب وينهى عن الأخذ به؟ الوجه الثالث: يقوم علم الفرائض والمواثيق التي جاءت في كتاب الله وسنة نبيه على الحساب. فكيف ينهى النبي ﷺ عن الحساب وتقام به أحكام الدين؟ الوجه الرابع: بدأ الرسول ﷺ هذا الحديث بقوله "أنا أمة أمية". فهل يعقل أنه يفهم من ذلك أن تبقى أمة الإسلام على أميتها لا تكتب ولا تحسب إلى قيام الساعة؟ الوجه

الخامس: جاء في هذا الحديث أيضا الكُتَّابة. فكيف يكون هذا النهي في حق الحساب فقط دون الكُتَّابة؟ وهل يعقل أن ينهانا رسولنا الكريم ﷺ عن الكُتَّابة وأول ما أنزل عليه إقرار وفيها قوله تعالى: الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق). الوجه السادس: كان النبي ﷺ حريص على رفع الأُمِّية عن أمة الإسلام ومن ذلك أنه جعل فداء أسرى بدر أن يعلموا أولاد الأنصار الكُتَّابة [7].³⁷ فهل يعقل أن يسعى النبي ﷺ في تعليم أبناء المسلمين الكُتَّابة وهو ينهى عن ذلك؟

وبناء على كل ما تقدم يكون المعنى الصحيح لهذا الحديث: "لولا أنكم أمميون لا تكتبون ولا تحسبون لأمرتكم بكتابة وحساب الشهر ولكن لأنكم أمة أُمِّية لا تكتبون ولا تحسبون فالشهر هكذا وهكذا" أي مراعاةً لأُمِّيتهم. وعليه فإن المقصود في هذا الحديث هو بيان حال الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين أي أنهم في غالبهم أميين لا يكتبون ولا يحسبون وبيان الشهر بما يتماشى مع حالهم. فدل على أن هذا الحديث فيه بيان معنى الأُمِّية وما يتعلق بذلك من معرفة أيام الشهر بغير كتابة ولا حساب. بل إن هذا فيه دليل على أن الجهل بالكتابة والحساب من الأُمِّية والتي لولا إنتشارهما لأمرهم النبي ﷺ بكتابة ذلك وحسابه. وفيه أيضا أن النبي في الحقيقة كان يحث على الكتابة والحساب لولا أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أميين في غالبهم.

ولا يفهم من هذا الحديث النهي عن الحساب كما لا يفهم منه النهي عن الكُتَّابة. فأول ما أنزل الله عز وجل إقرار وفيها الحث على تعلم القراءة والكتابة ومن ثم جاء الحث على تعلم الحساب لرفع الأُمِّية بكاملها وحتى يبني عليه المسلمين مصالحهم الدنيوية والدنيوية. وكان ذلك كله في العهد المكي أي أن هذا الحث كان منذ بداية فجر الإسلام فدل ذلك على أن دين الإسلام هو دين العلم والحضارة بما يرضي الله تبارك وتعالى. ولا نحب أن نخالف الرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم والسلف الصالح

³⁷مسند الإمام أحمد: 2216.

ولا علماءنا الأفاضل في شئ ولكن النصوص تدل على وجوب مخالفة الصحابة في هذا الأمر على وجه الخصوص لإختلاف حال المكلفين وبالأخص فيما يتعلق بالعلم بالحساب أو الجهل به. وهذا فيه وجوب تعلم الحساب والأخذ والإستدلال به على اللاحقين من أمة الإسلام كما أرشد تعالى في هذه المسألة على وجه الخصوص في قوله: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ (يونس). وبهذا تجتمع الأدلة من كتاب الله جل جلاله ومن سنة نبيه ﷺ على وجوب الأخذ بالحساب كما هو الحال مع الكتابة لا فرق بينهما ولا عبرة بخلاف ذلك لأنه يعارض الحجة الشرعية والعقلية جملة وتفصيلاً.

1.10.2 هل يجب الأخذ بالحساب عند زوال علة الجهل به؟

أرشد النبي ﷺ إلى وجوب التقدير في حالة الإغمام. والجمع بين الأحاديث فيه أن النبي ﷺ أشار إلى التقدير بالحساب. وقد تقدم معنا في هذا البحث أن التقدير من معاني الحساب ولو كان على وجه التقريب. ومن الأدلة على أن التقدير من معاني الحساب قوله تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ (الأنعام). فجعل الله جل جلاله الحسبان وهو جمع الحساب من التقدير. وعليه وجب الأخذ بالحساب متى رفعت علة الجهل به وبالأخص عند تحقق الشك أو الإغمام.

وأما الإستدلال بقوله ﷺ: "لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْا الْهَالَالَ، وَلَا تَقْطُرُوا حَتَّى تَرَوْهُ" على وجوب الأخذ بالرؤية بالعموم دون تنقيد ذلك بشئ مع القول بحزمة الأخذ بالحساب حتى متى أمكن فهذا كله ينافي الكتاب والسنة من عدة وجوه. الوجه الأول: أنه ينافي الغاية من قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ (يونس). فالغاية من تعلم العدد والحساب تقتضي أن يكون

ذلك للأخذ والإستدلال به حتى يبنى عليه مصالحهم وليس لمجرد التعلم فقط. وأي مصلحة أهم من المواقيت التي أمر الله بها. كما أن هذه الآيات جاءت صريحة بالحساب ومقيدة بالشمس والقمر والليل والنهار والتي بها تعرف جميع المواقيت سواء مواقيت الصلاة أو الأهلة. الوجه الثاني: أنه ينافي معنى قول الرسول ﷺ "فَأَقْذِرُوا لَهُ" وهذا لأن التقدير من معاني الحساب كما تقدم بيان ذلك ولا يصح أن يفسر هذا لا بالتقصان ولا بالزيادة كما قرر ذلك جمهور أهل العلم. الوجه الثالث: ينافي الإعتبار بحال المكلفين وبالأخص من ناحية العلم بالحساب أو الجهل به. الوجه الرابع: لا يمكن للإنسان إن يتقن أوقات الصلاة والمواقيت دون حساب صحيح وبالأخص عندما يكون اليوم كسنة أو كسهر أو كأسبوع لإنتفاء أسباب معرفة ذلك من تتابع الليل والنهار كما أخبر النبي ﷺ في قوله: "يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَسَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ".³⁸ الوجه الخامس: ينافي الإتيان الذي حثنا الرسول ﷺ عليه بقوله: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتِمَّهُ  [13].³⁹ وهذا بالعموم فكيف بأوقات الصلاة والمواقيت والتي هي أساس الدين ومن أعظم ما يحبه الله ويرضاه. وقد تقدم معنا أن علم الحساب هو علم الضبط والإتيان ومن وسائل إقامة الميزان الشرعي بالقسط. الوجه السادس: ينافي المصلحة العليا في جمع كلمة المسلمين وأن المطالع في حقيقتها واحدة إلا أن الاختلاف كان فقط من جهة الرؤية وأن هذا ترتب عليه إختلاف المسلمين في أعيادهم في عصر سهل فيه التواصل بينهم في جميع الأقطار. الوجه السابع: عدم الإلتفات للحساب والأخذ به فيه الإستهانة بهذا العلم العظيم فهو مفتاح العلوم الكونية السببية النافعة وهذا يترتب عليه تأخر المسلمين - كما هو الحال اليوم- في الأخذ بالأسباب

³⁸ وهذا البطء في الزمان إنما يكون بتوقف أو بطء دوران الأرض حول نفسها وقد يصحب ذلك ثبات منازل القمر لتقيّد

القمر بحركة الأرض. وقد يكون ذلك مصحوبا بتغير إتجاه دوران الأرض حتى يكون ذلك سببا في ظهور الشمس من مغربها،

والله فوق كل ذي علم علم.

³⁹ صحيح الجامع: 1880، وقال الألباني حديث حسن.

التي بها تنقام مصالح المسلمين الدينية والدنيوية ومن ذلك إجتماع الكلمة وإعداد العدة. فتأمل كيف لو كان أهل الإيمان ممن أتقن الحساب مع الأخذ والإستدلال به في أمور الدين والدنيا وفي معرفة الأسباب مع إقامة الحق والميزان، لأجتمعت فيهم من المنافع الدينية والدنيوية ما يستحيل أن يجتمع في غيرهم، ولسبقوا بذلك الأمم الأخرى كلها وكان لهم التمكن الذي وعد الله به.

وعليه فإن الأخذ والإستدلال بالحساب في زماننا هذا الذي توفرت فيه طرق الحساب الصحيحة مع الأجهزة السريعة وأدوات القياس الدقيقة أصبح حقيقة واجبة لا مفر منها لا رغبة في مخالفة المتقدمين ولكن فقط لتغيير حال المتأخرين وهذا لإرتباط الحكم بحال المكلفين من حيث العلم أو الجهل بالحساب. وما خلاص له في هذا البحث من بدايته إلى نهايته كله يصب في هذا الإتجاه لا لغير ذلك. ورغم قلة السائرین على هذا النهج في تقرير الحقيقة دون تقليد أو تعصب، إلا أن الإنسان ليسعد سعادة الغريب بالأدلة الثابتة والصريحة في ذلك. وإن الباحث عن الحق ليستأنس بأن الله جل جلاله وفق الشيخ القاضي والمحدث أحمد محمد شاكر رحمه الله رحمة واسعة في تقرير ذلك كله رغم قلة الناظرين فيما قرره في رسالته: أوائل الشهور العربية: هل يجوز شرعاً إثباتها بالحساب الفلكي؟ [16]. فإننا والله مع قلة علمنا وضعف حالنا، إلا أننا لنجد الحجة في كلامه واضحة جلية موافقة لهذا البحث. فالحمد لله رب العالمين، انظر 9.4 مختصر رسالة الشيخ أحمد شاكر في الأخذ بالحساب.

ومما يأسف عليه الإنسان أن يكون أهل الإيمان في زماننا ممن يتعامل على علم الحساب والأخذ والإستدلال به وجميع الآيات الشرعية جاءت بالحث عليه والآيات الكونية دالة عليه فلهذا المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. فهذا والله مصاب عظيم في أمة الإسلام ترتب عليه من الجهل والظلم ما الله به عليم. والسلف الصالح معذورون في هذا الباب لأميته ولعدم معرفتهم الكافية بعلم الحساب ويلحقهم في ذلك المتقدمين من علماء الإسلام الذين لم يجدوا من يثقون بعلمه في هذا

الباب بل وجدوا من يدعى التنجيم وعلم الغيب. ولكن ما حجة أهل الإيمان وعلماء الإسلام اليوم وقد صار علم الحساب إلى درجة عالية من الضبط والأتقان ما يتحقق به اليقين في معرفة حركة الإفلاك والأهله. ومع ذلك لا زالوا يبنون إجتهداتهم على كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله دون مراعاة ما كان عليه علم الحساب قبل مئات السنين ودون الرجوع لأهل هذا العلم من علماء الحساب والفلك. ورغم ذلك فإن شيخ الإسلام إجتهد في معرفة علم الحساب من أهله لمعرفة ما يقوم عليه من أسس لتقرير صحة الاستدلال به من عدمها في زمانه. فهل يعقل أن يستدل بذلك في هذا الزمان والعديد من تلك الأسس قد تغيرت وتطورت حتى أصبحت حقائق ثابتة بالحجة والبرهان. وهل هذا يوافق منهجية شيخ الإسلام ابن تيمية حيث أنه كان يجتهد ويطلع على كلام المتخصصين في زمانه من شتى العلوم بحثا عن الحق.

إن الحكم بحرمه الأخذ بعلم الحساب في الأهله دون الرجوع لجميع الأدلة الشرعية التي جاءت في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ أولا، وما صار إليه هذا العلم اليوم ثانيا، هو والله من الإجحاف العظيم في حق ما ثبت نقلا وعقلا. ولا يخفى على كل باحث عن الحق أن علم الحساب من العلوم التي تطورت كثيرا ولا زالت تتطور حتى وصلت إلى درجة عالية من الدقة والكفاءة حتى أصبح ذلك ظاهرا في كافة العلوم والمجالات ومنها علم الفلك. وهذا أصبح ظاهر لجميع البشر، ولا يليق أن يكون هذا هو حال أهل الإيمان. فأعتبروا يا أولي الأبصار وتذكروا يا أولي الأبواب حتى لا تكونون ممن يسئ لنفسه ولعلمه من هذا الباب.

1.11 العقل بين الإفراط والتفريط

تقدما معنا أن الحساب هو رياضة العقل وموافق له. وعليه لا يمكن الإستدلال بالحساب إلا عن طريق العقل. فحتى إنسد طريق العقل إنسد الحساب. وعليه وجب النظر في منزلة العقل بالنسبة للنقل لمعرفة حكم الإستدلال بالحساب في العلوم الكونية والشرعية على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه. فأما العلوم الكونية فهي قسمان: علم ظاهر وهو العلم السببي وعلم غير ظاهر وهو علم الغيب. وقد أقسم الله جل جلاله بذلك فقال: **فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾** (الحاقة). يقول السعدي رحمه الله: أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق بل يدخل في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى [1]. وقد تقدم معنا أن البصر أكل من النظر أي أن هذا القسم ليس فقط على مجرد النظر ولكن البصر والذي به يمكن إدراك الأشياء على حقيقتها بالجهة العقلية والشرعية. وهذا فيه أن ليس كل شيء يمكن إدراكه ومن ذلك الأمور الغيبية. بعكس العلم السببي فهو ظاهر ومنه المؤكد الذي أمكن معرفة أسبابه وإثباته بالقياس ومنه الغير مؤكد والذي لم يمكن إثباته ولا معرفة أسبابه وهذا هو الذي يقال له نظريات. وأما جعل العلم الظاهر السببي المؤكد كله غير مؤكد وغيبى ومجرد ظن فهذا لا يصح عقلا ولا شرعا. وأما العلم الشرعي فهو كل ما شرع الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ بالوحي والتي هي مصدر للإستدلال وتشمل كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسبيل المؤمنين. وذكر سبحانه وتعالى أولى الأبواب وأولى الأبصار والحساب مع الآيات الكونية والشرعية فدل على أن ذلك من الأمور التي يمكن إدراكها بطرق الإستدلال التي أرشد الله لها وهي السمع والبصر مع العقل.

ولكن الناس في هذا الزمان بالنسبة لمنزلة العقل على نقيضين. منهم الجهال الذين يخوضون في العلم الغيبي بالباطل فلنا أن العقل الذي أدرك العلم السببي يدرك الغيبات التي لا يمكن إدراك حتى أسبابها. وبالغ العديد منهم حتى جعل العقل مصدرا للإستدلال وغاية وليس وسيلة بل ومقدما على النقل في تقرير الأمور الغيبية والشرعية حتى وصلوا إلى الزندقة أو الإلحاد. فأساءوا بذلك لأنفسهم ولعلمهم الكوني فردهم أهل العلم الشرعي بالحق في بيان بطلان الإستدلال بالعقل في تقرير الأمور الغيبية أو الشرعية دون الرجوع إلى مصادر الإستدلال من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسبيل المؤمنين. إلا أن العديد ممن ينتسب إلى أهل العلم الشرعي على في ذلك حتى عطل الإستدلال بالعقل كطريق من طرق الإستدلال في تقرير الأمور الكونية الظاهرة أو إقرار الأمور الشرعية الثابتة. حتى كان من قولهم بطلان الإستدلال بالعقل في العلم السببي الظاهر زعما بأنه مجرد ظن وإلحاقا بالعلم الغيبي الغير ظاهر. وصرح بعضهم الآخر بأن الشريعة غنية عن العقل وأن إعمال العقل لا ينبغي إلا في الأمور الكونية وأن ذلك لا ينفع في أمور الدين بل ووضعه موضع التعارض مع الدين. وهذا كله باطل يخالف ما أرشد الله جل جلاله إليه في كتابه العظيم، ومخالف لسنة نبيه ﷺ وهدى الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. ولا عجب أن يكون ذلك سببا في تأخر المسلمين وإختلافهم حتى تفرقوا وتختلفوا عن الأمم الأخرى والذي كان سببا في تسلطهم عليها.

وما وقع كل منهم في ذلك إلا لأنهم وضعوا العقل في غير موضعه بجعلهم له مصدرا للإستدلال عوضا عن أن يكون طريقا للإستدلال ولهذا أصبح كل منهم يبحث عن مخرج له من هذا التناقض.⁴⁰ ولا مخرج من هذا إلا بوضع كل من العقل والنقل في موضعه الصحيح الذي جعله الله له. ولكن

⁴⁰ حتى الذين يريدون على بطلان تقديم العقل على النقل من أهل الحق وقعوا في ذلك من حيث أنهم ناقشوا الموضوع على أن العقل مصدرا للإستدلال وكان مخرجهم من هذا أن العقل لا دخل له في الدين وهذا غير صحيح كما سيأتي بيانه.

الكفار والمنافقين ومن شابههم في ذلك من أهل البدع وهم في ذلك دركات جميعهم جعلوا العقل مقدما على النقل نخالفوا أصول الدين وضلوا بذلك ضلالا بعيدا. ورد عليهم أهل السنة والجماعة بوجوب تقديم النقل على العقل وهذا أقرب إلى الحق وأسلم له. ولكن الصواب أن العقل ليس مصدرا للإستدلال لكي يتعارض مع النقل وإنما هو طريق من طرق الإستدلال وهو وسيلة وليس غاية ولهذا لا تعارض بين العقل والنقل في الأصل لإختلاف موضع كل منهم. فثبت النقل وجب الأخذ به وأعمل العقل لفهم النص والتفكر فيه وتديره على المراد الذي يحبه الله ويرضاه. ولهذا سمى شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه درء تعارض العقل مع النقل. ولا يصح أن يقال أنه متى ثبت النص لا يعمل بالعقل إذ أن الأدلة جاءت بإعمال العقل لفهم كلام الله تبارك وتعالى. فلو كان هذا حقا لتساوي في فهم كلام الله المجنون والعاقل والطفل والراشد ولا ينكر هذا عاقل. بل ويتساوى بهذا الإدعاء الباطل حتى العالم والجاهل لأن القوة في العلم هي القوة في العقل. والإستدلال بالعقل لإقرار الحق فيه التسليم لأمر الله والتصديق به بالهجة العقلية والشرعية وهذا لا يتعارض مع أمر الله. وإنما الذي يتعارض هو الإستدلال بالعقل لتقرير الحق. ففي الأولى العقل مقراً للحق وتابعا له وهو وسيلة وليس غاية وطريق للإستدلال وليس مصدرا له وهذا هو الذي أرشد الله له. وفي الثانية العقل مقرا للحق ومقدما عليه وهو غاية وليس وسيلة ومصدر للإستدلال وليس طريقا وهذا هو الذي حذر الله منه.

فلا شك أن العقل هو الفؤاد وهو من أعظم نعم الله على عباده مع السمع والبصر التي تستوجب الشكر الخالص لله وحده كما قال تعالى: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ (النحل). قال السعدي رحمه الله: خص هذه الأعضاء الثلاثة، لشرفها وفضلها ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه

الأبواب الثلاثة وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينمها فيهم شيئا فشيئا إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللاتمة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه وقابل النعمة بأقبح المقابلة [1]. وقال ابن كثير رحمه الله: ذكر تعالى منته على عباده في إخراجهم إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة -وهي العقول- التي مركزها القلب على الصحيح، وقيل: الدماغ. والعقل به يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلا قليلا كلها كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده [14]. وقال الطبري رحمه الله: والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئا ولا تعلمون، فرزقكم عقولا تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشر وبصركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضا من بعض. (وَالْأَفئِدَةُ) والقلوب التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها. (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) فعلنا ذلك بكم، فاشكروا الله على ما أنعم به عليكم من ذلك، دون الآلهة والأنداد، فجعلتم له شركاء في الشكر، ولم يكن له فيما أنعم به عليكم من نعمه شريك [3].

وقد أرشد الله تبارك وتعالى في العديد من الآيات على إعمال العقل للإستدلال به على الحق على وجه المعرفة والإقرار وليس على وجه التقرير أو الإنكار كما في قوله تعالى: كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ (البقرة). قال السعدي رحمه الله: لعلمكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها [1]. بل إن الله جل في علاه دل على إعمال العقل

لمعرفة الحلال والحرام فقال: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا^ط وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا^ط وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ^ط نَحْنُ نَزَرُكُمْ^ط وَإِبَاهُمْ^ط وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ^ط وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ^ج ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ (البقرة). قال السعدي: (ذَلِكُمْ) المذكور (وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) عن الله وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها. ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به [1]. بل إن الله تبارك وتعالى جعل القرآن عربيا لذلك فقال: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ (يوسف). قال البغوي في تفسيره: أنزلناه بلغتكم، لكي تعلموا معانيه، وتفهموا ما فيه [5]. وقال تعالى: اعلموا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا^ج قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ (الحديد). قال الطبري رحمه الله: قد بينا لكم الأدلة والحجج لتعقلوا [3]. وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^ج أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ (المؤمنون). قال ابن كثير: أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذي قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء [14]. والكثير من الآيات الأخرى التي تحث على إعمال العقل لفهم آيات الله الكونية والشرعية للتفكير والتدبر فيها ولمعرفة الحق وإقراره.

ولهذا فقد مدح الله تبارك وتعالى من عقل الأمثال التي ضربها ووصفهم بالعلم فقال: وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ^ط وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ (الغنكبوت). قال السعدي رحمه الله: (و) لكن (مَا يَعْقِلُهَا) بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب (إِلَّا الْعَالِمُونَ) أي: أهل العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم. وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين [1]. وأخبر سبحانه وتعالى أن أولو الأبواب هم أكثر الناس إبتغافا بتذكير الله لهم لأنهم يستدلون

على الحق بالحنة العقلية في تقرير آيات الله الشرعية والكونية كما قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا^{١٠} وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ (البقرة). قال ابن كثير رحمه الله: أي وما ينتفع بالموعظة والتذكير إلا من له لب وعقل يعي به الخطاب ومعنى الكلام [14]. وذكر سبحانه وتعالى ذلك عن الراشدين في العلم فدل على أنهم من أولي الأبواب كما قال تعالى: وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ (آل عمران). قال السعدي رحمه الله: (وما يذكر) أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا (أولوا الأبواب) أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعله، وما يضرهم فيتركوه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة [1]. وقال ابن كثير رحمه الله: أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة أو الفهوم المستقيمة [14].

وفي المقابل فقد ذم الله تبارك وتعالى في الكثير من الآيات في كتابه الكريم من لا يعتبر بالعقل لمعرفة الحق وإقراره والتصديق به وأنكر ذلك على وجه الإستفهام ومن ذلك قوله تعالى: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ^{١٠} ﴿١٠﴾ (الأنبياء). قال السعدي رحمه الله: أَفَلَا تَعْقِلُونَ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح [1]. بل إن الله أخبر أن شر الناس عنده هم الذين لا ينتفعون لا بالعقل ولا بالسمع ووصفهم بالدواب كما أخبر تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ (الأنفال). قال السعدي رحمه الله: من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم (الضم) عن استماع الحق (البكم) عن النطق به. (الذين لا يعقلون)

ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم، فهؤلاء شر عند الله من جميع الدواب، لأن الله أعطاهم أسماعاً وأبصاراً وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه [٠] والسمع الذي نفاه الله عنهم، سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته [1]. ولهذا فقد وصفهم ربنا جل جلاله بالأنعام فقال تعالى: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ (الفرقان). قال ابن كثير رحمه الله: أسوأ حالا من الأنعام السارحة، فإن تلك تعقل ما خلقت له، وهؤلاء خلقوا لعبادة الله وحده لا شريك له، وهم يعبدون غيره ويشركون به، مع قيام الحجة عليهم، وإرسال الرسل إليهم [14]. وقال القرطبي رحمه الله: إن هم إلا كالأنعام أي في الأكل والشرب لا يفكرون في الآخرة. بل هم أضل سبيلا إذ لا حساب ولا عقاب على الأنعام [2]. وهم مكلفين ومحاسبين فلا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يحتاجون أقوامهم بالحجج العقلية البينة. ومن ذلك قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ (الأنبياء). وقوله تعالى في موسى عليه السلام: قَالَ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ (الشعراء). وقوله تعالى في في هود عليه السلام: يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ (). وأخبر سبحانه وتعالى عن حال أهل النار يوم القيامة فقال: وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ (الملك). قال ابن كثير رحمه الله: أي لو كانت لنا عقول نتفهم بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتذار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم [14]. فدل على أن الحجة قامت عليهم بالسمع والعقل ولكنهم لم ينتفعوا بطرق الاستدلال هذه فاستحقوا العذاب. والعديد من الآيات الأخرى التي فيها الوعيد الشديد لمن لم يعمل العقل مع السمع والبصر

لمعرفة الحق وإقراره.

ولهذا إتفق علماء الإسلام بل جميع الملل على أن العقل هو أساس التكليف. ولقد صح عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثٍ، عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفَيِّقَ [17].⁴¹ وقد صح عن عبدالله بن عباس أنه أتى عمر بمجنونة قد زنت فاستشار فيها أناساً، فأمر بها عمر أن تُرْجَمَ، فَرَّبَّهَا عَلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: مَا شَأْنُ هَذِهِ؟ قَالُوا: مَجْنُونَةٌ بَنِي فَلَانٍ زَنْتَ، فَأَمَرَ بِهَا عُمَرَ أَنْ تُرْجَمَ. قَالَ: فَقَالَ: ارْجِعُوا بِهَا، ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ رُفِعَ عَنْ ثَلَاثَةٍ: عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَبْرَأَ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَعْقِلَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا بَالُ هَذِهِ تُرْجَمُ؟ قَالَ: لَا شَيْءَ، قَالَ فَأَرْسَلَهَا، قَالَ: فَأَرْسَلَهَا، قَالَ: فَجَعَلَ يُكَبِّرُ [6].⁴²

وقد صح عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنه قال: قلت لعلي: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمما يعطيه الله رجالاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في الصحيفة؟ قال العقل، وفكك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر [15].⁴³ ولا يستغرب أن يصف علي رضي الله عنه ما كتب من الحكمة عن النبي ﷺ بالعقل. فقد جاء ذلك العديد من الآثار ومن ذلك ما ذكر في تفسير الطبري وابن كثير أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يصفون الحكمة بالعقل وبالسنّة وبالعلم والفقه والفهم وبالإصابة في العلم والعمل وبالعقل في الدين وكلها معاني صحيحة. وهذا فيه أن أعمال العقل في الدين لمعرفة مراد الله على الوجه الصحيح الذي أراده والذي يحبه ويرضاه هو الحكمة بعينها وهذا من تمام العقل.

⁴¹النسائي: 4332، ابن ماجه: 1673، وصححه الألباني.

⁴²سنن أبي داود: 4399، وصححه الألباني.

⁴³صحيح البخاري: 3059.

فكيف يكون ممن ينتسب إلى أهل الإيمان من يزعم أنه لا يجوز إعمال العقل في أمور الدين دون التفصيل في ذلك على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه بعد هذه الأدلة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وهدى الصحابة رضوان الله عليهم. فكيف بنا والله جل في علاه يخاطبنا في العديد من آياته الشرعية بقوله: "لعلكم تعقلون" و"أفلا تعقلون" و"يا أولي الألباب" و"يا أولي الأبصار" ونحن نرى بأن العقل لا ينفع في أمور الدين وأن الشريعة غنية عنه. فيالا العجب بأن يكون من أهل الإيمان من يقول ذلك ولولا فضل الله علينا بنعمة العقل لكأ جميعا في حكم المجانين ولسقط عنا التكليف وما عقلنا عن ربنا شيئا ولا جمعنا علما ولا فقهنا أمرا ولا فهمنا حقا ولا تذكرنا مثلا ولا تفكرنا ذكرا ولا تدبرنا نصا. ولهذا وجب بيان ذلك وأن الباطل ليس في الاستدلال بالعقل في إقرار الحق وإنما الباطل هو في الاستدلال بالعقل في تقرير الحق.

والمقصود هو عدم القول بالرأي في الدين دون الرجوع إلى مصادر الاستدلال من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وسبيل المؤمنين، وبطرق الاستدلال التي أرشد الله تبارك وتعالى لها من سمع وبصر وعقل. ولهذا فقد صح عن علي رضي الله عنه أنه قال: لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه [17].⁴⁴ ولم يقل رضي الله عنه "لو كان الدين بالعقل" فهو الذي أشار إلى الصحيفة التي كتب فيها أحكام الدين والفقهاء بالعقل. وهذا لأن هذا الدين جاء بالحجة العقلية الواضحة والبيئة الموافقة للفترة. وفي رواية عن الأعمش: كنت أرى أن باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما، حتى رأيت رسول الله ﷺ يمسح ظاهرهما [6].⁴⁵ أي أنه أخذ بالرأي بحسب الحجة العقلية حتى ثبتت له الحجة الشرعية بذلك. وهذا فيه أنه متى ثبتت الحجة الشرعية قدمت على الحجة العقلية وهذا معروف

⁴⁴النسائي: 160. وصححه الألباني.

⁴⁵أبي داود: 164.

في منحه السلف الصالح لأن الحجة الشرعية هي مصدر الإستدلال. ولا تعارض في ذلك فقد تقدم أن العقل هو طريق للإستدلال وليس مصدرا له وهذا تفريق مهم لا ينبغي أن يغفل عنه.

[illegible]

ولو تدبرنا في القرآن الكريم لوجدنا أن الله تبارك وتعالى قد بين ذلك كله في قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ۖ فَخِذْ أَتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَحْسَابُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُ مِنَ الْكَأَبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَدْعُوهُمْ قَالُوا إِنَّ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخِرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَاهُمْ لِأَخِرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَدُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَتَّبِعُهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعَنَّا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلٌ مِنْ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ (الأعراف). فتأمل وتدبر يا رعاك الله في سرد هذه الآيات وأن أهل الحق إنما اهتدوا بفضل الله ومثله عليهم أي أنهم جعلوا كلام الله جل جلاله وكلام رسوله مصدرا للإستدلال على الحق فأقروا بكل ما جاءت به الرسل وأخذوا به تصديقا وإيمانا وعملا. فكتب الله لهم النجاة بذلك وبحسب ذلك تكون درجاتهم في الجنة برحمة الله. وهذا بخلاف الكافرين والمنافقين الذين لم يجعلوا النصوص الشرعية مصدرا للإستدلال وشابههم في ذلك أهل البدع من حيث أنهم إتبعوا أهواءهم وأهواء أسيادهم ومن كان قبلهم تقليدا لهم فلم يعملوا عقولهم لفهم مراد الله وأتبياه وحملهم ذلك على التكذيب والإستكبار وهم في ذلك دركات بعدل الله.

ولهذا فقد أوقف صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إنما هلك بنو إسرائيل حين اتبعوا أهواءهم، وتركوا الكتاب [15]. وقد صح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخوانا

1.12 الحساب بين الإفراط والتفريط

تقدم معنا أن النصوص الشرعية تدل على وجوب إعمال العقل في فهم آيات الله الكونية وإقرار آيات الله الشرعية. وعليه فإن الاستدلال بالحساب موافق للاستدلال للعقل وهو طريق للاستدلال وليس مصدرا. ولكن التهاون والتزهيد في الاستدلال بالحساب قديما وحديثا إنما جاء من باين. أولا: أن العديد من علماء الحساب والفلك أدعوا التنجيم قديما فأسأؤوا لهذا العلم العظيم حتى أفتى العديد من أهل العلم الشرعي بحرمة ذلك وبالأخص فيما يتعلق بالفلك والمواقيت كما نقل ذلك الشيخ أحمد شاكر رحمه الله، راجع 9.4 مختصر رسالة الشيخ أحمد شاكر في الأخذ بالحساب. ثانيا: مناقشة تعارض العقل والنقل نتج عنه وضع العقل في غير محله الذي أراده الله وأدى ذلك إلى التفريط في الاستدلال بالعقل في الأمور الكونية والشرعية فدخل الحساب في ذلك تبعا. وهذا خطأ وقع فيه العديد من أهل الإيمان مع حسن قصدهم في بيان بطلان تقديم العقل على النقل وأن ذلك من الإفراط في العقل لصد من جعل العقل موقرا للحق. والحق أن منزلة العقل هي أن يكون طريقا للاستدلال وليس مصدرا له وموقرا للحق وليس موقرا له. وعليه فلا تعارض بين العقل والنقل من الأساس ولهذا فإن النصوص الشرعية تلزم إعمال العقل لإقرار الحق وليس لتقرير الحق.

ولقد كان لعلم الحساب نصيب وافر من التفريط ومن ذلك ما ينسب لشيخ الإسلام بن تيمية قوله عن الخوارزمي وعلم الحساب: "إن كان علمه صحيحا إلا إن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره". ولكن هذا القول لم يثبت عن شيخ الإسلام وهو مخالف لما نقله شيخ الإسلام ومن ذلك حرص علماء السنة على تعلم الحساب والإشغال به للاستفادة من علم الجبر والمقابلة الذي ألفه الخوارزمي

رحمه الله. بل إن شيخ الإسلام قال عن علم الحساب أنه علم صحيح لا يدخل فيه غلط وأن فيه حفظاً للشرع كما تقدم. فهذا بلا شك من التدليس والتفريط في هذا العلم العظيم الذي ابتلينا به في زماننا. وإنما كان شيخ الإسلام يرد على من غلى في علم الحساب وأراد أن يجعل الشريعة متوقفة عليه من غلاة المنطق الذين يقدمون العقل على النقل وبالأخص في مسألة وجوب الأخذ بالرؤية. ولكن شيخ الإسلام أخطأ في التغليب على بطلان الاستدلال بعلم الحساب في الأهلة وهو معذور في ذلك لما كان عليه علم الحساب في ذلك الزمان. وما نسب له من التنجيم زورا وبهتاناً. وعليه فإن شريعة الإسلام غير متوقفة على الحساب كما أنها غير متوقفة على القراءة والكتابة ولهذا كان الرسول ﷺ وأصحابه الكرام في غالبهم أميين. ولكن شريعة الإسلام جاءت بالحث على تعلم القراءة والكتابة أولاً لنشر الحق وبيانه، وتعلم الحساب والأخذ به ثانياً لإقامة الميزان بالقسط في المعاملات بين الناس كما بين الله جل جلاله ذلك في كتابه العظيم. فدل هذا على وجوب الأخذ بعلم الحساب مع القراءة والكتابة على اللاحقين من أمة الإسلام وبالأخص متى احتاج المسلمون لذلك حتى يبنوا عليه مصالحهم الدينية والدنيوية.

وأما أن يقال على من يستدل بالعقل والحساب في الأمور الكونية الظاهرة السببية بطرق الاستدلال التي دل الله تبارك وتعالى عليها بأنهم علماء كلام وأصحاب نظريات فهذا كله باطل. وهذا أولاً لأن أهل الكلام هم من يتكلمون في العلم الشرعي بالفلسفة والتي بها يتم تحكيم العقل وتقديمه على النقل وهذا بلا شك مخالف لصريح الكتاب والسنة ومنهج أهل السنة والجماعة. وليس كل علم هو علم ظني ويبنى على نظريات. فالحساب من أهم طرق الاستدلال التي بها يتم إثبات النظريات أو دحضها. ولهذا فإن من العلم الكوني ما هو مجرد ظن ونظري ومنها ما هو مؤكد بالحجة والبراهين الموافقة للعقل والثابتة بالقياس والتجريب. وأما التعميم على كل ذلك على أنه مجرد ظن فهذا لا يصح لا شرعاً ولا كوناً.

ما انتشرت هذه المفاهيم الخاطئة إلا بالأخذ بالمشاهدة فقط دون الإعتبار والنظر والبحث في علم الحساب مع القياس والحجة العقلية مما زاد الفراغ بين العلم الكوني والعلم الشرعي حتى شاع بين الناس تعارض الأمرين وهذا يخالف أمر الله. فالله جل جلاله أرشدنا إلى النظر في آياته الكونية ليس فقط لمجرد التفكير فيها ولكن أيضا لتعقلها وفهمها على الوجه الصحيح ولتعلم الحساب منها. فكان هذا التقصير سببا إلى جمود القلب حتى أصبح الناس أقل نظرا لآيات الله تعالى وأقل إعتبارا بها. وهذا فيه تفويت للعديد من المصالح الدينية والدنيوية ومن أهم ذلك أن النظر في آيات الله الكونية والإعتبار بها والتفكير فيها وفي كفيته وتعلم تفاصيلها على الوجه الصحيح يورث خشيته سبحانه وتعالى ومعرفته ومعرفة دقة خلقه وفيه دليل ربوبيته وألوهيته وبيان صفاته. وقد ترتب على هذا الخلط والتضارب العديد من المفاصل حتى شاع بين الناس الفصل والخلاف بين العلم الكوني والعلم الشرعي فأصبح الناس في غالبهم بين تقيضين. فريق يأخذ بالعلم الشرعي ويرد العلم الكوني، وفريق يأخذ بالعلم الكوني ويرد العلم الشرعي. ومن أسباب ذلك تكلم أهل العلم الكوني خلافا للعلم الشرعي فأخطئوا كثيرا وضلوا ضلال بعيدا حتى وصلوا بذلك إلى الإلحاد. وتكلم أهل العلم الشرعي في بعض مسائل الدنيا خلافا للعلم الكوني المؤكد والثابت فأخطئوا في بعضها وأصابوا في بعضه الآخر بحسب ما فهموه وعقلوه. فخذ لو لم يتكلم في العلم الكوني أخذا بالعلم الشرعي فقط، وخذ لو لم يتكلم في العلم الشرعي أخذا بالعلم الكوني فقط، إلا بعد الجمع بينهما والبحث والاجتهاد في ذلك سعيا إلى معرفة الحق وبيانه. فالله جل جلاله الذي شرع هذا الدين وأنزل القرآن العظيم هو من خلق هذا الكون، فلا يكون أن يتعارض الأمر الكوني المؤكد مع الأمر الشرعي الثابت والصحيح إلا بالفهم الخاطئ. ولهذا فقد ألف شيخ الإسلام بن تيمية في ذلك كتاب درء تعارض العقل والنقل [18].

ونتيجة لهذه المفاهيم الخاطئة ذهب الناس في ذلك بين مغال أراد أن يجعل الشريعة متوقفة على

الحساب، وبين مجاف أراد أن يجعل الشريعة مستغنية عن الحساب. وهذا كله باطل يخالف أمر الله الذي حث عليه في كتابه العظيم. فلو كان الشرع يدرك بالعقل والحساب فقط أو مقدما عليه لما أرسل الله جل جلاله الرسل وأنزل الكتب ولكفى الناس بعقولهم في إدراك وحساب أمر الله جل جلاله وهذا باطل. ولو كانت الشريعة مستغنية عن الحساب والعقل لما أرشدنا الله جل جلاله في آياته الشرعية بالنظر في آياته الكونية للتفكر فيها ولتعلم الحساب منها في أكثر من موضع في كتابه العظيم. ولكان هذا الإتيان في هذه الآيات الكونية لعبا وقد نزه الله عز وجل نفسه عن ذلك كله فقال جل في علاه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ (الدخان).

فن أراد أن يجعل الشريعة متوقفة على الحساب والعقل فقط فقد خالف منهج السلف والأخذ بأسر الأمور التي جاء بها دين الإسلام ومن ذلك غلاة المنطق الذين أرادوا تقديم العقل على النقل يخالفوا صريح الكتاب والسنة كما بين ذلك شيخ الإسلام بن تيمية في مسألة الرؤية. ولقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: صُومُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَيْهِ، وَأَنْسِكُوا لَهَا، فَإِنْ غَمَّ عَلَيْكُمْ فَأَتِمُّوا ثَلَاثِينَ، فَإِنْ شَهِدَ شَاهِدَانِ مُسْلِمَانِ فُصِّمُوا وَأَفْطِرُوا ﴿٧﴾[7].⁴⁶ ولهذا فقد قرر أهل السنة والجماعة قديما وحديثا بالأخذ بالرؤية للهلال بدلا من الحساب أولا أخذا بأمر النبي ﷺ وثانيا حتى لا يستأثر بذلك أهل المنطق ممن قل فيهم من أقتن الحساب حقا فضلا عن الفهم الصحيح لدين الإسلام. وإلا فإن الله جل جلاله يقول: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ الرحمن، وهذا يمكن حسابه حسابا صحيحا لمن أقتن هذا العلم وصدق في ذلك. فلا يمنع أن يحسب ذلك ولو على وجه التقريب مع الأخذ بالرؤية وإجراء دراسات وبحوث والإجتهد في ذلك لتطوير طرق حسابية دقيقة موافقة للرؤية واختبار ذلك

⁴⁶مسند أحمد: 18895، النسائي: 2116، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

ومراجعته مع متابعة أهل العلم الشرعي وأهل الفلك لتقريب وجهات النظر بما يوافق العلم الشرعي الصحيح مع العلم الكوني الثابت.

ومن المسائل التي أخطأ فيها بعض أهل العلم الشرعي المعاصرين رغم ثبوت عكس ذلك بالقياس والحساب هي القول بأن الشمس هي التي تدور على الأرض وأن الأرض ثابتة بالكلية وهذا القول خاطئ كما تقدم بيانه. وسبب ذلك هو عدم الإعتبار بما ثبت بالحساب والقياس رغم أن جميع آيات العدد الحساب في القرآن الكريم جاءت مقرونة بالليل والنهار والشمس والقمر وفيها الإشارة الواضحة بالإعتبار بالحساب من الله تبارك وتعالى. وهذا فيه مخالفة الصواب وقد يفهم منه عند البعض التهديد في العلوم الكونية السببية النافعة وكأنها تزيف للواقع وهذا غير صحيح. وقد يكون ذلك سببا في عدم فهم آيات الله الكونية على وجهها الصحيح وأن ذلك قد يؤدي إلى قلة التدبر فيها والإعتبار بها عند أهل الإيمان. وقد يؤدي ذلك أيضا إلى التخلف الحضاري أو تصوير دين الإسلام أنه مخالف للحضارة. وقد يستغل ذلك الملحدون لتضليل الناس عن الدين زعما بأن أهل الإيمان لا يعتبرون بالقياس والعلم المؤكد. وقد يلحد من ثبت له عكس ما أقره أهل الإيمان فهما بأن الإيمان يتعارض مع الواقع، إلى غير ذلك من المصائب. والصواب في هذا أن الأرض تسبح أي تدور حول نفسها وتسير في فلكها حول الشمس مع دورانها وهذا فالشمس بالنسبة للأرض ثابتة كما أنها ثابتة بالنسبة لسائر الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية بسبب ظاهرة الجاذبية وجميعهم يتحركون معا حول المجرة كما هو معروف. ويحفظ للمخطئ في ذلك من أهل السنة والجماعة فضله ويعرف حقه علينا ولا ينقص ذلك من قدرهم شيئا فقد قدموا لأمة الإسلام الكثير من الخير ما يصغر أمامه هذه الأخطاء التي لا تخالف أساس الدين. ولكن لما كثرت إستغلال هذا الأمر من الملحدون وأعداء الدين وضعاف الإيمان وجب البحث في هذا الأمر لبيان الحق في ذلك والتنبيه وعليه. ولقد تعلمنا من علماء السنة قديما وحديثا الرجوع إلى

الحق في كل شيء متى إستبان ذلك فرحم الله علماء السنة في كل زمان ومكان.

ويستفاد من هذا الأمر أن البشر بطبيعتهم يخطئون ويصيبون والله وحده فوق كل ذي علم عليم. قال ابن عباس: الله العليم، وهو فوق كل علم. وقال أيضا: يكون هذا أعلم من هذا، وهذا أعلم من هذا، والله فوق كل علم. وقال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم، حتى ينتهي إلى الله عز وجل [14]. ويفهم أيضا أن البشر لا يزالون يتقدمون في الحضارة بحسب ما فتح الله عليهم من المعرفة في الأمور الكونية. ودين الإسلام العظيم هو دين الحضارة فحق على أهله أن يكونوا في مقدمة الحضارة في كل العلوم الكونية السببية النافعة بما يرضي الله كما كان الحال في زمن هارون الرشيد رحمه الله. ومن المعلوم أنه يصعب على أهل العلم الشرعي معرفة العلوم الكونية أو التكلم فيها أخذا بظاهر الأدلة الشرعية فقط وبالأخص في الأمور التي تتطلب الخبرة والمعرفة والبحث في المجالات المختلفة كالفلك، والطب، والهندسة، والحساب، وغيرها من علوم الدنيا. كيف لا والنبي ﷺ قد قال بعدما نهى الناس عن تلقيح النخل: أَتَمَّ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ (صحيح مسلم). وقال أيضا ﷺ: إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ؛ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثَكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا، نَحْنُوا بِهِ؛ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (صحيح مسلم). حتى قال لهم ﷺ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، نَحْنُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ (صحيح مسلم). فجعل كلامه ﷺ في أمور الدنيا ظن ورأي، وقال: (لا تُؤَاخِذُونِي بِهِ) ولكن كلامه في أمر الله حق. وبين النبي ﷺ أنه بشر يخطئ ويصيب في أمور الدنيا كغيره من البشر ولهذا قال: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، نَحْنُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ). وهذا من تواضعه وصدقه ﷺ فهو الصادق الأمين الذي لا يكذب على الله ولا على الناس عليه الصلاة والسلام.

وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ

وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ
لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ

تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۖ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
إن وظيفة العقل تكون أحد هذه المنازل وهي:

التلقي، التفكير، التدبر، التذكر، الإدراك، الإيمان التصديق، الخوف، الرجاء، الخشية، العمل

آيات شرعية: تلقي، تدبر، تذكر، إيمان آيات كونية: تلقي، تفكر، تذكر، إدراك

التدبر: هو الاستدلال بالعقل للتأمل في معاني الأدلة الشرعية على وجه الإقرار والتصديق

التفكر: هو الاستدلال بالعقل للتأمل في حقائق الأشياء على وجه التقرير والإعتبار

- المصالح والمفاسد

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا ۚ وَيَسْأَلُونَكَ
مَاذَا يَنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ - الخسران أيود أحدكم أن تكون
له جنة من نخيل وأعقاب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية
ضِعْفَاءُ فَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ - التأمل في
خلق الله

أولي الأبواب: تلقي، تفكر، تدبر،

(189) والله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير (190) إن في خلق

السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبواب (191) الذين يذكرون الله قياما

وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار (192) ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار (193) ربنا إنما سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار (194) ربنا وآتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد

- التأمل في أمر الله قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ

التصديق والإقرار، والتقرير. فأما الإقرار فهو التصديق والإذعان للنصوص الشرعية كما جاءت في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ دون صرفها عن وجهها الصحيح والتسليم والإنقياد لذلك. وأما التقرير فهو البحث والتفكر في الأسباب بحثا عن البرهان الذي به تقوم الحجة العقلية في معرفة حقائق الكون. وواجب المسلم يكون في إقرار الآيات الشرعية وتقرير الآيات الكونية.

1.13 الخلاصة

إن من أعظم أسباب تأخر الإنسان في كل زمان ومكان هو الظلم والجهل وهذا ينافي الأمانة التي كلف الله الإنسان بها كما قال تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ (الأحزاب). فالجهل مخالف للعلم الذي به يقام الحق والظلم مخالف للعدل الذي به يقام الميزان. وهذا ينافي دعوة الأنبياء التي كلفهم الله بها وأنزل الكتب لها وهي إقامة الحق والميزان معا. ولا شك أن من أعظم أسباب تخلف المسلمين في زماننا هذا هو مخالفة الحق والميزان وبالأخص مخالفة التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى ومن ذلك

التقليد والتعصب لغير كلام الله ورسوله، وانتشار الظلم بين الناس، وعدم الأخذ بالأسباب التي تعرف بالعقل ومنها الحساب والاستدلال به في فهم الأمور الكونية وإقرار الأمور الشرعية.⁴⁷ إن مناقشة التعارض بين لعقل والنقل لا أساس له وهذا جعل العقل بين إفراط وتفریط. ومن التفریط في العقل هو الإعتماد في الاستدلال على مجرد المشاهدة في فهم حقائق الكون دون الإعتبار بطرق الاستدلال التي أرشد الله تبارك وتعالى إليها من سمع وبصر وعقل وحساب. بل ووضع العقل وألحق به الحساب موضع التعارض مع الدين حتى أصبح المنهج السليم هو الأخذ بظاهر الأشياء دون تعقلها والتفكر فيها حتى في الأمور الكونية الظاهرة والتي سهل قياسها وحسابها في هذا الزمان كما هو الحال بالنسبة لحركة الأرض والشمس والقمر ومسألة الأهلة كما تقدم.

وأما الطريق القويم في دين الله عز وجل أن هو الاستدلال بالعقل ومعه الحساب والبحث فيه وتعلمه من آيات الله الكونية والإنشاع والاستدلال به كما أرشدنا ربنا سبحانه وتعالى في كتابه العظيم. وهذا فيه تنشيط للعقل والتبصر في الأمور ومعرفة حقائقها بحسب ما أظهر الله لها من أسباب. وفيه قوة الحجّة في إثبات صنع الخالق ورد شبه الملحدين. وفيه تفرّج للنفس وزيادة في الإيمان حتى يعرف الإنسان أن الله عز وجل لم يخلق هذا الكون عبثاً بل إن الله عز وجل قد خلق هذا الكون وأتقنه وفصّله لغاية عظيمة فكل ذلك فيه دليل ربوبيته وألوهيته سبحانه وتعالى وفيه أيضاً بيان صفاته وشأنه في خلقه وحكمته فسبحان الله أسرع الحاسبين. وكل هذا رحمة بنا حتى نخشاه فنتبع أمره رجاء لمغفرته وخوفاً من عقابه. فالله جل جلاله كلّفنا بالحق والميزان الشرعي معاً فكلّاهما من الميثاق والأمانة التي

⁴⁷ هناك فرق كبير بين الاستدلال بالعقل لإقرار الحق ولتقرير الحق. فالإقرار بالحق يكون بالتسليم لقول الله تعالى وقول رسوله وهذا هو مقتضى الشهادة. وتقرير الحق لا يلزم الرجوع للدليل الشرعي إلا بما ناسب العقل وهذا هو الهوى الذي يتنافى مع معنى الشهادة ومقتضاها.

بها يقوم الدين وتصلح الدنيا وهذه هي دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

الميزان الكوني والميزان الشرعي

2.1 المقدمة

علم الحساب من العلوم التي تدرك بالعقل والفطرة وقد يكون هو العلم الوحيد الذي يكاد لا يختلف عليه البشر بكافة أجناسهم وألوانهم وبالأخص لمن عرف هذا العلم وتمعن فيه صدقا. وذلك لأن الله جل جلاله خلق كل شيء بقدر معلوم ووضع الميزان الكوني فجعل هذا الكون موزونا ومتناسقا سبحانه. ومن فضله ومنه علي الناس أنه أرسل إليهم الرسل وأنزل الكتب بالحق والميزان الشرعي. ومن حكمته أنه سبحانه فطر الناس على فهم الميزانين وجعل لهم كل ما يحتاجونه من إدراك وعقل. فجعل سبحانه آياته الكونية دليلا على الميزان الكوني وآياته الشرعية دليلا على الميزان الشرعي. وأرشد جل جلاله إلى التأمل في آياته الكونية لتعلم العدد والحساب وهذا لحكمته فالعدد والحساب يدرك بالعقل والفطرة ولهذا اكتفى سبحانه بالدلالة عليه. أما الميزان الشرعي فهو لا يدرك بالعقل والفطرة فقط وإنما يدرك بالوحي المنزل من عند الله تبارك وتعالى. والله جل جلاله تكفل بإقامة الميزان الكوني وأرسل الرسل وأنزل الكتب وفرض على الناس إقامة الميزان الشرعي. ولما كان الحساب هو

الوسيلة لمعرفة الحقائق وضبطها والطريق لمعرفة الأسباب وربطها، وجب النظر والبحث فيه وتعلمه من آيات الله الكونية لفهمهما لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية كما أرشد سبحانه في كتابه العظيم. ومن أهم هذه المصالح هي إقامة الميزان بالقسط لتحقيق العدل بين الناس.

2.2 الميزان الكوني

جعل الله جل جلاله الميزان في آياته الكونية لحكمته وعدله سبحانه ومن ذلك أنه جعل قيام الكون كله بالقسط أي بالعدل الظاهر ﴿١٩﴾^١. فالميزان الكوني أمره عظيم لأن الله جل جلاله شهد به لنفسه ووصف نفسه به وفيه شأن الله وتديره لهذا الكون، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ"، وقال: "أَرَأَيْتُمْ مَا أَتَفَقَ مِنْهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيضْ مَا فِي يَدِهِ"، وقال: "عَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَبِيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانُ يُخَفِّضُ وَيَرْفَعُ" ﴿١٥﴾^٢. وهذا فيه أن الميزان الكوني بيده سبحانه فهو قائم عليه بالقسط لا تأخذه في ذلك سنة ولا نوم، ولهذا كانت آية الكرسي أعظم آية في كتاب الله فقد قال سبحانه: الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم (البقرة) فعن أبي موسى قال: قامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَمْسٍ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ عَرَّ وَجَلَ لَا يَنَامُ وَلَا يَبْغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ. يُخَفِّضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ. يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ. وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ" ﴿٤﴾^٣. وهذا فيه أن الله قائم على الميزان الكوني بنفسه بالعدل الظاهر ولذلك وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ بالقسط.

^١ جاء في معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري أن القسط هو العدل البين الظاهر ومنه سمي الميزان قسطاً والميزان قسطاً لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهراً وقد يكون من العدل ما يخفى.
^٢ صحيح البخاري: 7406.
^٣ صحيح مسلم: 179، وصححه الألباني.

ومن أعظم ذلك أن الله جعل قيامه على الميزان الكوني بالقسط في أعظم شهادة في كتابه الكريم فقال جل في علاه: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (قائما بالقسط) أي: متكهما بالعدل مخبرا به آمرًا به: كان هذا تحقيقا لكون الشهادة شهادة عدل وقسط وهي أعدل من كل شهادة كما أن الشرك أظلم من كل ظلم وهذه الشهادة أعظم الشهادات [٠] وقيامه بالقسط يتضمن أنه يقول الصدق ويعمل بالعدل كما قال: (وَمَتَّ كَلِمَةَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) وقال هود: (إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فأخبر أن الله على صراط مستقيم وهو العدل الذي لا عوج فيه [٠] وقال: (هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) وهو مثل ضربه الله لنفسه ولما يشرك به من الأوثان كما ذكر ذلك في قوله: (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ) الآية. وقال: (أَفَنُيَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ) الآيات [٠] ولهذا أمرنا الله سبحانه أن نسأله أن يهدينا الصراط المستقيم: صراط الذين أنعم عليهم: من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وصراطهم هو العدل والميزان؛ ليقوم الناس بالقسط والصراط المستقيم هو العمل بطاعته وترك معاصيه فالمعاصي كلها ظلم مناقض للعدل مخالف للقيام بالقسط والعدل. والله سبحانه أعلم ﴿١٢﴾ [١٢].^٤

وجاء في تفسير القرطبي عن الكلبي وأورده أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية في سبب نزول هذه الآية أنه لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة، قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان. فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: نعم. قالوا: وأنت أحمد؟ قال: نعم. قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك. فقال لهما رسول الله ﷺ: سلاني.

فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران، فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ [2].

وبهذا يتبين أن أعظم شهادة في كتاب الله جاءت في صفة الله جل جلاله أنه سبحانه قائم بالقسط وأن الميزان الكوني بيد الله وهو قائم عليه بعدله الظاهر يخفضه ويرفعه وهو الحي القيوم ولا ينام ولا ينبغي له أن ينام وهذا لازم لوجود الكون وصلاحه فهو مديره سبحانه وهو مالكة. وفيه أيضا أن الله عز وجل كامل في صفاته لا يلحقه نقص وهذا لازم لإقامة الوجود إذ يتعذر على غيره إقامة الميزان الكوني كما دلت على ذلك الآيات القرآنية والأحاديث. وقد جاء في تفسير ابن كثير أن قوله: (لا تأخذه سنة ولا نوم) أي: لا يعثره نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعثره سنة ولا نوم، فقوله: (لا تأخذه) أي: لا تغلبه سنة وهي الوسن والنعاس ولهذا قال: (ولا نوم) لأنه أقوى من السنة، [٠] وقوله: (ولا يثوده حفظهما) أي: لا يثقله ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء الرقيب العلي العظيم لا إله غيره ولا رب سواه [هـ].

وكل هذا فيه أن الله جل جلاله قد جعل العدل الظاهر في الميزان الكوني سببا لإستقامة السموات والأرض وصلاهما كما في قوله تعالى: وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ

فَيَنْبَغِي بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ﴿١﴾ [1]. وبهذا يعلم أن السماوات والأرض تفسد بالظلم وهذا لا يكون لأن الله أقامهما بالقسط وهو العدل الظاهر بالميزان الكوني. ولا يعلم صورة هذا الميزان ولا وصفه إلا بما وصفه الله جل جلاله ورسوله ﷺ به، ومن ذلك أن الله وضعه في يده ويخفص به أقواما ويرفع آخرين وهو قائم عليه بنفسه كما قال الرسول ﷺ: ما من قلب إلا وهو معلق بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه، والميزان بيد الرحمن، يرفع أقواما، ويخفص آخرين، إلى يوم القيامة ﴿١٣﴾ [13].⁵

وهذا فيه أن هذا الميزان هو الميزان الكوني تابع لإرادة الله الكونية وأن الله قائم عليه بنفسه بالقسط إلى قيام الساعة وهو غير الميزان الشرعي التابع لإرادة الله الشرعية الذي يوضع يوم القيامة لحساب المكلفين كما سيأتي. وبيان ذلك أيضا أن هذه الهداية المذكورة في الحديث هي الهداية الكونية التابعة لمشيئة الله تعالى وليست الهداية الشرعية التابعة لمعرفة ما يحبه الله ويرضاه. فالميزان الكوني فيه شأن الله وتدبيره لهذا الكون الذي قال فيه جل في علاه: يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ الرحمن. وبهذا يكون المراد بالميزان الذي وضعه الله بعد رفع السماء هو الميزان الكوني الذي فيه شأن الله وتدبيره للكون كما قال تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ الرحمن. والمراد بالميزان الذي أمر الله به هو الميزان الشرعي الذي فيه شأن العباد وتدبيرهم لأنفسهم بما كلفهم الله به كما قال تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا

⁵الجامع الصغير وزاداته: 10685، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

تُخَسِّرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن. والله أعلى وأعلم.

ولهذا فإن الميزان الكوني قد تكفل به سبحانه عدلا وتديرا لا يشاركه في ذلك أحد وهذا دليل على وحدانيته وعظمته وقدرته إذ يتعذر على غيره العيش من دونه فضلا عن إقامته، ومن ذلك أن الله عدل في قضاءه ومشيئته وحليم في تدييره والدليل على هذا قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ فاطر. وقوله تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَخَرِّ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ الحج. فهذا دليل على وحدانيته سبحانه بالملك والتدبير واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له. فالأدلة العقلية والشرعية دلت على وحدانيته سبحانه.

ومن أعظم موجبات وحدانيته بالعبادة وكال صفاته أنه سبحانه جعل هذا الكون موزونا ومتناسقا بإرادته الكونية لا يشاركه في ذلك أحد كما في قوله تعالى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ الأنبياء. وقد جاء في تفسير السعدي في شرح هذه الآيات أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مديران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتنازعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معا، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التنازع في قوله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ

وَلَعَلَّأَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ [1].

وبهذا يعلم بالضرورة أن هذا الميزان الكوني كان موجودا عندما رفع الله السموات حيث وضعه جل جلاله في يده ليقوم بنفسه على السموات والأرض بالقسط كما تقدم. ومن المعلوم أيضا أن الميزان الكوني تابع للمقادير الكونية التي كتبها جل جلاله في اللوح المحفوظ. وعليه فالظاهر أن الله خلق الميزان الكوني بعد كتابة المقادير في اللوح المحفوظ، وعند خلق السموات والأرض، وأن الله وضعه في يده بعد رفع السماء، والله أعلى وأعلم. ولقد أجمع السلف رحمهم الله على أن أول ما خلق الله الماء، ثم العرش على الماء، ثم القلم واللوحة المحفوظ، ثم بعد ذلك خلق الله السموات والأرض، راجع 9.7 مسألة أول ما خلق الله. ولقد ثبت في الصحيح أن الله كتب المقادير في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه جل جلاله على الماء، فعن النبي ﷺ أنه قال: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴿١﴾ [4].⁶ وسماها الله جل جلاله المقادير لأنه قدرها وعرف قدرها بعلمه وحكمته وعدله ورحمته سبحانه حتى يقوم بنفسه على ذلك في الميزان الكوني الذي وضعه سبحانه في يده بعد رفع السماء كما في قوله تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ الرحمن. فيكون المعنى هنا الميزان الذي وضعه الله في يده بعد رفع السموات وهو الميزان الكوني ويحتل أيضا الميزان الذي وضعه للمكلفين من خلقه من الإنس والجن وهو الميزان الشرعي كما في باقي الآيات الكريمة في قوله تعالى: أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن.

وقد بين رسولنا الكريم ﷺ أن الله جل جلاله ينفق منذ خلق السموات والأرض وعرشه على الماء ويبدد الأخرى الميزان وهذا هو الميزان الكوني كما تقدم من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

⁶صحيح مسلم: 2653، وصححه الألباني في شرح الطحاوية.

قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ مَا اتَّفَقَ مِنْهُ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ"، وَقَالَ: "عَرَّضَهُ عَلَى الْمَاءِ، وَيَدِهِ الْأُخْرَى الْمِيزَانَ يَخْفِضُ وَيَرْفَعُ" ﴿15﴾⁷. فدل ذلك على أن الله جل جلاله خلق الميزان الكوني منذ خلق السموات والأرض ووضعه بيده بعد رفع السماء لتدبير هذا الكون بالخفض والرفع كما شاء جل جلاله، ومن ذلك أن الله تعالى له خزائن الخير كالرحمة والرزق وغير ذلك من الأمور العظيمة التي لا يصلح الكون إلا بها والتي أحصاها جل جلاله وجعل لها خزائنها ومن ذلك خزائن الشر كالضلال والعذاب، فكل هذه الأمور لا ينزلها الله تعالى إلا بقدر معلوم كما قال في كتابه: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ الحجر. وهذا فيه أن الله عز وجل له خزائن كل شيء، ولا ينزل شيء إلى الأرض إلا بقدر معلوم، وأن ما من شيء نبت في الأرض إلا وقد وزنه الله وعلم قدره وهو قائم على ذلك بنفسه بالميزان الكوني الذي يضعه في يده بالقسط ليكون عدله ظاهر لنفسه في شأنه الكوني وظاهر لعباده في ثبات الكون وتناسقه. وكل هذا فيه صلاح هذا الكون وثباته وبركته، ولولا قيام الله على الكون وتدبيره له، لما استقام أمر هذا الكون ولما صلح للعيش فيه.

ولهذا فقد أحصى جل جلاله كل شيء عددا كما قال: وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ الجن. ولقد سبق علم الله جل جلاله بهذه المقادير والأعداد التي كتبها في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض كما قال جل جلاله: وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ النبأ. وجاء في تفسير السعدي: (وَكُلُّ شَيْءٍ) من قليل وكثير، وخير وشر (أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) أي: كتبناه في اللوح المحفوظ ﴿1﴾. فدل ذلك على عظمة الله جل جلاله وكمال علمه وقدرته وحكمته، فهذا ما يقتضيه وصفه العزيز الذي لا

⁷ صحيح البخاري: 7406.

يعجبه شيء، العليم الذي يعلم كل شيء، الحكيم الذي يضع كل شيء في موضعه الصحيح، الرحيم الذي وسع كل شيء رحمة. وقد تفرد سبحانه بكل ذلك كما قال تعالى في حق الخير والشر: وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ يونس.

ولله الحكمة البالغة منه سبحانه في تدبير خزائن الخير والشر في الدنيا وقد بين ذلك في قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ الأنبياء. وجاء في تفسير السعدي: (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم، ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغي والفقر، والعز والذل والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليبلوهم أيهم أحسن عملا ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) فنجازيكم بأعمالكم، إن خيرا نغفر، وإن شرا فشر (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) [1]. ولهذا فقد صح عن النبي ﷺ أن الله خزائن الخير والشر فقال: عِنْدَ اللَّهِ خَزَائِنُ الْخَيْرِ وَالْأَشْرِ مَفَاتِحُهَا الرِّجَالُ فُطُوْبِي لِمَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ مَغْلَقًا لِلْأَشْرِ وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلْأَشْرِ مَغْلَقًا لِلْخَيْرِ [13].⁸ وقد أخبر النبي ﷺ أن خزائن الخير والشر تفتح وينزل منها الفتن فعن أم سلمة قَالَتْ: اسْتَقِظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: "سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ، أَيْقُظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجْرِ، قُرْبَ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ" [15].⁹ وكل هذا فيه أن الخزائن تفتح وينزل منها الخير والشر لإبتلاء العباد وما من شيء ينزل إلا بقدر موزون وشأن معلوم منه سبحانه وتعالى.

⁸ الجامع الصغير: 7557، وحسنه الشيخ الألباني.

⁹ صحيح البخاري: 118.

ولقد أخبر جل جلاله عن خزائنه وجعل بذلك الحجة البالغة على وحدانيته بالملك والتدبير فقال تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ الطور. وأثبت سبحانه أنه خالق كل شيء وأن له خزائن السموات والأرض ومفاتيحها وتديرها فقال تعالى: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ الزمر. وذم سبحانه جهل المنافقين بهذا الأمر العظيم فقال تعالى: وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ المنافقون. وفي هذا الدليل على أن خزائن السموات والأرض هي خزائن الله جل جلاله ولا يملك مفاتيحها وتديرها إلا الله تعالى الذي يديرها كيف يشاء بالعلم الكامل والعدل الظاهر في الميزان الكوني. ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه محمد ﷺ لبيان ذلك فقال تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ الأنعام. ولكن الله جل جلاله اختص نبيه محمد ﷺ بالقرآن فبعثه بجوامع الكلم وأراه مفاتيح خزائن الأرض في منامه كما صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمِفْتَاحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ ﴿١٥﴾ [15].¹⁰

وأختص سبحانه ذكر خزائن الرحمة دون غيرها من خزائن الخير الأخرى فقال في ذلك سبحانه: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ص. وفي تدبيره لخزائن الرحمة قال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ الإسراء. فدل هذا على واسع رحمة الله وفضله ولهذا فقد أمر جل جلاله عباده بعدم القنوط من رحمة الله كما قال تعالى: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ

¹⁰ صحيح البخاري: 7018.

جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ الزمر. ومن أعظم رحمة الله تعالى النبوة والكتاب فهي جميعاً من خزائن الرحمة كما قال تعالى: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ الدخان. وقال السعدي رحمه الله: (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضّلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه، (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) أي: يسمع جميع الأصوات ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه فرحمهم بذلك ومن عليهم فله تعالى الحمد والمنة والإحسان ﴿١﴾. ولهذا قال تعالى في حق الأنبياء والمؤمنين: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ آل عمران. وفي حق نبينا الكريم: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ الأنبياء. وقال تعالى رداً على من ينكر رسالة النبي محمد ﷺ: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ الزخرف. والكتاب أيضاً من رحمة الله كما قال تعالى: تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ لقمان. ولقد أمر جل جلاله عباده المؤمنين بالفرح بهذه الرحمة فقال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ يونس. فدل على أن هذه الرحمة هي أفضل من غيرها على الإطلاق.

وهذا فيه أن أمر الله الشرعي وبيانه تابع لرحمة الله الكونية وهذا يشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال التي جاء الأنبياء عليهم السلام بها وما يترتب على ذلك من الحكم الجزائي وحساب الأعمال. ولهذا فقد صح عن النبي ﷺ أن الله جل جلاله يرفع الأعمال إليه وهذا داخل في تدبيره جل جلاله لهذا الكون كما تقدم. ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام مبشرين لمن آمن بالله

وعمل صالحا ومنذرين لمن كفر بالله وعمل سوءا. وجعل سبحانه رسله حجة على المكلفين جميعهم كما قال تعالى: **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴿١٦٥﴾ النساء. وجعل سبحانه الجنة جزاءا للمطيعين كما قال تعالى: **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴿١٣٣﴾ آل عمران. وجعل النار جزاءا للعاصين كما قال تعالى: **وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴿١٣١﴾ آل عمران.

ومن خزائن الله جل جلاله الجنة والنار. فالجنة من خزائن الخير والرحمة والنار من خزائن الشر والعذاب وكلاهما من الخزائن التابعة لحكم الله الجزائي. فهذه الخزائن لها أبواب وخزنة يفتحونها وينفذون حكم الله الجزائي فيها كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: **وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴿٧١﴾ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ الزمر. ولقد ميز سبحانه الخير في الجنة عن الخير في الدنيا فجعل خير الدنيا محدود وينفذ وخير الجنة لا ينفد كما قال تعالى: **مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۚ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴿٩٦﴾ النحل. وكذلك الشر في النار والشر في الدنيا فشر الدنيا أيضا محدود ويخفف ولكن شر الآخرة لا يخفف كما قال تعالى: **خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ** ﴿١٦٢﴾ البقرة. وهذا الحكم الجزائي يكون بالميزان الشرعي الذي فرضه الله على المكلفين من الإنس والجن.

2.3 الميزان الشرعي

ومن حكمته سبحانه وتعالى أنه تكفل بإقامة الميزان الكوني وفرض على المكلفين من الجن والإنس إقامة الميزان الشرعي كما في قوله: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ الرحمن. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والميالك الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم [1]. وهذا بالتأكيد يشمل علم الحساب والذي به تضبط المقادير وتحسب المجهولات فهو أيضا صورة من صور الميزان كما تقدم. وكل هذا فيه أن الله عز وجل فرض على المكلفين من الإنس والجن إقامة الميزان الشرعي. وفيه أيضا أن الله عز وجل جعل العدل في آياته الشرعية كما في آياته الكونية وهذا دليل على حكمته وكمال عدله سبحانه.

وبهذا يتبين أن المقصود والمراد من إقامة الميزان بالمجمل هي إقامة الميزان الشرعي الذي كلفنا الله جل جلاله به، وهو العدل في جميع الأقوال والأفعال، وهو الإستقامة على دين الله جل جلاله، وهذا يشمل جميع العبادات التي يحبها الله ويرضاها والتي أمر الله عباده بها عن طريق الرسل والكتب ومن ذلك إقامة الميزان والكيل بالقسط والصدق في القول والعمل ومنه بلا شك الحساب الصحيح. وبهذا يتبين أن الميزان الشرعي، حاله كحال الحق، هو من الأمانة في قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ الأحزاب. وفي تفسير ابن كثير: قال العوفي عن ابن عباس يعني بالأمانة الطاعة [٢]. وقال قتادة

الأمانة الدين والفرائض والحدود [هـ]. وكل هذه الأمور التي ذكرها الصحابة رضوان الله عليهم في الأمانة مرجعها إلى الحق والميزان وهذا هو الذي أرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب والتي بها يقوم الدين وتصلح الدنيا. ولهذا قال سبحانه وتعالى في نهاية الآية أن الأمانة حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا. فالظلم مخالف للعدل وهو الميزان. والجهل مخالف للعلم وهو الحق. وأعظم الحق توحيد الله بالعبادة، وأعظم الميزان هي إقامة العدل بالقسط بين الناس وهذه هي دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

والميزان الشرعي هو أيضا من الميثاق الذي ذكره الله في قوله: **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴿٧﴾ المائدة. يقول السعدي في تفسيره رحمه الله: **و (ميثاقه) أي: واذكروا ميثاقه (الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ) أي: عهده الذي أخذه عليكم.** وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتها، ولهذا قال: **(إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان واتيقاد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمرُوا به كاملا غير ناقص. (وَأَتَقُوا اللَّهَ) في جميع أحوالكم (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعملوا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم -إن كنتم كذلك- غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعله بصلاح قلوبكم** [1].

ولهذا فإن الميزان الشرعي يعتبر من الأمانة والميثاق الذي واثق الله به المؤمنين وأمرهم به ليجزى

كل نفس بما كسبت. وبهذا يتبين أن الميزان الذي يوضع يوم القيامة لحساب المكلفين إنما هو الميزان الشرعي في صورته الحسية. وهذا من عدل الله إذ جعل الميزان الذي يوزن به الناس يوم القيامة هو الميزان الشرعي الذي كلفهم به. وقد صح عن الرسول ﷺ أن هذا الميزان يوضع في صورة ميزان حقيقي محسوس بعد الصراط وقبل الحوض فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَشْفَعَ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَقَالَ: أَنَا فَاعِلٌ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ أَطْلُبُكَ، قَالَ: أَطْلُبُنِي أَوَّلَ مَا تَطْلُبُنِي عَلَى الصِّرَاطِ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَقْلِكَ عَلَى الصِّرَاطِ، قَالَ: فَاطْلُبُنِي عِنْدَ الْمِيزَانِ. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ أَقْلِكَ عِنْدَ الْمِيزَانِ، قَالَ: فَاطْلُبُنِي عِنْدَ الْحَوْضِ فَلِئَلَّا أَخْطِئُ هَذِهِ الثَّلَاثَ الْمَوَاطِنَ (صحيح الترمذي وصححه الألباني).

وهذا فيه أن الميزان الشرعي يوضع في صورته الحسية بعد الصراط مباشرة وقبل الحوض. وقد صح عن أحد أصحاب النبي ﷺ أنه رأى هذا الميزان الشرعي في منامه كما جاء عن النبي ﷺ أنه ذات يوم قال لأصحابه: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا، رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيزَانًا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ فَوُزِنَتْ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُمَّ رُفِعَ الْمِيزَانُ. فَرَأَيْنَا الْكَرَاهِيَةَ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). وهذا فيه بيان الميزان الشرعي الذي رجح بحسب ما فضل الله به النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

بل إن أبو بكر، وعمر، وعثمان، جميعهم رجحوا بكل أمة الإسلام في الميزان الشرعي كما رأى ذلك النبي ﷺ في منامه ورؤية الأنبياء حق. فقد جاء عن عبد الله بن عمر أنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: رَأَيْتُ كَأَنِّي أُعْطِيتُ الْمَقَالِيدَ وَالْمَوَازِينَ، فَأَمَّا الْمَقَالِيدُ فَهِيَ الْمِفَاتِيحُ، فَوُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ أُمْتِي فِي كِفَّةٍ فَرَجَحْتُ لَهُمْ، ثُمَّ جِيءَ بِأَبِي بَكْرٍ فَرَجَحَ بِهِمْ، ثُمَّ جِيءَ بِعُمَرَ فَرَجَحَ بِهِمْ، ثُمَّ جِيءَ بِعُثْمَانَ فَرَجَحَ، ثُمَّ رُفِعَتْ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: فَأَيْنَ لَنَحْنُ؟ قَالَ أَنْتُمْ حَيْثُ جَعَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ" [10].¹¹

¹¹أحمد: 5469، ابن أبي شيبة: 32623، الطبراني: 13695 (13/66) بإختلاف يسير، قال عنه أحمد شاكر في تخریج

ومن باب أولى أن يرجح النبي ﷺ بأتمته في الميزان الشرعي وهذا لأن النبي ﷺ رجع على خير أصحابه أبوبكر الذي رجع على وعمر وعثمان رضي الله عنهم وجميعهم رجعوا على أمة الإسلام. فدل ذلك على الترتيب في الفضل وأن النبي ﷺ أفضل من أتمته ثم يليه في ذلك أبوبكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين. وكما قال ذلك الملكان في حق النبي ﷺ عندما حاولوا وزنه بأتمته بالميزان الشرعي: "دعه عنك فلو وزنته بأتمته لوزنهم" [10].¹² وهذا لأن النبي ﷺ جاء بالهدى وكان أصحابه رضوان الله عليهم أئمة الهدى في أتمته من بعده فكان لهم الأجر العظيم كما قال ذلك النبي ﷺ: "من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا" [15].¹³ وكل هذا فيه أن النبي ﷺ وأصحابه الكرام لا يزالون يزدادون في الأجر في كل الأعمال الصالحة التي دلوا أمة الإسلام عليها إلى يومنا هذا وإلى أن يرفع الله العلم الشرعي بقبض العلماء قبل قيام الساعة.

والأدلة في وصف الميزان الشرعي ووصف حال المكلفين وأعمالهم وهم يوزنون عليه يوم القيامة كثيرة ومنها قوله تعالى: وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ الْأَعْرَافُ. وقال تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ الْأَنْبِيَاءُ. وقال تعالى: فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ الْمُؤْمِنُونَ. وقال تعالى:

المسند لشارح إسناده صحيح بلفظ مسند الإمام أحمد، وقال الإمام الألباني في تخریج كتاب السنة صحيح بهذا اللفظ وضعيف

بلفظ مسند الإمام أحمد.

¹² ابن كثير في البداية والنهاية، السلسلة الصحيحة: 1545.

¹³ صحيح مسلم: 2674.

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ الْقَارِعَةُ. ومن سوء حال الكافرين بآيات الله ولقائه أنهم يوم الحساب تحبط أعمالهم فلا يتعدون الصراط فيلقون في جهنم قبل أن يدركوا الميزان الشرعي ولهذا فقد قال جل جلاله في حق من لا يؤمن بالآخرة: وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ ﴿٧٤﴾ المؤمنون. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ الكهف. فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزُنْ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَأُوا فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا [الكهف: 105]. فكل ذلك فيه وصف حال وأحوال الناس وأعمالهم قبل وعند وبعد الميزان الشرعي الذي كلف الله جل جلاله المكلفين به من الجن والإنس.

ولهذا فإن هذا الميزان الشرعي موافق لما شرعه الله تعالى وقد وصف النبي ﷺ وزن الأعمال الصالحة في هذا الميزان الشرعي ومن ذلك قوله: ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وفي رواية أخرى عن أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: من أُعْطِيَ حِظَّهُ من الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حِظَّهُ من الخير ومن حُرِمَ حِظَّهُ من الرِّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حِظَّهُ من الخير. أثقل شيء في ميزان المؤمن يوم القيامة حسن الخلق، وإن الله لَيَبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ (صحيح الأدب المفرد، وصححه الألباني). وقال ﷺ أيضا: كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ (صحيح البخاري، وصححه الألباني). وقال أيضا: الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (صحيح مسلم). وقد جاء أيضا أن النبي ﷺ قال: يَنْجُ بَنُجٌ - وأشار بيده بجنس - ما أثقلهن في الميزان سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ

يُتَوَقَّى للهِرِّ الْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ (صحيح ابن حبان، والسلسلة الصحيحة للألباني). وقد جاء أيضا أن النبي ﷺ أمر عبد الله بن مسعود أن يصعد شجرةً فيأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله فضحكوا من حوشة ساقه، فقال رسول الله ﷺ: مِمَّا تَضْحَكُونَ! لَرَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أَحَدٍ (السلسلة الصحيحة للألباني). وقال أيضا ﷺ: لو أَنَّ عِلْمَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَضِعَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَ عِلْمُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي كِفَّةٍ، لَرَجَحَ عِلْمُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (صححه الألباني). والمراد هنا علم عمر الشرعي وهذا فيه فضل عمر رضي الله عنه فقد بشره بذلك النبي ﷺ فقال: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِقَدَحٍ لَيْنٍ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ، ثُمَّ أُعْطِيتُ فَضْلِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْعِلْمُ (صحيح البخاري). أي العلم الشرعي ورؤيا الأنبياء حق. فكل ذلك فيه أن المراد في كل هذه الأحاديث هو الميزان الشرعي والذي يوافق أمر الله الشرعي لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال وهو بخلاف الميزان الكوني الذي جعله الله بيده لتدبير الكون كما تقدم.

ومن رحمة الله جل جلاله ومنه على المكلفين أنه جعل الأعمال الصالحة في الميزان الشرعي تتضاعف وأقل ذلك عشرة أضعاف كما في قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ الأنعام. ويزيد سبحانه وتعالى في فضله على عباده كيف يشاء فيضاعف الحسنات أضعافا كثيرة كما في قوله: مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ البقرة. وعن عبد الله بن عباس عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. وفي رواية: وزاد: ومحأها

اللهُ ولا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ (صحيح مسلم). ولكن الله جل جلاله وضع شرط لهذا الفضل العظيم وهو أن يلقي العبد ربه وهو لا يشرك به شيئاً ولهذا فقد جاء عن أبو ذر الغفاري أن النبي ﷺ قال: يقولُ اللهُ تعالى: مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً، فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا. وَأَزِيدُ، وَمَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فُجِرَ أَثْمَالُهَا، أَوْ أَغْفِرُ، وَمَنْ عَمِلَ قُرَابَ الْأَرْضِ خَطِيئَةً، ثُمَّ لَقِنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا جَعَلْتُ لَهُ مِثْلَهَا مَغْفِرَةً، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَى شَيْءٍ، اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ اقْتَرَبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، اقْتَرَبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْسِي، أَتَيْتُهُ هَرُولَةً (صحيح الجامع، وصححه الألباني).

ومن واسع فضل الله جل جلاله أنه جعل الحسنات في الميزان الشرعي تذهب مثلها في العدد من السيئات فمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرٌ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾ هود فقال الرجلُ: يا رسولَ اللهِ ألي هذا؟ قال: يَجْمَعُ أُمَّتِي كُلَّهُمْ (صحيح البخاري). ولقد بين النبي ﷺ حساب العشرة الأضعاف من الحسنات خلال اليوم واللييلة في الذكر وأنها تذهب مثلها من السيئات فقال: خَصْلَتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، يَسْبَحُ اللهُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا (10)، وَيُحَمِّدُهُ عَشْرًا (10)، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا (10)، فَذَلِكَ نَحْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ (150 = 5 × 30 أي في الصلوات الخمس)، وَأَلْفٌ وَخَمْسِمِائَةٌ فِي الْمِيزَانِ (1500 = 10 × 150 أي عشرة أضعافها). وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ (34)، وَيُحَمِّدُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ (33)، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ (100 = 33 + 33 + 34)، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ (1000 = 10 × 100 أي عشرة أضعافها)، فَأَيْكُمُ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةِ سَيِّئَةٍ (2500 = 1000 + 1500 أي عدد الحسنات الكلي) (صحيح الجامع، وصححه الألباني).

ومن كمال وواسع فضل الله جل جلاله أنه سبحانه يبدل السيئات إلى حسنات لكل من تاب وءامن وعمل صالحاً كما في قوله تعالى: **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ** ^{٥٢} **وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴿٧٠﴾ الفرقان. ويقول السعدي رحمه الله في تفسيره: (إِلَّا مَنْ تَابَ) عن هذه المعاصي وغيرها بأن أفلح عنها في الحال وندم على ما مضى له من فعلها وعزم عزمًا جازماً أن لا يعود، (وَأَمَنَ) بالله إيماناً صحيحاً يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات (وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا) مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه الله. (فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) أي: تبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات بتبدل حسنات، فيتبدل شرهم إيماناً ومعصيتهم طاعة وتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية. وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه فعددها عليه ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: "يا رب إن لي سيئات لا أراها هاهنا" والله فوق كل ذي علم عليم. (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) لمن تاب يغفر الذنوب العظيمة (رَحِيمًا) بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ثم وفقهم لها ثم قبلها منهم [1].

وكل هذا فيه أن الله تبارك وتعالى يبارك في الأعمال الصالحة على الميزان الشرعي وينمها كما في قوله تعالى: **مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ** ^{٥٣} **حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴿٢٦١﴾ البقرة. ولهذا فقد وصف الله جل جلاله من جاء بالأعمال الصالحة التي ترضي الله بالفائزين فقال: **وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴿٥٢﴾ النور. وقد ميز سبحانه بذلك أصحاب الجنة عن أصحاب النار فقال جل جلاله: **لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ** ^{٥٤} **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ** ﴿٢٠﴾ الحشر. وأما أصحاب النار فهم الخاسرون بعدل الله وذلك لأنه لم يكن لهم من الأعمال الصالحة ما فيه نجاتهم بما يرضي

الله جل جلاله كما قال تعالى: الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ البقرة. ومن أعظم موجبات الخسران هو الكفر بالله وآياته والشرك به فهذا هو الخسران المبين كما قال تعالى: فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ الزمر. وبذلك فإن الخاسرين يوم القيامة يخسرون الإنتفاع بفضل الله العظيم ما فيه نجاتهم من النار، من مضاعفة الأعمال الصالحة وذهاب السيئات بالحسنات للمحسنين وتبديل السيئات بالحسنات للتائبين فيكونون بذلك من أصحاب السعير والعياذ بالله ولهذا فقد قال النبي ﷺ: وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ (صحيح مسلم). أي الذي لا يكون لديه من الأعمال الصالحة في فيه نجاته فيهلك بذلك ويكون من الخاسرين.

وكل ذلك فيه بيان علاقة الحساب بالميزان حيث يوزن المكلفين وأعمالهم وصحفهم فتحسب جميع أعمالهم من الحسنات والسيئات وما لهم وما عليهم من الحقوق وبذلك يكون الجزاء. ولهذا فقد جمع الله جل جلاله أمر الميزان الشرعي مع صفة الحساب في قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۚ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۚ وَكَفَىٰ بِنا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ الأنبياء. وقد جاء في تفسير البغوي في بيان معنى "وكفى بنا حاسبين": قال السدي: مُحْصِينَ، والحساب معناه: العد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عالِمين حافظين، لأن من حَسَبَ شَيْئًا عَلَيْهِ وَحَفِظَهُ [5]. وأورد القرطبي في تفسيره: وكفى بنا حاسبين أي مجازين على ما قدموه من خير وشر. وقيل: حاسبين إذ لا أحد أسرع حساباً منا. والحساب العد. روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها: أن رجلاً قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتهم وأضربهم فكيف أنا منهم؟ قال: يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً

لك، وإن كان عقابك فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل، قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف. فقال رسول الله ﷺ أما تقرأ كتاب الله تعالى: ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ول هؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم. قال حديث غريب [2].

قال تعالى: أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ البقرة. وقد جاء في تفسير القرطبي: قوله تعالى: "والله سريع الحساب" من سرع يسرع- مثل عظم يعظم- سرعا وسرعة، فهو سريع. "الحساب" مصدر كالحاسبة، وقد يسمى المحسوب حسابا. والحساب العد. يقال: حسب يحسب حسابا وحسابة وحسابنا وحسابنا وحسبا، أي عد [٠] والمعنى في الآية: إن الله سبحانه سريع الحساب، لا يحتاج إلى عد ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله الحساب، ولهذا قال وقوله الحق: "وكفى بنا حاسبين" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم منزل الكتاب سريع الحساب" الحديث. فالله عز وجل عالم بما للعباد وعليهم فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل، إذا قد علم ما للحاسب وعليه، لأن الفائدة في الحساب علم حقيقته. وقيل: سريع المجازاة للعباد بأعمالهم. وقيل: المعنى لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسبهم في حالة واحدة، كما قال وقوله الحق: "ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة. قال الحسن: حسابه أسرع من لمح البصر [٠] وقيل لعل بن أبي طالب رضي الله عنه كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ قال كما يرزقهم في يوم! ومعنى الحساب: تعريف الله عباده بمقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إياهم بما قد نسوه، بدليل قوله تعالى: "يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه". [٠] فيأخذ العبد لنفسه في تخفيف الحساب عنه بالأعمال الصالحة، وإنما يخف الحساب في الآخرة على من حاسب نفسه في الدنيا [2].

2.4 الميزان بمعنى العدل والميزان المحسوس

العدل مرادف للميزان، والعدل هو صفة من صفات الله جل جلاله والله عدل في إرادته الكونية والشرعية، فالميزان الكوني تابعاً لإرادة الله الكونية والميزان الشرعي تابعاً لإرادة الله الشرعية. وكل هذا على وجه الإجمال. وأما على وجه التفصيل، فالميزان الكوني هو العدل في إرادة الله الكونية والميزان الشرعي هو العدل في إرادة الله الشرعية. ولكن الله عز وجل جعل الميزانين كل منهما في صورة حسية لحكمته ومن ذلك لإظهار عدله سبحانه تعالى، نخلق سبحانه الميزان الكوني ووضعه في يده وفيه تديره للكون وهو قائماً عليه بالقسط كما في قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. ويخلق سبحانه الميزان الشرعي يوم القيامة ويضعه لحساب المكلفين وأعمالهم كما في قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ الأنبياء.

وبهذا يعلم بالضرورة أن الميزان الكوني المحسوس الذي يضعه الله جل جلاله في يده كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن الله وتديره لهذا الكون بما في ذلك السماوات والأرض. وأما الميزان الشرعي المحسوس الذي يوضع بعد الصراط وقبل الحوض كما صح ذلك عن النبي ﷺ فيه شأن حساب المكلفين وأعمالهم يوم القيامة. فدل ذلك على أن الميزان الكوني المحسوس أعظم بكثير من الميزان الشرعي المحسوس وكل منهما من عدل الله ورحمته. وهذا لأن خلق وتدير السماوات والأرض أعظم من خلق الناس كما في قوله تعالى: نَخْلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ غافر. فكل هذا فيه أن شؤون الخلق ومن ذلك البعث والحساب أهون على الله جل جلاله من أمر السماوات والأرض كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ

وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ الروم. وقال السعدي في بيان معنى (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ): وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول.

وهذا فيه بيان أن التفاوت هنا في قوله (وهو أهون عليه) ليس في ذات الله وقدرته فهو سبحانه على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء ولكن هذا التفاوت إنما هو لبيان الحجة العقلية حيث أن من خلق الإنسان وخلق السموات والأرض وهي أكبر وأعظم، قادر على إحياء الموتى من باب أولى. فتكون الحجة العقلية هنا أن من لم يعجزه الإبتداء لا تعجزه الإعادة وخصوصا لما هو أسهل وأهون ولو بالنسبة للعقل. وقد جاء في تفسير ابن كثير وتفسير الطبري: عن ابن عباس قوله: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ) يقول: كل شيء عليه هين [هـ]. وقد جاء في تفسير القرطبي: فجعل ما علم من ابتداء خلقه دليلا على ما يخفى من إعادته؛ استدلالا بالشاهد على الغائب [و]. قال أبو عبيدة: ومن جعل أهون يعبر عن تفضيل شيء على شيء فقولوه مردود بقوله تعالى: (وكان ذلك على الله يسيرا)، وبقوله: (ولا يثوده حفظهما). والعرب تحمل أفعال على فاعل [و] وأشد أبو عبيدة أيضا: إني لأمنحك الصدود وإنني قسما إليك مع الصدود لأميل (أراد للمائل) [و] ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده [هـ]. وهذا فيه أن الله جل جلاله يخاطب عباده بما يناسب فهمهم وعقولهم وهذا من عدله ورحمته جل جلاله.

2.5 الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

قرر أهل العلم الشرعي من أهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم وبناء على الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما يوافق النقل والعقل، أن الله جل جلاله له أراءتان وهما الإرادة الكونية والإرادة الشرعية. فالإرادة الكونية هي ما تعلق بمشيئته سبحانه والإرادة الشرعية هي ما

تعلق بمحبته ورضاه. فإرادة الله الكونية نافذة كما في قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ يس. وأما الإرادة الشرعية فهي إرادة بيان لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال كما في قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَوَبَّ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتَوَبَّ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ النساء.

ولما كان الله عز وجل فعال لما يريد كما في قوله تعالى: فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ النحل، كان قضاءه تابعا لإرادته أي سبحانه له كذلك قضاء كوني وقضاء شرعي. فالقضاء الكوني هو ما أراده الله كونا فشاء أن يكون فكان بعزته وعلمه وقدرته سبحانه كما في قوله تعالى: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ البقرة. وأما قضاءه الشرعي فهو ما أراده الله شرعا فأمر الله عباده به مثل قوله تعالى: وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ الإسراء. فلو كان هذا قضاء كونيا لكان الناس أمة واحدة على التوحيد ولكن الله نفى ذلك بقضاءه الكوني أي بمشيئته الكونية كما في قوله تعالى: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلِتَسَّالُنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ النحل. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴿٣٦﴾ الأحزاب. فهذا أيضا من القضاء الشرعي ووجه ذلك أنه سبحانه ألزمهم بإتباع أمره الشرعي لأن ذلك من مقتضيات الإيمان ولهذا جاء التحذير في نهاية الآية لمن خالف وعصى أمر الله ورسوله، فلو كان هذا قضاء كونيا لكان ما أراده الله ولم يسع لأحد أن يختار شيئا من ذلك حيث أن أمر الله الكوني نافذ لا محالة.

وكذلك حكم الله تابعا لإرادته وله سبحانه الحكم الكوني وهو تابع لأرادته الكونية والحكم الشرعي وهو تابع لإرادته الشرعية كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ^ج أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ^ث إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ^١ المائدة، وهذا في الحكم الشرعي كما دل سياق الآية. وقوله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ^ج وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ ^ج لِحُكْمِهِ ^ج وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ^{٤١} الزعد. ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري (أي الكوني) والجزائي كما جاء في تفسير السعدي رحمه الله.

فحكم الله وقضاه وأمره الكوني نافذ وماض بإرادته الكونية وبما شاء وهو عدل في ذلك لا يشاركه فيه غيره سبحانه كما قال تعالى: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ^ط وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا ^ق إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ^{٢٠} غافر. وقد جاء في تفسير ابن كثير أن قوله: (والله يقضي بالحق) أي: يحكم بالعدل، وقوله: (والذين يدعون من دونه) أي: من الأصنام والأوثان والأنداد، (لا يقضون بشيء) أي: لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشيء [هـ]. وكما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «ماضي في حكمك، عدل في قضاؤك» (أخرجه أحمد وصححه الألباني).

وفي كل ذلك فإن الله هو أحكم الحاكمين كما في قوله تعالى: أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ^ج ^٨ التين. وهو أيضا خير الحاكمين كما في قوله: وَاتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ^ج وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ^{١٠٩} يونس. فالحكم كله لله تعالى ومنه الحكم الجزائي وهو سبحانه خير الفاصلين كما في قوله تعالى: إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ^ج ^{٥٧} الأنعام. وذلك لأن الله عز وجل عدل في إرادته وحكمه وقضاه العدل التام المنافي للظلم والدليل قوله تعالى: تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ^ق وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ^ج ^{١٠٨} آل عمران. ومن ذلك أن الله عدل في جزاءه وثوابه كما أخبر هو بذلك في قوله تعالى: وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم

بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ الحاقة. وقوله تعالى: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ ^ط فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ يونس.

وقد ثبت في السنة أن الله عز وجل حرم الظلم على نفسه في حكمه الكوني وعلى عباده في حكمه الشرعي فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالُمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَدْوِنِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْصِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْخَيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرُ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصَيْهَا لَكُمْ، ثُمَّ أَوْفَيْكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يُلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. وفي رواية: إِنِّي حَرَمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي، فَلَا تَظَالُمُوا. (صحيح مسلم).

وهذا فيه أن الله جل جلاله لم يحرم الظلم على عباده كونا بل حرمه شرعا وهذا من حكمته سبحانه فقد بين حكمه الشرعي للمكلفين حتى يغفر لمن يشاء برحمته ويعذب من يشاء بعدله في حكمه الجزائي كما في قوله تعالى: وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ^ج وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ الفتح. وقد جاء في تفسير السعدي أن معنى ذلك أن الله تعالى هو المنفرد بملك

السموات والأرض، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدريّة، والأحكام الشرعيّة، والأحكام الجزائيّة، ولهذا ذكر حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعيّة، فقال: (يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ) وهو من قام بما أمره الله به (وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ) ممن تهاون بأمر الله، (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المردار، آناء الليل والنهار [1]. فهذا الحكم الجزائي مرتبط بعدل الله وهدايته فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام والطاعة ويعذب من يشاء بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذب على ذلك كما جاء بيان ذلك في تفسير السعدي رحمه الله. وهذا المعنى هو المعنى الصحيح ولقد بينه جل في علاه في قوله: فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ الأنعام.

2.6 الهداية الكونية والهداية الشرعية

وكما أن الله عز وجل له إرادتان الكونية والشرعية فإن له سبحانه أيضا هديتان وهما الهداية الكونية وهي هداية التوفيق والإنقياد والهداية الشرعية وهي هداية المعرفة والإرشاد. واجتمعت الهديتان في قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ الشورى. ووجه ذلك أن الله عز وجل يهدي من يشاء ومن يريد فهذه الهداية المرتبطة بمشيئته وإرادته سبحانه هي الهداية الكونية وقد وردت في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ القصص. وفي قوله تعالى: وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ الحج. وأما الهداية الأخرى في قوله تعالى: (وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) فهي المرتبطة بمعرفة الحق وهي الهداية الشرعية وقد وردت أيضا في عدة مواضع في القرآن منها قوله تعالى: يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتَوَبَّ عَنْكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ النساء. وهذه الهداية تكون مرتبطة بالوحي وهي هداية بيان للحق كما في قوله تعالى: وَرَى الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ الأنعام.

وبهذا يتبين أن كل المخلوقات مسيرين بإرادة الله الكونية وأن المكلفين منهم من الجن والإنس مخيرين بإرادة الله الشرعية. والهداية الكونية الراجعة إلى مشيئة الله هي الغالبة، فمن عرف الحق وعمل به فقد هدى شرعا وكونا أي اجتمعت فيه الهدايتان ومثال ذلك أصحاب النبي ﷺ. والناس في كل ذلك درجات برحمة الله وكرمه وبما فضل الله بعضهم على بعض. ومن عرف الحق ولم يعمل به فقد هدى شرعا ولم يهدى كونا أي لم تجتمع فيه الهدايتان ومثال ذلك أبو جهل. والناس في ذلك دركات بعدل الله وغضبه وبما أغوى الله بعضهم على بعض. وسيأتي تفصيل ذلك في بيان يوم الحساب الذي فيه يكون الحساب بوزن الأعمال وبعده يأتي الجزاء إما جنة أو نار.

ومن عدل الله عز وجل وفضله على الناس أنه جعل لهدايته الكونية مسببات منها الإنابة إليه كما في قوله تعالى: اللَّهُ يَحْتَجِّي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى. وقوله تعالى: وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الرعد. ومن ذلك أيضا الإيمان بالله والأعتصام به كما في قوله تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ النساء. ومن ذلك أيضا إتباع

أمر الله الشرعي الذي يحبه الله ويرضاه كما في قوله تعالى: يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ المائدة. وهذا كله من عدل الله ورحمته سبحانه. ومن أسباب الهداية والثبات الدعاء فإن أكثر دعاء نبينا ﷺ كان في ثبات القلب كما جاء عن أم سلمة أن أكثر دعائه كان: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَكْثَرَ دَعَاءَكَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ سَلَمَةَ إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أَصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَمَنْ شَاءَ أَقَامَ، وَمَنْ شَاءَ أَرَاغَ فَنَلَا مَعَاذَ رَبِّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله جل جلاله يقلب القلوب بين أصابعه بإرادته الكونية وأن الدعاء قد يكون سببا للهداية الكونية والتي بها يكون الثبات على الدين والطاعة.

ومن أعظم أسباب الهداية هي الجهاد في سبيل الله كما في قوله تعالى: وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ العنكبوت. وقد جاء في تفسير السعدي قوله: دل هذا، على أن أخرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، وتيسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين [1].

إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ مُصْرِفِ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ. الراوي : عبدالله بن عمرو | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم الصفحة أو الرقم : 2654 | خلاصة حكم

المحدث : [صحيح]

2.7 الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته

من المعلوم بالضرورة وما دلت عليه البراهين الشرعية والعقلية أن الأصل في هذا الكون استقراره وثباته وتوازنه وبركته حتى يصلح للحياة كما قال تعالى: **صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾** النمل. يقول ابن كثير في تفسيره: أي: يفعل ذلك بقدرته العظيمة الذي قد أتقن كل ما خلق، وأودع فيه من الحكمة ما أودع [14]. ومن ذلك أن الله عز وجل جعل الأرض مستقرة وثابتة ومبسوطة والجبال أوتادا والسماء مرفوعة والسحاب والرياح مسخرة والفلك والأنهار جارية والبحار محسورة والشمس سراجا والقمر نورا والنهار معاشا والليل سكا والنجوم دليلا والشجار مثمرة والدواب متحركة وسائر المخلوقات المتنوعة وغيرها من الآيات العظيمة الدالة عليه والمرشدة إليه. فكل ذلك من آيات الله الكونية الدالة على عظمته وحكمته سبحانه والتي أراد الله منا بإرادته الكونية أن نراها وإيرادته الشرعية أن نتدبر فيها ونتمعن في تفاصيلها بما أودع فيها من عقل وفطرة. وقد قال تعالى في ذلك: **وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرُكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾** النمل. وقوله تعالى: **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾** فصلت.

والآيات في ذلك عديدة ومنها قوله تعالى: **أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾** وجعلنا في الأرض رواسي أن تُمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون

﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ الْأَنْبِيَاءُ.. وقوله تعالى: وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ يس. وقوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ البقرة. وقوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ الأنعام.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه بعد انقضاء فتنة المسيح الدجال وخروج يأجوج ومأجوج وبدعاء عيسى عليه السلام وأصحابه يُقال لِلْأَرْضِ: أَتَيْتِ ثَمَرَتِكَ، وَرَدَّتْ بَرَكَتَكَ (صحیح مسلم). فدل على أن البركة هي الأصل وموافقة للإيمان تزيد بالطاعة وتنقص بالمعصية وبهذا يقام الميزان.

وكل هذا فيه المحجة البالغة العقلية والشرعية على استحقاق الله جل جلاله للعبادة وحده لا شريك له بالطريقة التي ارتضاها ومن ذلك وجوب تسبيحه وتقديسه بأسمائه وصفاته بدون تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل إذ قال جل جلاله: سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾ جَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ الْأَعْلَى. وجاء في تفسير السعدي في بيان معنى هذه الآيات أنه تعالى يأمر بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا، يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر أسمائه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم. (الذي خلق فسوى) أي: أتمتها وأحسن خلقها (وَالَّذِي قَدَّرَ) تقديراً، تتبعه جميع المقدرات (فَهَدَى) إلى ذلك جميع المخلوقات. وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى) أي: أنزل من السماء ماء فأنبث به أنواع النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، وصوح عشبه. (جَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى) أي: أسود أي: جعله هشيماً رميماً، ويذكر فيها نعمه الدينية [1]. فتبارك الله أحسن الخالقين.

فلولا ثبات الكون واستقراره وبركته لما صلح للحياة ولما كانت الحياة ممكنة ومستقرة ومنظمة ومنتجة. ولهذا فإن الإنسان يعيش في هذا الكون ويستفيد منه ومن ثماره ونعمه وبركاته وموارده ومعادنه وغيرها من الأشياء التي جعلها الله في هذا الكون ليستفيد منها بفضلها ورحمته ومنه علينا. وفي ثبات الكون واستقراره غايات عظيمة ومصالح كثيرة ومنها تعلم العدد والحساب كما في قوله تعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ يونس.

فكل هذه الآيات واضحة في دلالتها على عظمة الخالق وحكمته وعدله ورحمته. ولهذا فقد ذكر الله

عزل وجل أن آياته لقوم يعقلون، يعلمون، يفقهون، يؤمنون، يوقنون، أو يتفكرون، وهم أولي الألبات الصادقين حقاً مع أنفسهم ومع خالقهم بما أودعه فيهم من هداية وبصيرة بفضلهم ومنه عليهم. وهم الذين آمنوا بالله حقاً على يقين ولم يرتابوا وجاهدوا في الله لنصرة الحق كما في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾** (١٥) الحجرات. ولهذا ما ينكر هذه الآيات الواضحة إلا المعاندين لها والكافرين بها والمشككين فيها والمعرضين عنها وعن خالقهم كفرا وعدوانا وظلماً. ولهذا فقد سماهم الله جل جلاله العمي وحجب عنهم الهداية الكونية ونفى عنهم اليقين بعدله سبحانه فقال لنبيه: **﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾** (٨١) وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ **﴿٨٢﴾** النمل. وهم الذين يجادلون في آيات الله بالباطل فطبع الله على قلوبهم كما في قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كِبَرٌ مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطِغُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾** (٣٥) غافر. وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** (٥٦) غافر. فهم تكبروا عن قبول الحق لكفرهم كما قال تعالى: **﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾** (٤) غافر.

2.8 الظلم ينافي الميزان الكوني والميزان الشرعي

ومن عدله وحكمته سبحانه أنه جعل الظلم منافياً ومخالفاً للميزان الشرعي كما جعله سبحانه منافياً للميزان الكوني. فهذا فيه أن الكون محفوظ بإمر الله الكوني وبعده ولكن هذا الحفظ والاستقرار إنما

جعله الله برهانا واضحاً على ربوبيته وألوهيته حتى يقيم المكلفين الحق والميزان الشرعي، ولهذا فإن الله جل جلاله جعل الظلم من أسباب البلاء الذي يقع بإذنه إما لحكمته أو عدله أو رحمته. ويقع هذا البلاء في صور مختلفة منها الجوع والخوف وقلة المطر والزلازل وذهاب البركة وغير ذلك. ومن أعظم الظلم الكفر بالله كالشرك كما في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ لقمان. أو دعوة الولد له سبحانه والدليل قوله تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تكادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ مريم. يقول السعدي رحمه الله: أي من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر. والحال أنه: (مَا يَنْبَغِي) أي: لا يليق ولا يكون (لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا) وذلك لأن اتخاذه الولد، يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد. والولد أيضاً، من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي [1].

وهذا فيه أن الشرك ونسبة الولد لله سبحانه هو من الظلم الذي لا ينافي فقط الميزان الشرعي الذي أمر الله به، وأما ينافي أيضاً الميزان الكوني فيكاد يحصل الإضراب الذي به يكون خراب هذا الكون. ولهذا فإن دعوة الولد أو صاحبة الله جل جلاله من شتم الله والإشراك به سبحانه ولهذا فقد نزه سبحانه نفسه عن ذلك كله في قوله: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنْثَىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ مريم. وقد صح عن عبد الله بن عباس وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن الله قال: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَّنِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ؛ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَرَعَمَ آيِّي

لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لِي وَلَدٌ، فَسُحَّانِي أَنْ اتَّخَذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا!. وفي رواية أخرى: أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ (صحيح البخاري).

ومما ينافي عدل الله الكوني والشرعي أيضا اتباع الهوى بدلا من إقامة الحق ونصرته كما في قوله تعالى: وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^ج بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ المؤمنون. يقول السعدي في تفسيره: ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض، لفساد التصرف والتدبير المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل [1].

ومن ذلك أيضا نقصان البركة بسبب المعاصي كما في قوله تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ الروم. فقد ورد في تفسير القرطبي أن ابن عباس قال: هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا [هـ]. وجاء في تفسير ابن كثير أن زيد بن رفيع قال: (ظهر الفساد) يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط، وعن البحر تعمى دوابه [هـ].

ومن ذلك أيضا الكفر بأنعم الله كما في قوله تعالى: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ النحل. وقوله تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا^ط فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا^ط وَكَانَ نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ القصص. وجاء في تفسير ابن كثير معنى ذلك أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق [هـ]. وسيأتي توضيح أسباب هذا العذاب في

بيان حال الأمم مع الحق والميزان.

2.9 المراد بالعلم والميزان

إن المراد بالعلم عموماً هو المعرفة وله أقسام وأنواع ويمكن تقسيمه إلى قسمين وهما: العلم الكوني والعلم الشرعي. فالعلم الكوني ينقسم إلى علم ظاهر وهو العلم السببي وعلم غير ظاهر وهو العلم الغيبي. وقد أقسم سبحانه وتعالى بالعلم الكوني كله الظاهر والغير ظاهر في قوله تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ الخافه. وجاء في تفسير الطبري أن ابن عباس رضي الله عنه يقول في معنى هذه الآية: بما ترون وبما لا ترون ﴿٣﴾.

وأما العلم الشرعي فهو ما قام عليه الدليل كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. وقد عرفه السعدي رحمه الله فقال: العلم هو معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها. والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل ﴿١﴾. وبهذا يكون العلم الشرعي الصحيح هو ما قام عليه الدليل من كتاب الله عز وجل أو سنة نبيه ﷺ أو الإجماع، والعلم الشرعي الغير صحيح هو ما لم يقيم عليه الدليل أو خالفه أو خالف الإجماع، ومن ذلك كل البدع والمحدثات كما بين ذلك النبي ﷺ في حديثه: إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ (صحيحه الألباني في وجوب الأخذ بحديث الآحاد). وينقسم العلم الشرعي إلى علم فطري وعلم ديني.

والعلم من حيث النفع إما علم نافع وإما علم غير نافع بحسب حال صاحبه (أي حامله). وقد نقل الإمام الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء أن الإمام الشافعي قال: ليس العلم ما حفظ، إنما العلم

ما نفع [8]. فالعلم النافع هو العلم الذي ينتفع به في الدنيا أو في الآخرة أو كلاهما ولا يترتب عليه ضرر في الآخرة. ومن العلم الذي ينتفع به في الدنيا كعلم الحديد، والطب، والحساب، وينتفع به في الآخرة أيضا لو أريد به وجه الله تعالى ونفع المسلمين وهذا خير إلى خير كما بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله. والعلم الذي ينتفع به في الآخرة هو العلم الذي يورث خشية الله والعمل الصالح وإن لم يكن علما شرعيا، ولكن العلم الشرعي الصحيح هو من أعظم أسباب الهداية إلى معرفة الله وحقه وحق عباده علينا المعرفة التي تورث خشية الله وطاعته ولهذا يأتي لفظ العلم بالإطلاق على العلم الشرعي. وقد قال تعالى: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ فاطر. وقد جاء سياق الآية في التدبر في آيات الله الكونية كنزول المطر من السماء وتنوع الثروات والجبال والناس والدواب من الماء الواحد فدل ذلك على أن العبرة ليس بكثرة العلم ولكن العبرة بمعرفة الله المعرفة التي تورث الخشية والعمل الصالح مع الإقرار بأن هذا الكون هو من صنع العزيز العليم الذي هو على كل شيء قدير. ولهذا فقد جاء في تفسير ابن كثير عن معنى ذلك عن ابن عباس قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير، وعن ابن مسعود أنه قال: ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية. وهذا لأن الخشية تكون عن علم بالله وصفاته تعظيما وإجلالا له سبحانه فتورث تقوى الله ولهذا فقد قال تعالى: وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ النور.

وقد كان النبي ﷺ يرغب في العلوم النافعة بالعموم وأمر أصحابه بالدعاء فقال: سَلُوا اللَّهَ علما نافعاً، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ (صححه الألباني في السلسلة). وكان النبي ﷺ يدعو بذلك فقال: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ علماً نافعاً وأعوذُ بك مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ (صحيح ابن حبان). وقال النبي ﷺ: مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ (صحيح مسلم). وهذا لا يكون إلا للعلم الذي يورث خشية الله والعمل الصالح. ومن الأمثلة على العلم النافع هو العلم الشرعي الذي يورث صاحبه خشية الله فيعمل

به ليكون حجة له يوم القيامة. ومن العلم النافع أيضا علم التسيير للاستدلال بالنجوم الثابتة في السماء فينتفع صاحبه به في الدنيا في معرفة الطريق، وينتفع صاحبه به في الآخرة لو أرشد غيره في الطريق لوجه الله كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: ودَلَّ الطَّرِيقَ صَدَقَهُ ﴿15﴾. ¹⁴ ويكون العلم بالنجوم نافعا في الآخرة أيضا لو أورث صاحبه العمل الصالح مع خشية الله والتدبر في آياته الكونية ومعرفة عظمة الخالق سبحانه وتعالى.

ومن الأمثلة على العلم الغير النافع كعلم السحر الذي لا يورث إلا الكفر بالله والشرك به. ومن العلم الغير نافع أيضا العلم الشرعي الذي لا يورث صاحبه خشية الله فلا يعمل به ويكون حجة عليه يوم القيامة. قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ خُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ الجمعة. ولقد جاء في تفسير ابن كثير: يقول تعالى ذاما لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، فلم يعملوها بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبنا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملا حسيا ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظا ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: (أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ﴿14﴾. فالعلم الشرعي لا يكون نافعا في حق حامله إلا إذا عمل به وأراد به الآخرة. فإن أراد به دنيا كان ذلك غير نافع له فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: من تعلَّم علماً مما يُبْتَغى به وجهُ اللهِ عزَّ وجلَّ، لا يتعلَّمهُ إلا ليصيبَ به عَرَضًا من الدُّنيا لم يجدْ عَرَفَ الجَنَّةَ يومَ القيامةِ، يعني ربحها ﴿6﴾. ¹⁵ وهذا لأن العلم

¹⁴ صحيح البخاري: 2908

¹⁵ سنن أبي داود: 3664، وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

الشرعي في أصله عبادة والعبادة يشترط فيها الإخلاص لله جل جلاله. وأما علوم الدنيا فهي ليست عبادة في أصلها ولا يشترط فيها الإخلاص إلا إذا أراد صاحبها الانتفاع بها في الآخرة. وهذا يكون العلم السببي نافعا لصاحبه ولو أراد به الدنيا فينتفع به ولا يؤثر عليه في الآخرة. ويكون نافعا في الدنيا والآخرة إذا احتسب فيه صاحبه لينفع غيره به. ويكون غير نافع في حق حامله إذا شغله عن آخرته. ولهذا فالعلم الغير نافع هو العلم الذي يتضرر منه في الآخرة ولو نفع في الدنيا. فالعلم الذي يلهي عن الآخرة وعن أداء الفرائض والواجبات قد ينفع صاحبه في الدنيا ولكن لا ينفعه في الآخرة وإن كان علما مباحا أو مطلوبا في أصله.

وأما الميزان فالمراد به العدل، وفي اللغة هو الإنصاف، والإنصاف، والإعتدال، والتوسط، والإستقامة، والتسوية في الحقوق، ومنه الحساب ولهذا سماه الخوارزمي الجبر والمقابلة. ولهذا يكون المراد بالميزان بالنسبة للمعرفة هو العمل بعد المعرفة. ويقام الميزان بأداء الحقوق وبموافقة العمل للمعرفة، ويخس الميزان ويطغى عليه بإضاعة الحقوق وبمخالفة العمل للمعرفة. وأقسام الميزان كأقسام العلم، ويمكن تقسيمه إلى ميزان كوني وميزان شرعي. فالميزان الكوني ينقسم إلى الميزان السببي والميزان الغيبي. وأما الميزان الشرعي فهو ينقسم إلى الميزان الفطري والميزان الديني.

والميزان الشرعي تابع للعلم الشرعي وهو ما قام عليه الدليل. ويقام الميزان الشرعي بالحكم بالحق وإتباعه والعمل به، والحق هو العلم الشرعي الصحيح وهذا يكون بأداء حق الله بإخلاص مع أداء حق الناس بالقسط وهذا ما كلفنا الله به بحسب القدرة. والميزان بمعناه المعنوي العام هو العدل. وقد عرف السعدي العدل فقال: العدل هو أداء حقوق الله وحقوق العباد. والظلم عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دماءهم وأموالهم وأعراضهم [1]. وأما الميزان الكوني فقد تكفل به الله ووضعه جل جلاله في يده على صورة مخلوق لتدبير الكون بالقسط أي

العدل الظاهر. والله جل في علاه يضع الميزان الشرعي بعد الصراط في صورته الحسية (أي في صورة مخلوق) لحساب المكلفين من الجن والإنس. والله قائم على الميزان الكوني بالقسط وسيقوم على الميزان الشرعي بالقسط يوم الحساب في حكمه الجزائي، وهذا لحكمته وتماه عدله سبحانه ومن ذلك ليكون عدله نافذا في الميزان الشرعي كما في الميزان الكوني.

وعلى ما تقدم، فإن كان المراد المعرفة قيل العلم وإن كان المراد العمل بعد المعرفة قيل الميزان. وفيما يأتي بيان أقسام العلم والميزان واقتصرت التسمية على الميزان فقط لتشمل المعرفة والعمل معا. ولكن نفس التقسيم والشرح ينطبق على العلم أيضا.

2.10 أقسام الميزان الكوني

2.10.1 الميزان السبيي

فالقسم الأول هو الميزان السبيي أو العلم السبيي وهو علم ظاهر يدرك بالعقل والفطرة وما من الله به على خلقه من حواس كالبصر والسمع والإحساس. فالميزان السبيي فيه حقيقة الأشياء ومسمياتها وطريق الوصول إليها ومسبباتها. ولهذا كان علم الحساب مفتاحا للعلم السبيي الذي يمكن إدراك أسبابه. والمخلوقات تتفاوت في المعرفة بهذا الميزان كل بحسب حاله ومقامه ولكن الله جل جلاله أختص الإنسان وفضله على سائر الخلق بأن جعل له عقلا يدرك به من الأسباب وحقيقتها ومسمياتها ما لا يمكن لغيره من المخلوقات. وهذا لأن الله جل جلاله أراد بحكمته أن يجعله خليفة في الأرض فخلقته على صورته وجعل له من العقل والذكاء ما لم يعطي غيره. وهذا ما فضل الله جل جلاله به آدم على الملائكة وهو تفضيل في المعرفة السببية فأمرهم بالسجود له بسجود التحية والإحترام وليظهر فضله على

سائر الخلق وهذا لحكمته سبحانه وعلمه كما في قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ البقرة.

فأما الملائكة فاعترفوا بهذا الفضل وبأنهم لا علم لهم إلا ما علمه الله لهم ولكن هذا النقص في العلم السببي لم يمنعهم من الطاعة والإنقياد لأمر الله جل جلاله. وأما إبليس فقد حسد آدم في الصورة التي خلق بها وعلى ما من الله به عليه من العلم والقدرة المعرفية التي استحق بها هذا الثناء والتقدير. ولهذا فما كان للشيطان إلا أن يقول مستكبرا أنه خيرا منه خلق من نار وآدم من طين حسدا منه وكفرا. وهذا فيه جهل إبليس حيث أنه نسب الفضل لمجرد نوع مادة الخلق والقوة الطبيعية لا للعلم والقدرة المعرفية التي من الله بها على آدم عليه السلام. فما كان له إلا أن يسعى لإضلاله وإخراجه من الجنة حسدا منه على هذه الفضائل ولو كان ذلك على حساب هلاكه وسوء مثاله. وهذا أيضا فيه نقص العقل وسوء الفكر نسأل الله السلامة والعافية. ولم يكتفي بذلك بل أخذ العهد على نفسه لإغواء وإضلال كل ذرية بني آدم كما حذرنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم.

وبالمعرفة بهذا الميزان السببي لا زالت تتقدم الحضارات الإنسانية وتطور في الأخذ بالأسباب لإنجاز ما لم يكن ممكنا لما سبق من الأمم من التكنولوجيا وشتى العلوم كالفيزياء والكيمياء والطب، والذكاء الاصطناعي وغيرها من العلوم الأخرى التي بها يمكن تحصيل المصالح الدينية والدنيوية.

ومفتاح كل هذه العلوم هو علم الحساب حيث به تعرف مقادير الأشياء وتقديرها ولهذا فقد أمر الله تعالى بتعلمه من الآيات الكونية كما تقدم. ولهذا فإن الميزان السبيي يحتاج إلى بحث وتمعن في آيات الله الكونية، وما يخفى منه على الإنسان أكثر مما يعلم لهذا قال جل جلاله في ذلك عندما سئل الرسول ﷺ عن حقيقة الروح: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء. وهذا فيه أن الروح لا يمكن قياسها ولا عدّها وهي ليست من الميزان السبيي وإنما هي من الميزان الغيبي.

ولهذا فقد ذكر جل جلاله تقدم البشرية من الأقوام السابقة في هذا العلم السبيي ولكن هذا التقدم كان سببا في زيادة الغفلة ظنا منهم أن العلم السبيي يغني عن العلم الشرعي ولهذا قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ غافر. وقال تعالى: يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ الروم. وجاء في تفسير السعدي بيان ذلك أن هؤلاء الذين لا يعلمون أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها. وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فينظرون إلى الأسباب ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئا، فهم واقفون مع الأسباب غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. (وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشاق إليها ولا النار تخافها وتحشاها ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة. ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الأبواب. وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا وأعجبوا بعقولهم ورأوا غيرهم

عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم وأشدهم غفلة عن آخرتهم وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون وفي ضلالهم يعمهون وفي باطلهم يترددون نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون. ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها و[ما] حرموا من العقل العالي فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده وإن هو إلا توفيقه وخذلانه تخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأثمرت الرُّقيَّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بنيت كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير] [1]. وهذا فيه البيان الكافي في أن الطريق الواضح والسليم للرقى بالحضارة بما يرضي الله لا يكون إلا بالأخذ بالعلم الشرعي مع العلم السببي النافع والتوجه إلى الله بالتوحيد والإخلاص والتقوى والعمل الصالح. وهذا ما يجب على الإنسان أن يعمل به ويعمل على تحقيقه ويتوكل على الله في ذلك كله.

ومن الأمثلة على تقدم الأمم السابقة في العلم السببي (ولو بالنسبة لقريش والعرب) والذي كان سبباً لتكبرها وتجبرها على أمر الله الشرعي وكفرها بالأنبياء والرسل هم عاد قوم هود عليه السلام حيث قال تعالى فيهم: وَلَقَدْ مَكَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّاهُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ الأحقاف. وهذا فيه أن الله جل جلاله يسر لعاد أسباب التمكين في الدنيا على نحو لم يمكن به غيرهم من العرب وكفار قريش كما جاء في عدة تفاسير. إلا أن هذا التمكين لم يكن سبباً لهدايتهم رغم ما كان لهم من سمع وأبصار وقلوب ولكنهم كفروا واستهزؤا بأمر الله فغضب الله عليهم وأنزل عليهم عذابه. وهذا الأمر قد تكرر مع العديد من الأقوام السابقة كما في قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ

أَهْلَكَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا
الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ الْإِنْعَامُ. وقوله تعالى:
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ
وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ تِمًّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
﴿٩﴾ الرُّومُ. فهذه هي سنة الله ودأبه في الأمم السابقين التي كذبت رسلها كما سيأتي بيان ذلك في
حال الأمم مع الحق والميزان.

وأما الجن فلم يكن لهم التقدم في الحضارة وهذا لنقص عقولهم في إدراك العلم السبيي. ولهذا كان
كل الأنبياء والرسل من البشر فهم أكل عقلاً وأعلى فكراً وأعظم علماً. وهذا لأن الجن لا يدركون
من الأسباب ما يمكن للبشر إدراكه ومن ذلك ما بينه جل جلاله في قوله عن الجن: فَلَمَّا قَضَيْنَا
عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةَ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ۚ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ
الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ سبأ. حيث أنهم خدموا سليمان عليه السلام وهو ميت ظناً
منهم أنه حيا. فلم يدركوا بعقولهم الناقصة أنه إذا لم يتحرك لفترة طويلة من الزمن فقد مات، وهذا
ما يستطيع إدراكه العاقل بل وحتى الطفل من البشر بسهولة. وقد جاء في تفسير السعدي بيان ذلك
أن الجن كانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات، فأراد
الله تعالى أن يري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فكثروا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على
سليمان عليه السلام، واتكأ على عصاه، وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حيا،
وهايوه. فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم
تزل ترعاها، حتى باد وسقط فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن
(لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا

موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلوا مما هم فيه [1].

وكل هذا فيه البيان من الله جل جلاله للناس أن الجن ليس فقط لا يعلمون الغيب بل هم أنقص عقلا وإدراكا وإن كانوا أكثر قوة بطبيعة مادة خلقهم وهي النار. إلا أن الإنسان قادر على إدراك الأسباب التي تمكنه من التفوق على الجن في القوة بالعلم السببي، ومن ذلك قصة عرش بالقيس حيث قال تعالى مخبرا عن سليمان عليه السلام: قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَفْرِتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ^ط وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ^ج فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ^ط وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَظْكُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ النمل. وقد جاء في تفسير السعدي أن هذا الذي عنده علم من الكتاب هو رجل عالم صالح عند سليمان يقال له: "آصف بن برخيا" كان يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به أجاب وإذا سأل به أعطى، بأن يدعو الله بذلك الاسم فيحضر حالا وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم هل هذا المراد، أم أن عنده علما من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد [1]. والأقرب والله أعلى وأعلم أن آصف رحمه الله كان لديه هذا العلم السببي الذي به يقرب البعيد ولهذا فقد نسب جل جلاله فعله للعلم وهو العلم السببي ولم ينسب فعله لإيمانه أو دعائه كما هو الحال مع سائر الأنبياء مثل ينوس عليه السلام في قوله تعالى: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّبُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ الأنبياء. وهذا العلم الذي كان لدى آصف يسمى علم التنقل الآتي للمحسوسات وإلى زماننا يبدو هذا العلم مستحيلا إدراكه إلا أنه يبقى علم سببي قد يدركه الإنسان إن علم أسبابه الموصلة إليه. ومن المعلوم أنه الإنسان في زماننا قد تمكن من تحقيق التنقل الآتي لغير المحسوسات كالصوت والصور وكافة البيانات الرقمية وغيرها من الأشياء المستخدمة في وسائل الاتصال التي كانت تبدوا مستحيلة في

الماضي القريب. فلك أن تتأمل في الأسباب الموصلة لهذا العلم العظيم الذي إن أدركه المسلمون لسبقوا كل الأمم والحضارات وكتب لهم التمكين إن أقاموا الحق والميزان مع الأخذ بهذا السبب العظيم.

ولقد رغب النبي ﷺ أصحابه في العلم السببي الذي به يقاتل الأعداء ومن ذلك علم الرمي لحاجة المسلمين له فقال: مَنْ عِلِمَ الرَّيِّ، ثُمَّ تَرَكَهُ، فَلَيْسَ مِنِّي، أَوْ قَدْ عَصَى (صحيح مسلم، وصححه الألباني). ومن العلوم النافعة أيضا علم الفيزياء والكيمياء التي بها يعرف سلوك المواد وأسبابها للاستفادة منها والإنتنفاع بها كالحديد فقد قال تعالى عنه: وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ الْحَدِيدِ. ولقد بين ذلك السعدي رحمه الله في تفسيره فقال: وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قل أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد [1]. ومن فضل الله ومنه على عباده أنه يفتح على من يشاء من هذا العلم السببي لعباده الصالحين القائمين بالميزان الشرعي فجعل لهم من أسباب التمكين ما يعجز عليه غيرهم وهذا لحكمته سبحانه، كما فتح على ذي القرنين وعلى داود وسليمان عليهما السلام وعلى آصف رحمه الله وعلى نبينا محمد ﷺ وعلى الصالحين من بعده من أصحابه رضي الله عنهم إلى زمان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ومن بعده هارون الرشيد رحمه الله وما سيأتي في آخر الزمان في عهد المهدي المنتظر وعيسى عليه السلام، وسيأتي بيان وتفصيل كل ذلك في فصل الحكم الرشيد.

2.10.2 الميزان الغيبي

أما القسم الثاني فهو الميزان الغيبي أو العلم الغيبي وهو علم غير ظاهر لا يعلمه بالكلية ولا يملك مفاتيحه إلا الله جل جلاله كما في قوله تعالى: وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

﴿٥٩﴾ الأنعام. وقد أخبر النبي ﷺ عن عدد هذه المفاتيح فقال: مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ، ثُمَّ قَرَأَ: (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ) (صحيح البخاري). فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة كما في قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ الحشر. ولهذا فإن الله جل جلاله ينسب علم الغيب لنفسه ولا يعلمه أحد من خلقه إلا بمشيئته سبحانه كما قال تعالى: وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (البقرة). ولهذا من علم الغيب ما أذن الله بمعرفته ومنه ما لم يأذن سبحانه بمعرفته والدليل على هذا قوله تعالى: عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ الجن. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي (صحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة). وهذا فيه أن الله جل جلاله عنده علم لم يأذن بمعرفته لأحد من خلقه وهو العلم الذي استأثر به في علم الغيب عنده.

ومن الأمثلة على العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته كعلم موعد وقوع الساعة كما في قوله تعالى: يَسْأَلُ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَيْهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ الأحزاب. ولقد صح عن النبي وهو أشرف الناس أنه قال لجبريل هو أشرف الملائكة عن الساعة عندما سأله: فَمَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ (صحيح البخاري). ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه ببيان هذا الأمر وهو العلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته في قوله تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ الأنعام. وقوله تعالى: قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ

وأما العلم الغيبي الذي أذن الله بمعرفته فنه ما علمه الله لأتبياءه ورسله بالوحي ومن ذلك الكتب المنزلة التي فيها من القصص الفائدة كما في قوله تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ هود. وغير ذلك من الأخبار الفائدة كفترة مكوث أهل الكهف وعددهم، وقصص الأنبياء عليهم السلام. ومن ذلك أيضا الأحداث القادمة كما في قوله تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ سبأ. وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تخبر بالأمر التي تحدث في المستقبل وفي آخر الزمان كنزول عيسى عليه السلام، وخروج الدابة، وإنهيار سد ذي القرنين، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج الشمس من مغربها. فكل ما سبق فيه الدليل الواضح على أن الله سبحانه وتعالى أذن بمعرفة بعض العلم الغيبي لمن شاء من خلقه ولم يأذن بمعرفة بعضه الآخر. والعلم الغيبي الذي لم يأذن الله بمعرفته أكثر مما علم الخلق كما في قوله تعالى: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء.

وعلم الغيب الذي أذن الله بمعرفته هو علم نسبي يتفاوت الخلق بمعرفته كل بحسب ما أضره الله له وأذن له أن يعلم، فنه ما يدركه الإنسان دون غيره إن علم أسبابه، ومنه ما يدركه الجن دون الإنسان، ومنه ما يدركه الدواب دون الجن والإنس، ومنه ما تدركه الملائكة دون الجن والإنس وسائر الدواب الأخرى. فمن ذلك ما تحفظ به الزوجة الصالحة زوجها عند غيابه فهذا بالنسبة له علم غيبي كما في قوله تعالى: فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ (النساء). ومن ذلك أن الإنسان لا يرى الجن حيث قال تعالى: إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ (الأعراف). فدل ذلك أن الجن لهم بعد لا يراه الإنسان وهو البعد المكاني الرابع والذي يُمَكِّنهم من رؤية الإنس ويوجب الإنس عن رؤيتهم لأن

الإنس لا يرون إلا الأبعاد المكانية الثلاثة. ولقد تبث بالحساب أن من كان لديه القدرة على الوصول لأبعاد مكانية أعلى، كانت له القدرة على الظهور والتشكل وإحتراق ما دونها من الأبعاد عند طريق ذلك البعد. وهذا فيه أن الجن لهم القدرة على التشكل بصور مختلفة في الأبعاد الثلاثة وإحتراقها وذلك لوجودهم في البعد الرابع. ولهذا كان للشياطين القدرة في الدخول في أجساد الإنس واتخاذ مجرى الدم فيها طريقا كما صح عن النبي ﷺ: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم (صحيح أبي داود وصححه الألباني). ومن ذلك أن الشياطين من الجن لهم القدرة على مس الإنس بمشيئة الله وقد شبه الله تعالى أكل الربا بذلك فقال جل في علاه: الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ (البقرة). والأدلة في تشكل الشياطين من الجن كثيرة ومنها قصة أبو هريرة رضي الله مع الشيطان الذي أمسكه في صورة إنس في رمضان وكان يسرق الطعام من زكاة الفطر فقال له النبي ﷺ: تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليالٍ يا أبا هريرة؟ قلت: لا، قال: ذاك الشيطان (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا الجنابة فقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً، قَالَتْ: قَدِمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ، قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعَقَ (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا عذاب القبر فقد حجب عن الجن والإنس دون سائر الدواب ولهذا قال النبي ﷺ: فيضربُ بها ضربةٌ يسمعُها ما بينَ المشرقِ والمغربِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ (أخرجه أبو داود وصححه الألباني). ومن ذلك أيضا أن الثقلين لا يسمعان الملائكة التي تنادي وقت الشروق والغروب كل يوم حيث قال النبي ﷺ: ما طلعت شمس قط إلا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يُسْمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُّوا إِلَى رَبِّكُمْ، فَإِنْ مَا قُلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مَّا كَثُرَ وَأَهَى، وَلَا آتَ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يُسْمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، أَلْهَمَ أُعْطِيَ مَنْفَقًا خَلْفًا، وَأَعْطِيَ مُمْسَكًا مَالًا تَلْفًا (صححه الألباني في السلسلة الصحيحة).

ومن ذلك أيضا ذهاب الشمس للسجود تحت العرش كل يوم عند غروبها كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال: حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنُ، فَيُؤْذَنُ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنُ فَلَا يُؤْذَنُ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَالشَّمْسُ تَحْجِي رِجْلَ الْمُسْتَقَرِّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) [يس: 38] (صحيح البخاري). وكل هذا فيه أن الثقلين من الإنس والجن يحجب عنهم العديد من الأمور الغيبية.

ومن الأمور التي حجب عن الإنس والجن هي الروح فهي من العلم الذي لا يدركه لا الإنس ولا الجن ولا سائر الدواب الأخرى ولهذا فقد قال تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء. ولكن يدركه من المخلوقات ملك الموت الموكل بالروح ولهذا قال تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ السجدة. وهذا فيه أن الملائكة يصلون إلى أرواح الجن والإنس وسائر ذوات الأرواح الأخرى فدل على قدرتهم للوصول إلى البعد الثالث والرابع وما فوقها من الأبعاد إلى ما شاء الله كل بحسب ما وكلهم الله به. ولهذا فإن للملائكة القدرة أيضا على الظهور في البعد الرابع البعد الخاص بالجن كما رأى إبليس دون غيره من الإنس الملائكة الذين جاؤوا مددا للمسلمين كما في قوله تعالى: وَإِذْ زَيْنَ لُحْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ الأنفال. والملائكة لهم القدرة أيضا على التشكل في صور مختلفة في الأبعاد الثلاثة كما جاء ذلك في قوله تعالى عن جبريل عليه السلام: فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ مريم. ومن ذلك أيضا أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة رجل كما صح ذلك عن عمر بن الخطاب أنه قال: بينما نحن عند

رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثيابِ، شديدُ سوادِ الشعرِ، لا يُرى عليه أثرُ السفرِ ولا يعرفه منا أحدٌ، حتى جلس إلى رسولِ الله، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على خفيه، ثم قال: يا محمدُ أخبرني عن الإسلام؟ الحديث، إلى أن قال النبي ﷺ: يا عمرُ هل تدري من السائلُ قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: فإنه جبريلُ عليه السلام أتاكم ليعلمكم أمرَ دينكم (صحیح النسائي، صححه الألباني). وقد صح عن أبو هريرة وأبو ذر أنهم رأوا هذا الرجل أي جبريل عليه السلام في صورة الصحابي دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه لحسن صورته. فسألوا النبي ﷺ عن ذلك فقال لهم: إنه لجبريلُ عليه السلام نزل في صورة دحية الكلبي (صحیح النسائي، صححه الألباني). وكان جبريل يخاطب النبي من بعده فيكشف نفسه للنبي ﷺ فيراه ولا يراه غيره ومن ذلك ما صح عن عائشة أم المؤمنين أَنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهَا: يَا عَائِشَةُ هَذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، فَقَالَتْ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا أَرَى، تُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صحیح البخاري).

ومن الأمور الغيبية التي أذن الله لنبيه رؤيتها كالأموال الغيبية التي في الجنة من البعد المكاني أَنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنَبْرِ فَقَالَ: إِنِّي فَرَطُكُمْ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، إِنِّي وَاللَّهِ لَا نَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ خَزَائِنَ مَفَاتِيحِ الْأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا. الراوي: عقبة بن عامر | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 3596 | خلاصة حكم المحدث: [صحیح]

كالأموال الغيبية في المستقبل من البعد الزماني وفي الجنة من البعد المكاني كما جاء في المرأة التي كانت تَلْقُطُ الْقَذَى مِنَ الْمَسْجِدِ فَنُفِيتْ، فقال النبي ﷺ فيها: إِنِّي رَأَيْتُهَا فِي الْجَنَّةِ (حسنه المنذري في الترغيب والترهيب، وذكر بمعناه الألباني في السلسلة الضعيفة). ومن ذلك أيضا أخبار النبي ﷺ برويته لبعض

المشركين في النار ومن ذلك قوله ﷺ: رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرٍ الْخُزَاعِيَّ يَجْرُ قُصْبُهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَبَّ السُّيُوفَ (صحيح مسلم). ومن ذلك أن النبي

ومن المعلوم أن العلم الغيبي لا يمكن إدراكه بالكلية بالعلم السببي وإنما يدرك منه فقط ما أذن الله بمعرفته فأظهره وجعل أسبابه وعلامته واضحة ومنظمة لكل عاقل لما في ذلك من مصالح دينية ودنيوية. فمثلاً يتنبأ بالمطر من الغيم الأسود، وبالإنباج من علامات الحمل، وبنهاية الشهر بمنازل القمر، وبطلوع الزرع بعد نزول المطر، وبطريق السير من سير النجم، وغير ذلك من الأسباب التي جعلها الله دلالات واضحة على ما ستؤول إليه الأشياء والأحوال في المستقبل ولو على وجه التقريب. وهنا يأتي علم الحساب حيث به تحسب المقادير والأوزان والأحجام والأشكال والألوان والأصوات والحركات والأمكنة والأزمنة وغير ذلك من الأشياء التي تعرف بها الأسباب والقوانين التي جعلها سبحانه في هذا الكون. وتتفاوت هذه الأمور في إمكانية حسابها فمنها ما يستحيل حسابه كالساعة سواء الكبرى أو الصغرى، ومنها ما يصعب حسابه كالمطر، ومنها ما يسهل ويعرف حسابه كأيام الشهر وساعات اليوم.

فكل هذه الأسباب مرجعها للعلم السببي ويدرك بها فقط جزء من العلم الغيبي الذي أذن الله به ومثال ذلك أن ذي القرنين بخرته بأسباب الحديد علم أن مثال سده إلى الإنهيار لما علمه من تأكل الحديد كما في قوله تعالى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. ومن ذلك أيضاً علم التفسير الذي به يتنبأ بالمكان والزمان لمعرفة الطريق باستخدام مواضع النجوم كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ الأنعام. وقد فسر السعدي ذلك أن الله جعل النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصلحتهم، وتجاراتهم، وأسفارهم. منها: نجوم لا تزال

ترى، ولا تسير عن محلها، ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات. ودلت هذه الآية ونحوها، على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تتمكن إلا بذلك [1]. وكل هذا فيه الدلالة الواضحة على قدرة الله جل جلاله وعظيم سلطانه، ولهذا فقد بين جل جلاله عظم مواقع النجوم فقال تعالى: فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ الواقعة. وقد جاء في تفسير الطبري عن قتادة ومجاهد أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها، ولقد أول ذلك ابن عباس وعكرمة ومجاهد أن مواقع النجوم هي آيات القرآن نزلت متفرقة.¹⁶

ولهذا فإن التنبأ بالمستقبل بالحساب لا يكون دائماً صحيحاً أو دقيقاً وبالأخص في الأمور التي يصعب حسابها، فأمر الله الواقع قد يجب عن خلقه لحكمته ومثال ذلك قوم هود إذ ظنوا أن الغيم الأسود علامة للمطر كما هو معتاد ولكنه كان عذاب الله كما في قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمְطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهِ فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاحِكَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ الأحقاف. لهذا فإن الوقائع المستقبلية يختلف حسابها بحسب ما أذن الله بعرفته ومعرفة أسبابه ومقاديره، فالتى لا تخضع لنمط معين ومعروف لا يمكن التنبأ بها إلا على وجه التقريب. وتزداد دقة الحساب مع الزيادة في معرفة هذه الأسباب والمقادير والتي تتأق بالبحث والتجربة والقياس والملاحظة وكل ذلك ممكن بالرجوع لآيات الله الكونية التي منها يتعلم الحساب.

ومن فضل الله ومنه أنه اختص بهذا العلم الغيبي من شاء من أنبياءه ورسله كل حسب حاله

¹⁶ ولقد رجح الطبري القول الأول وهو أن مواقع النجوم هي منازلها ومساقطها في السماء، وهذا بخلاف القول الثاني أن مواقع النجوم هو نزول آيات القرآن متفرقة، وإن كان القول لا يتعارض بالضرورة.

ومقامه. ومن ذلك ما فتح الله به على الخضر عليه السلام حيث علم من الأمور الغيبية ما لم يعلمه موسى عليه السلام. فكان الخضر عليه السلام أعلم من موسى في العلم الغيبي وكان موسى عليه السلام أعلم من الخضر في العلم الديني، وكل منهما كان نبيا ويأتيه الوحي من الله جل جلاله ولكن تفاوتوا في نوع العلم والفضل فوسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل وكلم الله موسى تكليماً، فكل بحسب مقامه وما فضله الله به كما في قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ الْبَقَرَة.

وقد جاء في تفسير بن كثير عن بن عباس أن النبي ﷺ قال أن موسى قال للخضر: جئتك لتعلمني مما علمت رشداً. قال: يكفيك التوراة بيدك، وأن الوحي يأتيك. يا موسى، إن لي علماً لا ينبغي لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغي لي أن أعلمه.¹⁷ وقال بن عباس رضي الله عنه عن الخضر عليه السلام أنه كان رجلاً يعلم علم الغيب قد علم ذلك - فقال موسى: بلى. قال: (وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً)؟ أي: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم [هـ]. وجاء أيضاً ما يؤكد هذا المعنى في تفسير القرطبي: وعلمناه من لدنا علماً أي علم الغيب، وقال ابن عطية: كان علم الخضر علم معرفة بواطن قد أوحيت إليه، لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم [هـ]. وبينما الخضر وموسى عليهما السلام على السفينة، جاء عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ، فَفَرَّ فِي الْبَحْرِ نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الْخَضِرُ: مَا عَلَيَّ وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا مِثْلُ مَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ (صحيح البخاري).¹⁸

¹⁷ وهذا فيه أن الخضر لديه من العلم الغيبي الذي لا يعلمه موسى وأن موسى لديه من العلم الديني الذي لا يعلمه الخضر.

¹⁸ وهذا فيه أن الإنسان لم يؤت من العلم إلا قليلاً كما تقدم في معنى قوله تعالى: وَنَسْأَلُكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء.

وكل هذا فيه أن الخضر علم ما ستؤول إليه الأمور بما علمه الله له من علم الغيب فعلم بذلك أن السفينة لو لم تعاب لأخذها الملك غضبا من المساكين، وأن الغلام لو لم يقتل فسوف يرهق أبواه المؤمنين طغيانا وكفرا، وأن الجدار لو لم يقام لسقط ولسرق كنز الغلامين اليتيمين أبناء الرجل الصالح. وما تصرف الخضر في هذه الأمور إلا لعله أن جميع هذه الأمور سيقع في علم الغيب كما أوحى الله إليه ذلك. ولكن من رحمة الله ومنه فقد أذن للخضر أن يصلح ذلك ولهذا فقد قال: وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ الكهف. وبهذا يتبين أن الخضر إنما أوتي هذا العلم العظيم لمصلحة الناس وليس للإضرار بهم أي للإصلاح الدنيوي وهذا فيه بيان الرشد والذي به تجلب المصالح الدينية والدنيوية معا. وهذا ما أراد موسى تعلبه لهذا: قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ الكهف. وهذا فيه أن المصالح الدنيوية لا تجلب فقط بالعلم الديني الذي به يكون الإصلاح الديني بل إن ذلك يتطلب العلم الذي به يكون الإصلاح الدنيوي ولهذا فقد قال الخضر عليه السلام: قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ الكهف. وهذا فيه أن الخضر عليه السلام اختص بالإصلاح الدنيوي مع ما كان لديه من الإصلاح الديني بينما موسى عليه السلام اختص بالإصلاح الديني فقط. وفيه أيضا أنه بالعلم والخبرة تجلب المصالح الدنيوية وبالعلم الديني تجلب المصالح الدينية وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الحكم الرشيد بإذن الله. وفي هذه القصة بيان تدبير الله جل جلاله فإنه يعلم سبحانه ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون فسيحان الله الذي وسع كل شيء وأحاط به علما.

2.11 أقسام الميزان الشرعي

2.11.1 الميزان الفطري

فالميزان الفطري أو العلم الفطري فهو الذي يدرك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل والتي فطر الله الناس عليها فيعرف به الخير من الشر والعدل من الظلم والإسلام من الكفر وغير ذلك من الأمور التي فطر الله الناس عليها والدليل على هذا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يمجسانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَيْهَمَةُ بَيْهَمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) [الروم: 30] الآية (صحيح البخاري). ومن الأمور التي تخالف الميزان الفطري مثل الشرك (وبالأخص شرك الربوبية) والمجاهرة بالمعاصي والقتل والواط والسرقه والغش في الكيل فهي أمور تدرك بالفطرة السليمة الموافقة للعقل ويمكن إثباتها لكل ذي عقل حتى بدون وحى. ومن ذلك أن أغلب الأمم مسلمة كانت أو كافرة اتفقت على فرض عقوبات على السرقه والغش على سبيل المثال موافقة ذلك للفطرة السليمة.

ولهذا فإن مخالفة الميزان الفطري هي أشد جرماً من مخالفة الميزان الديني لأنها تعارض فطرة الله التي فطر الناس عليها والتي يمكن إدراكها حتى بدون وحى. ويعتبر الميزان الفطري أدنى مراتب العدل وفي معارضة هذا الميزان تعجيل سخط الله وعقوبته في الدنيا قبل الآخرة. والميزان الفطري ناقص وهو أدنى مرتبة من الميزان الديني حيث لا يمكن به إدراك العديد من الأمور الشرعية التي يحتاج إلى الوحي لإدراكها ومنها العقيدة والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي لا يمكن إدراكها بالفطرة السليمة فقط. ولهذا فقد أرسل الله جل جلاله الرسل وأنزل الكتب لبيان الميزان الديني والذي به يكتمل بيان الميزان الشرعي الذي أمر الله عباده به.

والميزان الفطري فيه الحجة لإدراك دين الإسلام لموافقته الفطرة كما سيأتي في بيان الميزان الديني. فقد جاء في الحديث القدسي عن الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاءً فاجتالهم الشياطينُ فخرمتُ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً (صحيح، مجموع الفتاوى لابن تيمية). ولهذا فإن الشياطين لا تسعى لإفساد الميزان الديني فقط وإنما تسعى لإفساد الميزان الفطري والديني معا كما في قوله تعالى عن ابليس: وَلَا ضِلَّكُمْ وَلَا مَنِيعٌ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَخْذِ الشَّيْطَانُ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ النساء. وقد جاء بيان ذلك في تفسير السعدي أن الله تعالى خلق عباده حنفاءً مفطورين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك والكفر والفسوق والعصيان. فإن كل مولود يولد على الفطرة ولكن أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد من توحيده ووجهه ومعرفته. فافترستهم الشياطين في هذا الموضع اقتراس السبع والذئباب للغنم المنفردة، نفسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخبيثة والصفقة الخاسرة. ولولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين [1].

وقد جاء في تفسير ابن كثير أن ابن عباس قال: أتى علي زمان وأنا أقول: أولاد المسلمين مع أولاد المسلمين، وأولاد المشركين مع المشركين. حتى حدثني فلان عن فلان: أن رسول الله ﷺ سئل عنهم فقال: "الله أعلم بما كانوا عاملين". فأمسكت عن قولي [هـ]. وهذا فيه أن ابن عباس أمسك عن قوله بفصل أولاد المسلمين عن أولاد المشركين في اللعب عندما علم قول الرسول ﷺ أن أولاد المشركين أيضا على الفطرة السمحة التي فطر الله الناس عليها. وهذا ما يوافق باقي الأحاديث والآيات كما تقدم.

وجاء أيضا في تفسير ابن كثير عن الفطرة أنه لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس

في ذلك [هـ]. وبهذا يعلم أن المكلفين قد تساوا في الميزان الفطري عند نشأتهم وهذا من عدل الله إذ أعطاهم سبحانه الفطرة السليمة الموافقة للعقل حتى يدركوا بذلك الميزان الديني. ولكن هذه الفطرة قد تفسد فيضل صاحبها عند البلوغ فإن شاء الله هداه وإن شاء أزاغه وكل ذلك بهداية الله الكونية. ونقل هذا المعنى القرطبي في تفسيره عن شيخه أبو العباس قوله: قال شيخنا في عبارته: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للبرئيات والمسموعات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحق ودين الإسلام وهو الدين الحق. وقد دل على صحة هذا المعنى قوله: كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء يعني أن البهيمة تلد ولدها كامل الخلقة سليما من الآفات، فلو ترك على أصل تلك الخلقة ل بقي كاملا بريئا من العيوب، لكن يتصرف فيه فيجدع أذنه ويوسم وجهه، فطراً عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل؛ وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع ووجهه واضح [هـ]. فرحم الله علماء قرطبة من الأندلس الأسبانية الذين بينوا هذا المعنى العظيم.

2.11.2 الميزان الديني

وأما القسم الثاني من الميزان الشرعي فهو الميزان الديني أو العلم الديني وهو موافق للميزان الفطري ومكمل له. ويدرك العلم الديني بالوحي بالمنزل من عند الله تبارك وتعالى على الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. ولهذا فقد أثبت سبحانه موافقة دينه للفطرة التي فطر الناس عليها في قوله تعالى: فَاقِمِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ الروم. وهذه فيه أن الميزان الديني الذي أنزله الله كان ولا يزال موافقاً للفطرة ومكملاً لها وهو دين الإسلام الذي أرسلت به كل الرسل والأنبياء عليهم الصلاة

والسلام من آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ.

ومن الأمور التي تخالف الميزان الديني مثل الشرك (وبالأخص شرك الألوهية)، ومنع الزكاة، والحكم بغير ما أنزل الله كتحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله وغير ذلك من الأمور التي تخالف أمر الله ورسوله والتي يمكن إدراكها بالوحي المنزل وبالجملة الواضحة والبينة إستنادا إلى جاء في كتاب الله عز وجل، أو صح في سنه نبيه الكريم، أو ثبت عن سبيل المؤمنين من السلف الصالحين.

ولهذا فقد أمر الله عز وجل جميع الأنبياء لدعوة المشركين لعبادة الله وحده لا شريك له (أي إلى توحيد الألوهية) وإقامة الحجة عليهم بالميزان الفطري أي بإيمانهم بأن الله هو من خلقهم وخلق السموات والأرض وهو مدير الكون (أي بإيمانهم بتوحيد الربوبية) كما في قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ الزمر. وفي قوله تعالى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ الزخرف. فوصف الله جل جلاله هؤلاء بأن أكثرهم لا يعقلون في قوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ العنكبوت. ووصفهم جل جلاله أيضا بأنهم لا يعلمون في قوله: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لقمان. ؛ أولا لا يعقلون لمخالفتهم الميزان الفطري الموافق للعقل وثانيا لا يعلمون لمخالفتهم الميزان الديني وهو أمر الله المنزل من عنده.

ولهذا فقد بين ذلك إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر كما في قوله تعالى: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا

أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ مريم. فحاجه أولا بالميزان الفطري الذي يقام بالحجة العقلية على بطلان عبادة ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر، وحاجه ثانيا بالميزان الديني الذي يقام بالعلم الديني الصحيح المنزل من الله تبارك وتعالى وهو الوحي الموافق للفطرة والمكمل لها. وبين له الحكم الجزائي للشرك الموجب لعذاب الله فأقام عليه بذلك الحجة الكاملة والواضحة.

والعلم الديني هو ما قام عليه الدليل من كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ وهو الحق وهو الهدى الذي يهدي إلى الطريق المستقيم الذي يرضي الله جل جلاله ولهذا فقد قال النبي ﷺ: تركتُ فيكم أمرين؛ لن تضلُّوا ما إن تمسَّكُمُ بهما: كتابَ الله وسُنَّتِي، ولن يتفرَّقا حتَّى يردا عليَّ الحوضَ (صحيح الترغيب). وقد ضرب النبي ﷺ مثلا عن نفسه في بيان العلم الديني الذي جاء به فقال: مثلُ ما بعَّني الله به من الهدى والعلم، كمثلي الغيثُ الكثيرُ أصابَ أرضًا، فكانَ منها نقيَّةٌ، قِيلَتِ الماءُ، فأنبتتِ الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانتَ منها أجادِبٌ، أمسكتِ الماءَ، فنفعَ الله بها النَّاسَ، فشرَّبوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصابَتِ منها طائِفَةٌ أُخرى، إنَّما هي قيعانٌ لا تمسكُ ماءً ولا تَتْنِبُ كَلأً، فَذلكَ مثلُ من فقهَ في دينِ الله، ونفعه ما بعَّني الله به فعِلِمَ وعِلْمَ، ومثلُ من لم يرفعْ بذلكَ رأسًا، ولم يقبلْ هدىَ الله الذي أُرسلْتُ به (صحيح البخاري).

وخير هذا العلم هو القرآن كتاب الله فقد قال النبي ﷺ: إنَّ أَفْضَلَكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ (صحيح البخاري). وقد كان ﷺ يعلم أصحابه القرآن ويدعو لهم فعن عبد الله بن عباس قال: ضَمِنِي إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، وَفِي رِوَايَةٍ: اللَّهُمَّ عَلَيْهِ الْحِكْمَةُ (صحيح البخاري). وقد كان النبي ﷺ يرغب أصحابه في حفظ كتاب الله عز وجل فقال: لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ عَلِمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَتْلُوهُ آتَاءَ اللَّيْلِ، وَآتَاءَ النَّهَارِ، فَسَمِعَهُ جَارُهُ، فَقَالَ: لَيْتَنِي أُوتِيتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ،

فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَهْلِكُهُ فِي الْحَقِّ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَبَّيْني أَوْتَيْتُ مِثْلَ مَا أُوتِيَ فُلَانٌ، فَعَمِلْتُ مِثْلَ مَا يَعْمَلُ (صحيح البخاري).

ولقد كلف سبحانه عباده بالإجتهاد بهذا العلم مع العمل يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ النساء يا أيها الذين آمنوا كونوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ المائدة وعدم التقليد فيه وحجة لك أو عليك فقال جل جلال: وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ الأحزاب

والعلم الديني نافع وحجة لصاحبه مع العمل الموافق لأمر الله الشرعي، وغير نافع وحجة على صاحبه مع العمل المخالف لأمر الله الشرعي. ومن أعظم العمل المخالف لأمر الله للرياء كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسْعَرُ بهم النار يوم القيامة. وقال ابن رَجَب: (أول من تُسْعَرُ به النار من الموحِّدين العبَّاد المُرَّوِّون بأعمالهم، أوْهُمْ العالم والمجاهد والمتصدِّق للرياء؛ لأنَّ يسير الرياء شركٌ) (كلمة الإخلاص). وقال ابن القيم: إِنَّ النَّارَ أَوَّلُ مَا تُسْعَرُ به العالم والمنفق والمقتول في الجهاد إذا فعلوا ذلك ليقال (زاد المعاد). يقول الشيخ العثيمين رحمه الله في ذلك: لا بدَّ من العمل بالعلم؛ لأنَّ ثمرَةَ العلم العمل؛ لأنَّه إذا لم يعمل بعلمه صار من أول من تُسْعَرُ بهم النار يوم القيامة، وقد قيل: وعالمٌ بعلمه لم يعملنْ مُعَذِّبٌ من قَبْلِ عِبَادِ الوَتَنِ، فإذا لم يعمل بعلمه أُوْرثَ الفشل في العلم وعدم البركة ونسيان العلم؛ لقول الله تعالى: فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِفَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ الرد [هـ].

والناس يتفاوتون في هذا العلم الشرعي، وحتي الصحابة رضوان الله عليهم وما ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ النمل حيث قال: أي علمت ما لم تعلمه من الأمر فكان في هذا رد على من قال: إن الأنبياء تعلم الغيب

[٠] وفي الآية دليل على أن الصغير يقول للكبير والمتعلم للعالم: عندي ما ليس عندك، إذا تحقق ذلك وتيقنه. هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع علمه لم يكن عنده علم بالاستئذان. وكان علم التيمم عند عمار وغيره، وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالوا: لا يتيمم الجنب. وكان حكم الإذن في أن تنفر الحائض عند ابن عباس ولم يعلمه عمر ولا زيد بن ثابت. وكان غسل رأس المحرم معلوما عند ابن عباس وخفي عن المسور بن مخرمة. ومثله كثير فلا يطول به.

والعلم الديني هو العلم الذي يرفع قبل قيام الساعة كما ثبت عن عبد الله بن مسعود وأبو موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ أَيَّامًا، يُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَنْزَلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْحَرْجُ وَالْهَرْجُ: الْقَتْلُ (صحيح البخاري). وفي حديث آخر عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ: أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيُثَبَّتَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا (صحيح البخاري). وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ، وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ، وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ - وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ - حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ (صحيح البخاري). وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: لَا تَقُومُ السَّاعَةُ وَإِمَّا قَالَ: مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزِّنَا، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ حَتَّى يَكُونَ لِلْخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقِيمُ الْوَاحِدُ (صحيح البخاري). وعن عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بَقْبُضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا، فَسَلُّوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا (صحيح البخاري). وهذا فيه أن العلم الذي يرفع إنما هو العلم الديني وليس العلم السببي.

2.12 الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب

أرسل الله عز وجل رسله بالكتاب أولاً لبيان الحق وهو العلم الشرعي الصحيح ومن ثم لإقامة الميزان الشرعي بالقسط والعدل بين الناس حيث يقول جل جلاله: لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ الحديد. فالكتاب هو الحق كما في قوله تعالى: وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ البقرة. والقسط في الكيل والوزن والعدل بين الناس من إقامة الميزان الشرعي وهو من الأمور التي أوصى الله تعالى بها. وقد دلنا سبحانه في هذه الآية على الحديد والأخذ به لنصرة الله جل جلاله ورسله ونصرة الحق الذي جاءوا به.

وقد جاء في تفسير الطبري: عن قتادة (الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) قال: الميزان: العدل [٠] وقال ابن زيد، في قوله: (وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) بالحق؛ قال: الميزان: ما يعمل الناس، ويتعاطون عليه في الدنيا من معاشهم التي يأخذون ويعطون، يأخذون بميزان، ويعطون بميزان، يعرف ما يأخذ وما يعطي. قال: والكتاب فيه دين الناس الذي يعملون ويتركون، فالكتاب للآخرة، والميزان للدنيا. وقوله: (لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) يقول تعالى ذكره: ليعمل الناس بينهم بالعدل. وقوله: (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ) يقول تعالى ذكره: وأنزلنا لهم الحديد فيه بأس شديد، يقول: فيه قوة شديدة، ومنافع للناس، وذلك ما ينتفعون به منه عند لقاءهم العدو، وغير ذلك من منافع [٠] وقوله: (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ) يقول تعالى ذكره: أرسلنا رسلنا إلى خلقنا وأنزلنا معهم هذه الأشياء ليعدلو بينهم، وليعلم حزب الله من ينصر دين الله ورسله بالغيب [هد].

وجاء في تفسير ابن كثير: (وأُنزلنا معهم الكتاب) وهو: النقل المصدق (والميزان) وهو: العدل قاله مجاهد، وقتادة، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة [٠] ولهذا قال في هذه الآية: (ليقوم الناس بالقسط) أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا به، فإن الذي جاءوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق، كما قال: (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) [الأنعام: 115] أي: صدقا في الإخبار، وعدلا في الأوامر والنواهي ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات، والمنازل العاليات، والسرر المصفوفات: (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق) [الأعراف: 43]. وقوله: (وأُنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أي: وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجّة عليه [٠] ولهذا قال تعالى: (فيه بأس شديد) يعني: السلاح كالسيوف، والحراب، والسنان، والنصال، والدروع، ونحوها (ومنافع للناس) أي: في معاشهم كالسكة، والفأس، والقدوم، والمنشار، والإزميل، والمجرفة، والآلات التي يستعان بها في الحراثة، والحياكة، والطبخ، والخبز، وما لا قوام للناس بدونه، وغير ذلك. [٠] وقوله: (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) أي: من نيته في حمل السلاح نصرته الله ورسله، (إن الله قوي عزيز) أي: هو قوي عزيز، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليلو بعضكم ببعض [هـ].

وفي هذا دليل على أن نصرته الله ورسله تكون بثلاثة أمور وهي: (1) إقامة الحق في نفوس الناس بالعلم الشرعي الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بين الناس بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب والفيزياء وغيرها من العلوم السببية التي تكمن للمسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرته. وهذه الأمور الثلاثة هي أركان الحكم الرشيد التي بها يكون التمكين كما سيأتي بيان ذلك في فصل الحكم الرشيد.

فإنَّه جل جلاله أنزل كتابه لتحقيق هذه الغاية العظيمة وهي إقامة الحق والميزان الشرعي كما بين ذلك في قوله تعالى: اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ الشورى. فذكر الله الميزان إلحاقاً بالحق لأن الحق لا يكون إلا بالعلم الشرعي الصحيح وهو يقتضي الميزان الشرعي الذي لا يكون إلا بالعمل الصحيح الموافق للحق ومنه العدل والقسط كما أمر تعالى ومن ذلك بلا شك الحساب الصحيح. فإقامة الميزان الشرعي من الوصايا العشر من سورة الأنعام في قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ الأنعام. فقرن الله عز وجل في هذه الآيات بين الكيل والميزان والعدل في القول والوفاء بالعهد. وفيه أن الميزان والكيل لا يكون إلا بالقسط وهو العدل الظاهر. وفيه أن العدل ذكر مع ذا القربى ولذلك يكون العدل بين الناس. وأيضا من الوصايا التي ذكرها الله في سورة الإسراء في قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ الإسراء. يقول السعدي في تفسيره: وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكيال والموازين بالقسط من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى النبي عن كل غش في ثمن أو مئتمن أو معقود عليه والأمر بالنصح والصدق في المعاملة [1]. ومن ذلك بلا شك الحساب ولذلك وجب الوفاء والصدق فيه من غير غش ولا تضليل وإقامة الميزان فيه بالقسط كما في الكيل.

وإقامة الحق تكون بالعلم الشرعي الصحيح بيانه والعمل به في النفوس وفيه صلاح الآخرة وإقامة الميزان تكون بالعدل فيما بين النفوس وفيه صلاح الدنيا. ولهذا فقد قال ابن القيم رحمه الله: «أصل كل خير في الدنيا والآخرة هو العلم والعدل، وأصل كل شر في الدنيا والآخرة الجهل والظلم [هـ] (إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان)».

2.13 تفاوت الرسل في العلم والفضل ودعوتهم واحدة

لا شك أن الأنبياء والرسل قد تفاوتوا في العلم والفضل والدليل قوله تعالى: تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ ^ط وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ^ج وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَنُهِمُ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ البقرة. وقوله تعالى: وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ^ط وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ الإسراء. ومن أمثلة ذلك ما تقدم في التفاوت في العلم والفضل بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام.

ولكن جميع الرسل دعوتهم واحدة وهي الدعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن أعظم ذلك الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما في قوله تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ^ط فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿٣٦﴾ النحل. وقوله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ الأنبياء. وهذه الدعوة إنما هي دين الإسلام الذي أرسل الله به جميع الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وهذا فيه أن الدعوة إلى الإسلام واحدة وهي دعوة إلى توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات والعبادات والأحكام الشرعية وغيرها من الأمور التي تدعو إليها الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ الشورى.

وبهذا يتبين أنه لا يمكن التفریق أو التفضیل بین دعوة الرسل فدعوتهم واحدة كما قال جل جلاله: قُولُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ البقرة. وقال تعالى: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ البقرة.

ولهذا فقد نهى النبي ﷺ عن التفضيل بينه وبين الأنبياء على سبيل الاستنقاص أو على وجه التعصب أو التفریق أو التفاخر لما في ذلك بطر للحق ومن أعظم ذلك عدم إرجاع هذا الفضل لله تبارك وتعالى والذي بيده هذا التفضيل كما تقدم دليل ذلك، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْزِضُ سِلْعَةً لَهُ أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا، كَرِهَهُ -أَوْ لَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ: لَا، وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ، قَالَ: فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، قَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا؟! قَالَ: فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، وَقَالَ: فَلَا لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمْ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟ قَالَ: قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَالَّذِي اصْطَفَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْبَشَرِ، وَأَنْتَ بَيْنَ أَظْهَرِنَا! قَالَ: فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: لَا تَفْضِلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ يَنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ آخِذٌ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحْوَسَبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى عَلَيْهِ السَّلَامُ (صحيح مسلم، وصححه الألباني). وفي رواية أخرى: لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَفِيقُ، فَإِذَا مُوسَىٰ بَاطِشٌ فِي

جانب العرش، فلا أدري أكان مَنْ صُعِقَ فأفاق قبلي، أو كان مَنْ اسْتَنْتَى الله عَرَّ وجلَّ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني).

فهذا النبي جاء لأنه لم يكن لبيان فضل الله على أنبياءه ورسله بما فضلهم الله به وإنما كان على سبيل الإستنقاص أو التعصب أو التفريق أو التفاخر أو غير ذلك من الأمور التي تعارض ما جئوا به كأنما دعوتهم ليست بواحدة وهذا بخلاف التفضيل الذي فاضل الله به بين أنبياءه ورسله والذي فيه عدل الله تبارك وتعالى حيث اثبت سبحانه التفاوت بينهم في العلم والفضل ونفى التفريق بينهم في الدعوة. وبهذا يكون المعني الصحيح لقوله ﷺ (لا تفضلوا بين أنبياء الله) أي لا تفضلوا بين أنبياء الله تفضيلاً يخالف التفضيل الذي فاضلهم الله به. وكذلك يقال بين نبينا ﷺ وبين موسى عليه السلام أو بين نبينا ﷺ وبين يونس عليه السلام. والله أعلى وأعلم.

2.14 الإصلاح وأنواعه

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد. والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية [1].

قد تقدم معنا تفاوت الأنبياء في العلم والفضل ولكن دعوتهم واحدة وهي دعوة إلى إقامة الحق والميزان ومن ذلك عبادة الله وحده لا شريك له. وهذه الدعوة تحتاج إلى إصلاح الناس وهذا الإصلاح يكون بالعلم النافع والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا الإصلاح

يكون إما إصلاح ديني أو إصلاح دنيوي أو كلاهما ومثال ذلك قصة موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام. فالخضر عليه السلام اختصه الله بعلم الغيب للإصلاح الدنيوي وأما موسى عليه السلام فاختصه الله بالعلم الديني للإصلاح الديني. فكان للخضر الرشد والذي فيه الإصلاح الديني والدنيوي معا وكان لموسى الحكمة التي فيها الإصلاح الديني فقط. بينما فضل الله جل جلاله موسى عليه السلام في الفضل والعلم لما كان معه من العلم والحكمة في أمر الله الشرعي.

فالإنباء جاءوا بالحق والميزان لحكمة الله عز وجل ومن ذلك الإصلاح الديني والدنيوي. ولكن أغلب الرسل اختصهم الله جل جلاله للإصلاح الديني لأن الإصلاح الديني فيه صلاح العباد والذي به تدرك مصالح الدنيا والآخرة ومن ذلك الصدق والأمانة وغيرها من الخصال التي توافق الفطرة والدين وتعود بالنفع الديني والدنيوي. إلا أن العديد من المنافع الدنيوية الأخرى لا تدرك بالعلم الديني فقط وإنما تدرك بالعلم السببي كعلم الطب والهندسة وغيرها من العلوم النافعة التي ينتفع بها الناس في أمور دنياهم وآخرتهم. وقد من الله سبحانه وتعالى على كل البشر فجعل لهم كل ما يحتاجونه من عقل وفطرة لإدراك هذا العلم السببي كما تقدم بيانه.

ومن ذلك أن الله اختص النبي ﷺ بالعلم الشرعي للإصلاح الديني وليس بالعلم السببي ومن ذلك ما رواه العديد من الصحابة رضوان الله عليهم في قصة تلقيع النخل، ومنها أن أنس بن مالك قال: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يَلْقَحُونَ، فَقَالَ: لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلَحَ قَالَ: فَخَرَجَ شَيْبًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: مَا لِنَحْلِكُمْ؟ قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ (صحيح مسلم). وحديث طلحة بن عبيد الله حيث قال: مَرَرْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقَوْمٍ عَلَى رُؤُوسِ النَّخْلِ، فَقَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالُوا: يَلْقَحُونَهُ؛ يَجْعَلُونَ الذَّكَرَ فِي الْأُنْثَى فَيَلْقَحُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَظُنُّ يَغْنِي ذَلِكَ شَيْئًا، قَالَ: فَأَخْبَرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ، فَأَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ، فَقَالَ:

إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ؛ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنْ اللَّهِ شَيْئًا، نَحْذَرُوا بِهِ؛ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (صحيح مسلم). وحديث رافع بن خديج حيث قال: قَدِمَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَهُمْ يَأْبُرُونَ النَّخْلَ، يَقُولُونَ: يَلْقَحُونَ النَّخْلَ، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُونَ؟ قَالُوا: كُنَّا نَصْنَعُهُ، قَالَ: لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْرًا، فَتَرَكُوهُ، فَفَضَّتْ -أَوْ فَتَقَصَّتْ- قَالَ: فَذَكُّوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، نَحْذَرُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ (صحيح مسلم).

وكل ما تقدم فيه أن نبينا ﷺ أقر لهم بأنهم أعلم بأمور دنياهم أي بالعلم السببي لهذا فقد قال: (إن كان ينفعهم ذلك فَلْيَصْنَعُوهُ)، وفرق عليه ﷺ بين أمر الله جل جلاله الذي به يكون الإصلاح الديني وبين أمور الدنيا التي بها يكون الإصلاح الدنيوي. فجعل كلامه ﷺ في أمور الدنيا ظن وقال: (لَا تُؤَاخِذُونِي بِهِ) ولكن كلامه في أمر الله حق. وبين النبي ﷺ أنه بشر يخطئ ويصيب في أمور الدنيا كغيره من البشر ولهذا قال: (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ، نَحْذَرُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ). وهذا من تواضعه وصدقه ﷺ فهو الصادق الأمين الذي لا يكذب على الله ولا على الناس عليه الصلاة والسلام.

ولقد قال جل جلاله في كتابه: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ فَنَ كَانَ رِجَوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾ الكهف. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك: أي قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم لا علم لي إلا ما علمني الله وإن الله يوحى إلي أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك (فَنَ كَانَ رِجَوا لِقَاءَ رَبِّهِ) يقول: فمن يخاف ربه يوم لقائه، ويراقبه على معاصيه، ويرجو ثوابه على طاعته (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا) يقول: فليخلص له العبادة، وليفرد له الربوبية

[هـ].

2.15 الحكمة والرشاد

ذكر جل جلاله الحكمة والرشاد في مواضع مختلفة في كتابه الكريم. فالحكمة فيها الإصلاح الديني بالعلم الشرعي الصحيح الموافق للحق وفيها العمل الموافق للميزان الشرعي. وأما الرشد فهو أعم ومنه الحكمة بالإضافة إلى العلم بالأسباب والأخذ بها، أي أن الرشد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط أو الإصلاح الديني فقط أو كلاهما معا. فالرشد الديني هي الهداية التي بها تجلب المصالح الشرعية، ويطلق الرشد أيضا على الأمور التي بها تجلب المصالح الدنيوية مثل العلم السببي. فيكون بذلك الرشد الكامل يشمل إقامة الحق بالعلم الشرعي الصحيح وإقامة الميزان بالعدل والعلم بالأسباب والأخذ بها. ولا يلزم أن الرشد أفضل من الحكمة على وجه الإطلاق وإنما التفاضل يرجع للعلم والعمل بأمر الله الشرعي.

ج
ولقد اختص جل جلاله من خلقه من يشاء بالحكمة فقال سبحانه وتعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ البقرة. وقد ذكر السعدي في تفسيره: لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكأن العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل

الأمر منازلتها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الأبواب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الأبواب، فلماذا قال تعالى: (وما يذكر إلا أولو الأبواب) [1].

ومن رحمة الله جل جلاله أنه جعل نبينا الكريم ﷺ معلما لأمته لهذه الحكمة فقال جل جلاله: كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ البقرة. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه تعالى يذكر عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، يتلو عليهم آيات الله مبینات وزكّیهم، أي: يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهي السنة [هـ]. وقال السعدي أن معنى (وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ) أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، (وَالْحِكْمَةَ) قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلتها. فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلا في تعليم الكتاب، لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتعتبر عنه [1].

وأما الرشد قد يكون بمعنى الإصلاح الديني فقط وهو الهداية لإتباع الحق كقوله تعالى: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾. ومعنى يرشدون أي: يهتدون فيحصل لهم الرشد الديني الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة كما جاء في تفسير السعدي. وأيضا قوله

تعالى: وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ غافر. وجاء معنى هذا في تفسير الطبري أي: إن اتبعتموني فقبلتم مني ما أقول لكم، يثبت لكم طريق الصواب الذي ترشدون إذا أخذتم فيه وسلكتموه وذلك هو دين الله الذي ابتعث به موسى. وكل هذا من الإصلاح الديني والهداية. ويأتي الرشد أيضا بمعنى الإصلاح الديني فقط كقوله تعالى: قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ الكهف، وهذا لأن موسى عليه السلام كان لديه الإصلاح الديني وهو أعلم من الخضر عليه السلام في ذلك. ويأتي الرشد أيضا بمعنى الإصلاح الديني والديني معا كقوله تعالى: إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رُشْدًا ﴿١٠﴾ يونس، وهذا فيه أولا صلاح الدين حيث أن الله جل جلاله هداهم وزادهم هدى، وثانيا صلاح الدنيا حيث جعل سبحانه وتعالى لهم حفظ البدن مع طول الفترة المكوث في الكهف فرارا من قومهم. وكال الرشد لا يدركه الإنسان بسهولة لأنه يتطلب الجمع بين العلم الشرعي والعلم السبيي معا وهذا الأمر يعطيه الله لمن شاء من عباده ولهذا فقد أمر جل جلاله نبيه الكريم ﷺ فقال: وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رُشْدًا ﴿٢٤﴾ الكهف. وقال السعدي في تفسيره: فأمره أن يدعو الله ويرجوه، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد. وحي بعد، تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشد، أن يوفق لذلك، وأن تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره [1].

والرشد إن جمع مع الهداية يكون بمعنى الإصلاح الديني، وتكون الهداية بمعنى الحكمة والتي بها يكون الإصلاح الديني. ولهذا فإن نبينا الكريم ﷺ بدأ بالإصلاح الديني وسمى الخلفاء من بعده بالخلفاء الراشدين حتى يقوموا بالإصلاح الديني والديني معا حيث قال ﷺ: عَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ خُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ مِنْ بَعْدِي (صححه الألباني). وفي رواية أخرى: المهديين الراشدين (صحيح الجامع، صححه

2.16 مكانة أهل العلم الشرعي

إن أهل العلم الشرعي هم القائمين بالإصلاح الديني وهم الذين يأمرون الناس بالقسط فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فهم أعلم الناس بالحق كما في قوله تعالى: وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ سبأ. وهذا لأن الحق يهدي إلى الطريق المستقيم كما ذكر تعالى في هذه الآية وفي قوله تعالى: وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ الحج. فأهل العلم الشرعي يبينون للناس الحق الذي جاءت به الرسل والأنبياء ساعين إلى الهداية الشرعية للناس وراحين لهم الهداية الكونية من الله جل جلاله. وقد جعل الله جل جلاله أهل العلم حجة على الناس لما معهم من الحق فكانوا بذلك هم ورثة الأنبياء في الأرض فقد قال تعالى: قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ الإسراء. وقوله تعالى: بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يُجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ العنكبوت.

ولهذا فقد رفع الله مكانة أهل الإيمان وأهل العلم في الدنيا والأخرة لما عرفوا من الحق كما في قوله تعالى: يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ المجادلة. ومن أعظم ذلك قوله تعالى: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ آل عمران. يقول السعدي في تفسيره: هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم [١٠] وأما شهادة

أهل العلم فلائهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصا في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبينوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلا، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائلون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهداه تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه [1].

ومن أعظم المنكر قتل الأنبياء أو الذين يأمرون الناس بالقسط القائمين بالإصلاح الديني أو الإصلاح الدنيوي أو كلاهما. ولهذا فقد قال جل جلاله ذمه لأهل الكتاب لبيان هذا الجرم العظيم في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن هؤلاء الذين أخبر الله عنهم في هذه الآية، أشد الناس جرما وأي: جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد ويقتلون أنبياء الله الذين حقهم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيرهم، وتوقييرهم، ونصرهم وهؤلاء قابلوهم بضد ذلك، ويقتلون أيضا الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى المأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنايات المتكررات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح [1].

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس (صحيحه الألباني في السلسلة الصحيحة). وفي زيادة: وليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجلين كما تأرز الحية إلى جحرها (غريب أوردته ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر الخبر). وفي رواية: الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي (قال الألباني ضعيف جداً).

عن أنس رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله متى تترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم السابقة وفي رواية في بني إسرائيل قالوا يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا قال الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذلتكم (حسنه السخاوي والوادي وضعفه الألباني).

فالأمر بالمعروف واجب على كل مسلم إلى أن يشاء الله.

2.17 حال الأنبياء وأتباعهم مع الميزان الشرعي

ولما كان الأنبياء أعلم الناس بأمر الله وأحرصهم، فقد أقاموا الميزان الشرعي حتى إقامته في حكمهم الرشيد بين الخلق. ومثال ذلك يوسف عليه السلام في قوله تعالى: قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ^ط إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾ يوسف. وهذا فيه حرصه عليه السلام على إقامة الكيل والوزن بما يرضي الله

وهذا من الإصلاح الذي أمر الله به حيث قال لإخوته عن الكيل: وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَنْعَامِكُمْ مِنْ أَكْبَرِهِمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ يوسف.

فلا شك أن التفريط في الكيل والوزن من أعظم البلايا التي حذرنا الله عز وجل منها في كتابه الكريم فيقول تعالى: وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ المطففين. فالظلم في الكيل والوزن من الإفساد العظيم ومن أسباب تعجيل العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وفي قصة مدين مع نبيهم شعيبا العبرة الواضحة في ذلك. يقول تعالى على لسان نبيه شعيب محذرا قومه: وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ سَرِينٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ الأعراف. وفي موضع آخر من سورة الشعراء: أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ الشعراء. وفي سورة هود: وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّقُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ هود. وهذا فيه أن شعيبا عليه السلام دعا قومه لإقامة الحق أولا وهو التوحيد بإفراد الله بالعبادة وثانيا لإقامة الميزان الشرعي وهو الكيل والوزن بالقسط. وفيه أن يخس الناس أشياءهم وانخسران والتقصان في الكيل والوزن من الظلم والفساد الموجب لسخط الله وعذابه العاجل.

ونبينا ﷺ كان من أحرص الناس في إقامة الكيل والميزان وحذر من الفساد في ذلك في العديد من المواضع منها ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ: «إِنَّكُمْ قَدْ وَلِيتُمْ أَمْرَيْنِ هَلَكَتَ فِيهِمَا الْأُمَمُ السَّابِقَةُ قَبْلَكُمْ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ. وقد علم الصحابة والتابعين بأهمية إقامة الميزان والمكيل وأن الفساد فيهما من أسباب سخط الله ومنه ما ورد في كتاب الموطأ للإمام مالك عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ سَعِيدَ بْنَ الْمُسَيَّبِ، يَقُولُ إِذَا جِئْتَ أَرْضًا يُوفُونَ الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ فَاطْلُبِ الْمَقَامَ بِهَا وَإِذَا جِئْتَ أَرْضًا يَنْقُصُونَ الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ فَأَقْلِلِ الْمَقَامَ بِهَا.

2.18 حال الأمم مع الحق والميزان الشرعي

من عدل الله جل جلاله أن سنته في خلقه من الأمم السابقة واللاحقة ثابتة كما قال تعالى: سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ الأحزاب، أي أن سنة الله لا تبدل ولا تغير كما جاء في تفسير ابن كثير. والتفاوت في العقوبة أو التمكين أو الهوان للأمم السابقة أو اللاحقة في الدنيا كل بحسب حاله وما يستحقه بما شاء الله جل جلاله بعدله أو رحمته أو حكمته. وحال الأمم في الدنيا، سواء كانت كافرة أو مسلمة، يدور مع الحق والميزان في خمسة أحوال من الأشد عقوبة إلى الأهون عقوبة، أو من الأقل تمكيناً إلى الأكثر تمكيناً، أو من الأكثر هواناً إلى الأقل هواناً:

• الدولة الكافرة الظالمة الهالكة

• الدولة المسلمة الظالمة

• الدولة الكافرة الظالمة

• الدولة الكافرة العادلة

• الدولة المؤمنة العادلة

وهذا الترتيب فيه تقديم الميزان على الحق في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة. وهذا لأن الله جل جلاله قدم في الدنيا المصلحة العامة التي تكون بين الناس على المصلحة الشخصية التي تكون في النفس، فجعل سبحانه إقامة الميزان أي العدل بين الناس والإصلاح فيما بينهم في الدنيا مقدما على إقامة الحق في نفوس الناس. وهذا لأنه بالعدل في الدنيا تحفظ الأموال والأعراض والدماء، فلا تصلح الحياة إلا بالإصلاح الذي يكون بالعدل والدليل على هذا قوله تعالى: وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهِلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ هود. وقد جاء في تفسير الطبري أن معنى ذلك أن الله جل جلاله لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله. وذلك قوله "بظلم" يعني: بشرك، (وأهلها مصلحون)، فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطون الحق (أي العدل) بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا [هـ]. وأدنى هذا العدل هو العدل الموافق للفطرة أي الميزان الفطري. وجاء أيضا تفصيل ذلك في تفسير القرطبي أن معنى وأهلها مصلحون أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق؛ أي لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب بخس المكيال والميزان، وقوم لوط باللواط؛ ودل هذا على أن المعاصي أقرب إلى عذاب الاستئصال في الدنيا من الشرك، وإن كان عذاب الشرك في الآخرة أصعب [هـ]. فكل هذا فيه أن مخالفة الميزان أهلك في الدنيا من مخالفة الحق، وأن مخالفة الميزان الفطري على وجه الخصوص بالظلم والفساد والمعاصي من أسباب تعجيل سخط الله وعقابه في الدنيا قبل الآخرة.

ومن ذلك ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ

وَالْإِسْلَامُ [٠] وَذَلِكَ أَنَّ الْعَدْلَ نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فَإِذَا أُقِيمَ أَمْرُ الدُّنْيَا بِعَدْلٍ قَامَتْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِصَاحِبِهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمَتَى لَمْ تَقُمْ بِعَدْلٍ لَمْ تَقُمْ وَإِنْ كَانَ لِصَاحِبِهَا مِنَ الْإِيمَانِ مَا يُجْزَى بِهِ فِي الْآخِرَةِ (مجموع الفتاوى 28/146). وقد قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في توضيح هذا المعنى: ذلك لأنَّ الظلم هو سبب خراب البلاد وهلاك العباد، فإذا كانت الأمة أو الدولة كافرة ولكنها تحكم بالعدل فيما بينها، هذا العدل الذي يعرفه الناس بفطرتهم، فإذا كانوا يحكون بذلك فستقوم دولتهم وتستمر مدة طويلة، والتاريخ يحفل بهذا [هـ]. وقال الشيخ ابن باز رحمه الله في ذلك: مع الظلم والفساد في الأرض تعمّ العقوبات، ولا تستقيم الدولة على ذلك، وإنما تستقيم على العدل، دولة عادلة وإن كانت كافرة تستقيم معها أحوال رعيّتها، ودولة ظالمة وإن كانت مسلمة تختلُّ بها الأمور، ولا تنتظم بها الأمور، وقد تحصل الشُّعْناء والعداوة والفتن، نسأل الله العافية [هـ].

ولقد بين رسولنا الكريم ﷺ خطر مخالفة الميزان الشرعي على الحاكم والمحكومين وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني. وجاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسول الله، ما للخليفة من بعدك؟ قال: مثل الذي لي، ما عدل في الحكم، وقسط في القسط، ورحم ذا الرحم، فمن فعل غير ذلك فليس مِنِّي ولستُ منه (صحيح، تخریج سنن أبي داود، وصححه الألباني). وهذا فيه أن الله أوجب على الحاكم العدل في الحكم وأن النبي ﷺ تبرأ من الحاكم الظالم. وعن عبد الله بن عمر، قال أقبل علينا رسول الله - ﷺ - فقال «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتَلَيْتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يَعلُنُوا بِهَا إِلَّا فُشِيَ فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أَخَذُوا بِالسِّنِينَ وَشَدَّةِ الْمُؤْنَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مَنَعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يَمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُصُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضُ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكَمْ أَمْتُهُمْ يَكْأَبِ اللَّهُ وَيَخَيِّرُوا مِمَّا أُنْزَلَ

اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بِأَسْمِهِمْ يَنْهَاهُمْ». (أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني). فكل ما ذكره النبي ﷺ في هذا الحديث هي من المخالفات الظالمة التي تخالف الميزان الشرعي، ولكن الرسول ﷺ قدم مخالفة الميزان القطري على الميزان الديني. فالجاهرة بالمعاصي وإنقاص الكيل من الأعمال التي تعارض الميزان القطري والذي يمكن إدراكه بالفطرة السليمة. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة الفطرة للناس عموما مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وفي تقديم هذا النوع بيان المبالغة في المعصية. وأما منع الزكاة، ومخالفة أمر الله ورسوله، والحكم بغير ما أنزل الله فهي تخالف الميزان الديني الذي يدرك بالوحي. وهذا فيه بيان خطورة مخالفة أمر الله وبالأخص للمسلمين. فكل هذه الأمور من أسباب البلاء العظيم ومنها الطاعون والأمراض والفقر والجوع وجور السلطان والهوان والفتن. وفيه الدليل على نبوته ﷺ فقد وقع ذلك كما أخبر بعد أن تهاون الكثير من المسلمين وغير المسلمين في أمر الميزان إلا من رحم الله. وبهذا يعرف أن الأمة المسلمة ينالها بمخالفة الميزان الشرعي من العقوبات في الدنيا ما لا يناله غيرها وذلك لما عرفت من الحق وبحسب ما قامت به من الظلم كما هو موضح في الجدول 1.2. وسيأتي بيان ذلك في حال الأمة المسلمة الظالمة.

زُوِيَ لِي الْأَرْضُ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَ الْأَصْفَرَ أَوِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ يَعْنِي الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَقِيلَ لِي إِنَّ مَلِكَكَ إِلَى حَيْثُ زُوِيَ لَكَ وَإِنِّي سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثًا أَنْ لَا يَسْطِرَّ عَلَى أُمَّتِي جَوْعًا فَيُهْلِكَهُمْ بِهِ عَامَةً وَأَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بِأَسْ بَعْضٍ وَإِنَّهُ قِيلَ لِي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَإِنِّي لَنْ أَسْلُطَ عَلَى أُمَّتِكَ جَوْعًا فَيُهْلِكَهُمْ فِيهِ وَلَنْ أَجْمَعَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِ أَقْطَارِهَا حَتَّى يُفْنِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَإِذَا وَضَعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي فَلَنْ يُرْفَعَ عَنْهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ مِمَّا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي أُمَّةٌ مُضِلِّينَ وَتَسْعِدُ قِبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْتَانُ وَتَسْلَحُ قِبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمَشْرِكِينَ وَإِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ دَجَالِينَ كَذَّابِينَ قَرِيبًا مِنْ ثَلَاثِينَ كُلَّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَلَنْ

تزال طائفةٌ من أُمِّي على الحقِّ مَنْصُورِينَ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خالفَهُمْ حتَّى يَأْتِيَ أمرُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ عرضَ مختصر.. الراوي : ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح ابن ماجه الصفحة أو الرقم : 3207 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

المخالفة الظالمة	العقوبة	نوع الميزان	الأمة
ظهور الفاحشة والجر بها	الطاوعون والأوجاع	الميزان الفطري	مسلمة أو كافرة
نقص المكيال والميزان	السنين وشدة المؤنة وجور السلطان	الميزان الفطري	مسلمة أو كافرة
منع الزكاة	منع القطر من السماء	الميزان الديني	مسلمة
نقض عهد الله ورسوله	تسلط العدو وأخذه بعض ما في أيديهم	الميزان الديني	مسلمة
الحكم بغير كتاب الله	القتال والفتن بينهم	الميزان الديني	مسلمة

جدول 1.2: مخالفات الميزان الشرعي وعقوباتها بحسب ما أخبر النبي ﷺ

2.18.1 الدولة الكافرة الظالمة الهالكة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة الهالكة هي التي أرسل الله لها رسولا على وجه الخصوص من الأمم السابقة فلم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها رغم قيام الحجّة عليهم. وهي الأشد عقوبة في الدنيا سواء كان لها التمكن أو لم يكن، وهذا لأن الحجّة قامت عليها ولكن لم تقم الحق ولم تقم أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري فلم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل مثل قوم شعيب)، أو الأعراض (كالزنى واللواط مثل قوم لوط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق مثل فرعون)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري، والتي جاء الأنبياء بتحريمها.

وقد جرت سنة الله في الأزمان الخالية من الأمم الكافرة الظالمة الهالكة المكذبة لرسالتها أن ينزل الله عليها عذابه العاجل بمجرد إخراجهم لرسلمهم ظلما وعدوانا وكفرا كما قال تعالى: **سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا** ﴿٧٧﴾ الإسراء. وقد جاء في تفسير ابن كثير أنه أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسائنا وأذوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب [هـ]. وقد تنوع فيهم العقاب كل بحسب حاله كما قال تعالى: **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴿٤٠﴾ العنكبوت. وكل هذا فيه العبرة والتذكير من الله جل جلاله لإتباع أمره والإنقياد له لكل من استخلفه الله ولهذا فقد قال تعالى: **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا** ^ج **كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ** ﴿١٣﴾ **ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴿١٤﴾ يونس. وهذا فيه أن الله جل جلاله ناظر إلى أعمالنا وأعمال الأمم ومجازيها بعدله سبحانه وتعالى.

2.18.2 الدولة المسلمة الظالمة

الدولة أو الأمة المسلمة الظالمة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام ديناً لها ولم تقم الميزان بظلمها فلم يعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام. فعقوبتها في الدنيا تكون بالهوان وعدم التمكين وهذا لأنها عرفت الحق ولم تعمل به على الوجه المطلوب منها فلم تقم العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكاماً كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراس، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري، بالإضافة إلى مخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة، أو الحكم بغير ما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي تخالف الميزان الشرعي،

وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معا.

فعدل الدولة المسلمة لا يكون فقط بموافقة الميزان الفطري كما هو الحال بالنسبة للدولة الكافرة، وإنما يكون عدل الدولة المسلمة بموافقة الميزان الشرعي، أي الميزان الفطري والديني معا. وظلم الدولة المسلمة يكون بخالفة الميزان الشرعي وهذا لما عرفت من الحق والدليل قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ آل عمران. وقد جاء في تفسير السعدي أن الله تعالى يخبر عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابهم، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعالهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ النور [1].

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ولهذا يروى أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة (مجموع الفتاوى 28/63). والأصح أن يقال: "ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة"، وهذا لأن الظلم ينافي الغاية من الإيمان وكأله وهو بلا شك معصية الله ورسوله والدليل قوله تعالى: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ الحجرات. فالدولة المؤمنة هي التي تطيع الله ورسوله ومن ذلك الحكم بالعدل، فإن خالفت أمر الله فقد خالفت الغاية من الإيمان وتكون أدنى مرتبة في الدين وهي مرتبة الإسلام وليس مرتبة الإيمان. فالله جل جلاله لم يكتب للأمة المسلمة الظالمة التمكين بل كتب لهم الهوان، ووعد سبحانه الذين آمنوا بالتمكين

كما سيأتي بيانه في الأمة المؤمنة العادلة. ولهذا فقد جاء أيضا عن شيخ الإسلام هذا التصحيح فقال في موضع آخر: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجموع الفتاوى 28/146).

والدولة المسلمة الظالمة ينالها من العقوبات والهوان ما لا ينال غيرها وهذا لأنها عرفت الحق أو انتسبت إليه ولم تعمل به أو تسعى للعمل به فينالها كل العقوبات الخمسة التي ذكرها النبي ﷺ كما تقدم في الجدول 1.2. ومن ذلك الذل والهوان وتسلط العدو لنقض عهد الله ورسوله أي مخالفة أمر الله كالربا والعينة وترك الجهاد فعن ابن عمر، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ "إِذَا تَبَايَعْتُم بِالْعَيْنَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَزَعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ" (صححه الألباني). وهذا الذل يكون بتسلط الأعداء الكفار عليها وهذا لنقضها عهد الله وهو الميزان الشرعي الذي كلفهم الله به حبا في الدنيا، فهذا كله من أسباب الذل والهوان في الدنيا قبل الآخرة ومن أسباب تعجيل عقاب الله وتسلط الأعداء كما بين ذلك النبي ﷺ فعن ثوبان، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا". فَقَالَ قَاتِلٌ وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كُفْتَاءُ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ". فَقَالَ قَاتِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" (صححه الألباني).

وكل هذا فيه أيضا أن الله يمكن الأمم الأخرى كالدولة الكافرة على المسلمين ولو كانوا ظالمين لهم وهذا لأن المسلمين خالفوا أمر الله الشرعي فيمسخهم من الظلم والهوان ما لا يمس غيرهم حتى يرجعوا إلى دينهم الذي كلفهم الله به. ولم يستثنني الرسول ﷺ من الأمم الأخرى وهذا بالعموم فتكون بذلك الأمة الكافرة الظالمة والأمة الكافرة العادلة مسلطة على الأمة المسلمة الظالمة. وهذا إنما

لحكمة الله وعدله ورحمته فلو كان التمكن للأمة المسلمة الظالمة لظغت على أمر الله ولتجبرت ولتركت هذا الدين العظيم ظلماً وعدواناً وغروراً ولكن حالها كحال الأمم السابقة التي فرحت بما كان لديها من العلم السببي ولتركت أمر الله الشرعي كما هي عادة البشر في من سبق من الذين خلوا من قبل. وهذا لا يكون لأن الله جل جلاله أراد لهذا الدين أن يبقى إلى قبل قيام الساعة. وسيأتي بيان ذلك في دولة الحكم الرشيد وهي الدولة المؤمنة العادلة.

وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلماً في الدنيا من الظلم الذي يكون بخالفة الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولاية الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَادِيهِمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَاتِكُمْ شَيْئاً تَكْرَهُونَهُ، فَارْكَبُوا عَمَلَهُ، وَلَا تَزْعُرُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَفِي رَوَايَةِ أُخْرَى، قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَهُ يَأْتِي شَيْئاً مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرِهْ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَزْعُرَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخریج کتاب السنة). للمزيد من التفاصيل، راجع فصل 9.13 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين.

ولهذا يجب على الدولة المسلمة الظالمة التي تنتسب إلى الإسلام الرجوع لأمر الله جل جلاله بتحكيم شرع الله والذي به تحفظ الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله. وقد قال الشيخ ابن باز رحمه الله: والواجب على كل دولة إسلامية أن تحذر نقمة الله، وأن تبادر بتحكيم شريعة الله، وأن تنقي الله في ذلك، كل دولة تنتسب للإسلام ثم تتساهل في هذا الأمر فقد أتت أمراً عظيماً، وإذا كان تساهلها عن اعتقاد الجواز وإنه لا يجب عليها تحكيم شريعة الله فهذه دولة كافرة كفرة أكبر، نعوذ بالله، إذا اعتقدت أنه لا يلزمها الحكم بشريعة الله، وأنه يجوز لها الحكم بهذه القوانين فهذا كفر أكبر، وردة عظمى [٠] ولا حول ولا قوة إلا بالله. نسأل الله السلامة والعافية (أحوال الحكم بغير ما أنزل الله، التعليقات على ندوات الجامع الكبير).

2.18.3 الدولة الكافرة الظالمة

الدولة أو الأمة الكافرة الظالمة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان بظلمها فيمسها من العقوبات في الدنيا بحسب ما قامت به الحجة عليهم سواء كان لها التمكن أو لم يكن ولكن الله جل جلاله يؤخذها في الدنيا بخالفة أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري. فعند الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكما كانوا أو محكومين، لم يقيموا العدل الذي به تحفظ الأموال (كالغش في الكيل)، أو الأعراض (كالزنى والواط)، أو الدماء (كالجور والقتل بغير حق)، وغيرها من الأمور التي تخالف الميزان الفطري.

وهذا يكون للأمم أو الدول الكافرة الظالمة اللاحقة التي لم يبعث لها رسول على وجه الخصوص فلها من العذاب في الدنيا بحسب ما قامت به عليهم الحجة ومن ذلك قوله تعالى: مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا

﴿١٥﴾ الإسراء. فأن الله جل جلاله يؤاخذهم في الدنيا بخالفاتهم للميزان الفطري ولهذا فقد عم رسولنا ﷺ العقوبة في المخالفات التي تخالف الفطرة السليمة كما تقدم معنا بيانه في الجدول 1.2 كالجاهرة بالمعاصي والغش في الكيل. ومن حكمة الله وعدله أن الله يسلط الأمم الأخرى أي الأمم الكافرة على الدولة المسلمة الظالمة حتى ترجع إلى دينها ولهذا فقد قال النبي ﷺ: "يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، أَلَى أَنْ قَالَ: وَلَيَزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ (صححه الألباني). وقد تقدم بيان ذلك في حال الدولة المسلمة الظالمة وكيف تتكالب عليها الأمم الأخرى.

2.18.4 الدولة الكافرة العادلة

الدولة أو الأمة الكافرة العادلة هي التي لم تقبل الحق بكفرها ولم تقم الميزان الشرعي بخالفة الميزان الديني ولكن أقامت أدنى درجات العدل وهو الميزان الفطري فتسلم بذلك في الدنيا من العقوبات بحسب ما وافقت به الفطرة وينزل عليها العذاب لمخالفة الحق والميزان الديني بحسب ما قامت به الحجة عليهم. ولكن الله يجعل لها من التمكين والنصر بحسب ما قامت به من العدل. وهذا لأن عدل الدولة الكافرة يكون بموافقة الميزان الفطري، أي أن أفرادها، حكما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، أو الأعراس، أو الدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري. وقد تقدم معنا ما نقله شيخ الإسلام ابن تيمية: وَلِهَذَا قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً، وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكَفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ (مجموع الفتاوى 28/146).

وهذا ينطبق اليوم على حال كثير من دول الغرب التي على ما فيها من الكفر بدین الإسلام إلا أن

القانون فيها نافذ على جميع مواطنها فتعطى الحقوق وتقام الحدود بدون تفریق على ضعيفهم وشریفهم وبما اتفقوا عليه في برلماناتهم التشريعية ولهذا فقد سلخوا في غالبهم من جور سلاطينهم عليهم. فن ذلك على سبيل المثال الأنظمة الإجتماعية التي فيها تجمع الأموال من العاملين والشركات كالضرائب فتعطى لفقراءهم ومساكينهم وتقوم بها البنى التحتية من خدمات صحية وغيرها والتي فيها صلاح معيشتهم. ومن ذلك أيضا فصل الأجهزة الرقابية والتشريعية عن الجهات التنفيذية لمراقبتها ومحاسبتها ومراجعتها وإنفاذ القانون على من يستغل السلطة لسرقة المال العام أو التلاعب به وإهداره. وكل هذا لما لهم من الأخلاق والحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة من الصدق في القول والأمانة في العمل وهذا لا يخفى على كل من عاش في بلادهم. وقد أدرك ذلك الصحابي عمرو بن العاص بعدما سمع المستورد بن شداد يقول أن النبي ﷺ قال: تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخَصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمَسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ. وفي رواية أخرى: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَجْبَرُ النَّاسِ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَخَيْرُ النَّاسِ لِمَسَاكِينِهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيذم كفرها ويحمد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يحمد ما فيها من العدل والإنصاف والحاسن الإنسانية الموافقة للفطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ^ط وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ^ج اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^ط وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمكم شَنَاَنُ

قوم على ألا تعدلوا) أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا. للمزيد من التفاصيل، راجع فصل 9.12 مسألة العدل مع الكفار.

2.18.5 الدولة المؤمنة العادلة

الدولة أو الأمة المؤمنة العادلة هي التي عرفت الحق بقبولها للإسلام دينا لها وأقامت الميزان الشرعي التي أمرها الله به فعمل غالب أفرادها بتعاليم وأوامر الإسلام بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة الميزان الشرعي فيما بينهم. فجزائها في الدنيا يكون بالتمكين على سائر الأمم الأخرى وهذا لأنها عرفت الحق وعملت به على الوجه المطلوب منها فأقامت العدل الذي أمرها الله به وهو الميزان الشرعي، أي أن أفرادها، حكاما كانوا أو محكومين، أقاموا العدل الذي به تحفظ الأموال، والأعراض، والدماء، وغيرها من الأمور التي توافق الميزان الفطري، بالإضافة إلى إقامة الميزان الديني كأداء الزكاة، والوفاء بعهد الله ورسوله، والحكم بما أنزل الله، وغيرها من الأوامر الدينية التي توافق الميزان الشرعي، وهذا يشمل الميزان الفطري والميزان الديني معا.

فالدولة المؤمنة العادلة هي التي آمنت بالحق وهو العلم الشرعي الصحيح من كتاب الله وسنة نبيه الثابتة والصحيحة وأقامت الميزان الشرعي بالعدل والقسط إتباعا لأمر الله جل جلاله. وقد وعدها جل جلاله بالتمكين فقال: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ التور. وهذا فيه أن الله نعمهم بالإيمان لأنهم آمنوا بالحق وعملوا الصالحات الموافقة للميزان الشرعي الذي يرضي الله جل جلاله ومن أجل ذلك التوحيد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فوافقوا بذلك المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد

بإقامة الحق في أنفسهم وإقامة العدل فيما بينهم. وهذا بخلاف ما ينشر الآن أن التمكين يأتي بإقامة التوحيد في أنفس العباد فقط دون الإشارة إلى ما يلزم ذلك من إقامة العدل فيما بين العباد وهذا بخلاف الأدلة والبراهين الواضحة من كتاب الله جل جلاله.

والأمة المؤمنة العادلة منصوره بوعده الله عز وجل ووبعد الرسول ﷺ إلى آخر الزمان حتى يقبضهم الله جل جلاله قبل قيام الساعة فعن عقبة بن نافع أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أممي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك. فقال عبد الله: أجل، ثم بيعت الله رجلاً كريح المسك مسها مس الحرير، فلا تترك نفساً في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يلقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة (صحيح مسلم).

والدولة المؤمنة العادلة هي دولة الحكم الرشيد وهي الدولة التي أسسها النبي ﷺ وبدأها بالإصلاح الديني أولاً ومن ثم قام عليها الخلفاء المهديين الراشدين من بعده بالإصلاح الديني والدنيوي معا حيث أقاموا الحق والميزان الشرعي مع الأخذ بالأسباب فكتب الله لهم التمكين وجعلهم ملوكاً في الأرض حتى بلغ الإسلام الهند والصين شرقاً وبلاد الأندلس وأروبا غرباً. وسيأتي تفصيل ذلك في فصل الحكم الرشيد.

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمون في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمري على أسود، ولا أسود على أحمري، إلا بالتقوى، إلى أن قال: فإن الله قد حرم بينكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا،

(صحيح، تخریج المسند لشعيب، الصحيح المسند). ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد سواء بدون تفریق فقد صح عن النبي ﷺ قال: لو أنَّ فَاطِمَةَ بِنْتُ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا (صحيح مسلم).

وكل هذا فيه أن دولة الحكم الرشيد هي الدولة المؤمنة العادلة التي تقام بإقامة الحق في النفوس وإقامة الميزان بين النفوس مع الأخذ بالأسباب. وهي الدولة التي تحفظ فيها الدماء والأموال والأعراض بما يرضي الله جل جلاله، فيقام فيها الكيل بالقسط، وتؤدى فيها الزكاة، وتقام فيها الحدود، وتبغ فيها أوامر الله جل جلاله من الحكام والمحكومين، كل بما أوتمن عليه من الأمانة، وما فرض عليه من العهد والميثاق، فكل ذلك سيئل عليه الجميع يوم الحساب. وهي الدولة التي حكامها يتخيرون في حكمهم مما أنزل الله جل جلاله حتى لا يكون حالهم كحال الدولة المسلمة الظالمة كما حذر من ذلك النبي ﷺ كما تقدم.

2.18.6 ملخص حال الأمم

بالتبعية والاستقراء يتبين أن الله يقيم الأمم التي تحكم بالعدل الذي يوافق الفطرة وإن كانت كافرة. فإن في ذلك سلامة من عذاب الله في الدنيا كما تقدم. فإن كانت مؤمنة وتحكم بالعدل كانت حكما راشدا ووعدها الله بالتمكين في الدنيا والفوز في الآخرة. وإن كانت مسلمة ولا تحكم بالعدل فقد خالفت حكمة الله والغاية من إيمانها الذي يقتضي إقامة العدل والميزان ويصدق فيها قوله تعالى: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ المجرات. وهذا هو حال أغلب أمة الإسلام في يومنا هذا كما هو معروف. فتكون بذلك الأمة الكافرة التي تحكم بالعدل قائمة فوق الأمة المسلمة التي لا تحكم بالعدل.

وأما الأمة المؤمنة التي تقيم الحق وأجله التوحيد وما يقتضيه ذلك من إقامة الميزان ومنه العدل بين الناس مع الأخذ بالأسباب تكون هي فوقهم جميعا كما دلت على ذلك الآيات والأحاديث. وهذا فيه الحكمة البالغة من الله عز وجل ومنه أن الله لا يرضى لعباده الظلم. ولا يزال الذل والهوان هو حال الأمة المسلمة الظالمة حتى تقيم في غالبها، حكاما ومحكومين، الميزان الشرعي بالعدل الذي أمر الله به. وقد قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ الرعد.

وبهذا يعلم أن الأمم إنما تقام بإقامة الميزان بالعدل بين الناس فإن تحقق ذلك سلست سخط الله وعذابه في الدنيا وإن كانت كافرة. فإن لم تقم الميزان بالعدل بين الناس، تكون بذلك قد جنت على نفسها عقاب الله العاجل في الدنيا من فقر وجوع وذل وجور السلطان وإن كانت مسلمة. وأما إن كانت مؤمنة وأقامت الحق مع إقامة الميزان والأخذ بالأسباب كما أمر الله تعالى كانت حكما راشدا وتحقق لها التمكين في الدنيا والفوز في الآخرة. وأما إقامة التوحيد دون إقامة الميزان وما يقتضيه من العدل بين الناس فهذا ينافي بحكمة الله وأمره الذي بينه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ. ولهذا وجب على المسلمين ودعاتهم الرجوع إلى أمر الله وعدم التهاون في ذلك بالعناية بإقامة الحق وأجله التوحيد وإقامة الميزان وأجله العدل بين الناس على حد السواء، مع الأخذ بالأسباب حتى يكون لهم التمكين الذي وعد الله به. ولمعرفة الأسباب وفهمها وجب علينا العناية بعلم الحساب بحثا وتطبيقا سعيا لتحقيق هذه الغاية العظيمة التي أمرنا الله بها، والتي عليها يبنى الحكم الرشيد.

وبهذا يعلم أن الحساب الصحيح يكون سبيلا إلى الحكم بالعدل والحكم الرشيد. فإن وافق الحساب الميزان الفطري (أي الفطرة السليمة) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في العاجلة (أي في الدنيا). ومثال ذلك أن يكون حساب البائع حسابا صحيحا مع زبائنه بدون غش أو نقص. وإن وافق الحساب

الميزان الديني كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الآخرة. ومثال ذلك حساب المواريث والزكاة الحساب الصحيح. وإن وافق الحساب الميزان الشرعي (أي الميزان الفطري والميزان الديني معا) كان ذلك نجاة من سخط الله وعذابه في الدنيا والآخرة معا. ومثال ذلك إخراج الزكاة صحيحة وكاملة من تجارة لا غش فيها ولا ظلم. وفي غالب الأحيان يكون الحساب الموافق للميزان الديني موافقا أيضا للميزان الفطري وهذا لأن الدين جاء موافقا للفطرة ومكملا لها. ولهذا كان الحساب الصحيح لإقامة الحق والميزان الشرعي من بنیان الحكم الرشيد. وعليه يكون علم الحساب من الدين بالضرورة وليس بخلاف ذلك إذ يتعذر إقامة الميزان حتى إقامته من دون حساب صحيح. وهو أيضا مفتاح العلوم السببية، إذ يتعذر معرفة الأسباب وفهمها من دون حساب صحيح.

والدولة المؤمنة العادلة لا تأتي بالعواطف والأوهام، إنما تكون عن علم وإخلاص في القول والعمل وصبر على أقدار الله ويقين بوعده عز وجل. وهذا يتطلب الجهاد في سبيل الله جهاد النفس وجهاد الغير سعيا لإقامة الحق والميزان الشرعي وليس لإبتغاء السلطة أو العلو في الأرض وإنما لنشر الحق والعدل الذي أمر الله به. وهذا لا يقوم به إلا من أخلص لله حقا وباع نفسه وماله لله عن صدق ورضي أن يدخل مع الله في هذه التجارة الربحية ولهذا فقد قال جل جلاله: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّْهُمْ لَهِمُ الْجَنَّةِ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة. وهذه التجارة مع الله لإبتغاء مرضاته والسعي لبلوغ جنته التي وعد المتقين وللنجاة من عذابه وسخطه يوم الحساب. ولهذا يأتي بيان حساب الله قبل بيان الحكم الرشيد حتى يعلم الإنسان ما فيه نجاته يوم الحساب، وأن الغاية ليست الحكم الرشيد أو الخلافة الراشدة في حد ذاتها كما يتغنى بذلك الكثير من الواهمين، إنما الحكم الرشيد والخلافة الراشدة هي وسيلة لغاية عظيمة وهي

إقامة الحق والميزان مع الأخذ بالأسباب كما بين جل جلاله ذلك في كتابه العظيم.

حساب الله

3.1 مقدمة

العد والإحصاء والحساب كلها داخلية صفات الله جل جلاله وأفعاله، وهذا من كمال عدله سبحانه حتى يعطي لكي ذي حق حقه يوم الحساب. ولقد أثبت سبحانه في مواضع كثيرة في كتابه العظيم أنه سبحانه أحصى كل شيء عدداً، وأنه سبحانه سريع الحساب كما يليق بجلاله بدون تشبيه أو تكييف أو تعطيل أو تمثيل. ومن ذلك أن الله جل جلاله قدر المقادير كلها وأحصاها عدداً ويقوم سبحانه بحاسبة كل نفس يوم الحساب وهو سبحانه سريع الحساب وهو أسرع الحاسبين.

ومن حكمة الله وكمال علمه أنه سبحانه أحصى كل شيء كما في قوله تعالى: وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ الجن. بل إن علمه سبحانه بذلك قد سبق فعله كما في قوله تعالى: وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ النبأ. وجاء في تفسير السعدي: (وَكُلُّ شَيْءٍ) من قليل وكثير، وخير وشر (أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا) أي: كتبناه في اللوح المحفوظ [1]. ولهذا فإن الحسب من أسماء الله عز وجل كما في قوله تعالى: وَإِذَا حُيِّمَتْ بُحَيْجَةٌ فَخَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ النساء. وقوله تعالى:

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۖ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ الْأَحْزَاب. وَاللَّهُ يَحْسَبُ خَلْقَهُ فِي تَدْبِيرِهِ لِهَذَا الْكَوْنِ كُلِّ بِحَسَبِ حَالِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْكَافِرِينَ: وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨﴾ الطَّلَاق. فَهُوَ سَبْحَانَهُ الْحَاسِبُ لِعِبَادِهِ وَالْمَجَازِي لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿١﴾.

وَمِنْ كَمَالِ عَدْلِهِ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ يَحْصِي أَعْمَالَ الْعِبَادِ لِيَوْمِ الْحِسَابِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ب.س. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسَوْهَ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ الْمَجَادِلَةُ. وَلِهَذَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ تَعَالَى: وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ ۖ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۚ وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ الْكَهْف. وَمِنْ كَمَالِ عَدْلِهِ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ أَحْصَى الْأَعْمَالَ كُلَّهَا وَيَضَعُ لَهَا مَوَازِينَ الْقِسْطِ لِحِسَابِ الْمُكَلَّفِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ حِسَابًا ظَاهِرًا لِإِظْهَارِ عَدْلِهِ سَبْحَانَهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُغْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ الْأَنْبِيَاءُ. فَيَتَنَازَعُ الْخَصَمَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ الزُّمَر. يَحْكُمُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بَعْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ النَّاسِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ الْحَجَّ. فَيَجِدُ كُلَّ مُكَلَّفٍ كِتَابًا لَهُ مَكْتُوبٌ فِيهِ كُلُّ أَعْمَالِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ الْإِسْرَاءُ. وَمِنْ كَمَالِ عَدْلِهِ سَبْحَانَهُ أَنَّهُ يَعْطِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ كِتَابَهُ يَقْرَأُ بِنَفْسِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: اقْرَأْ كِتَابَكَ ۖ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ إِبْرَاهِيمَ.

وكل هذا الإحصاء حتى يوفي الله جل جلاله أجور المكلفين في حكمه الجزائي من جنة أو نار، وبحسب ما كلفهم به في حكمه الشرعي من طاعة أو عصيان، وبحسب ما شاء لهم في حكمه الكوني من حياة أو موت ومن هداية أو ضلال، كما في قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ آل عمران. ولهذا فقد سمي الله جل جلاله يوم القيامة بيوم الحساب الذي فيه يكون الجزاء كما في قوله تعالى: هَذَا مَا توعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ص. فيحاسب المؤمنين حساباً يسيراً كما في قوله تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ الانشقاق. ويحاسب الكافرين حساباً عسيراً كما في قوله تعالى: وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ الانشقاق. وقد صح أن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقول في بعض صلواته: اللهم حاسبني حساباً يسيراً، فلما انصرف قلت: يا نبي الله ما الحساب اليسير؟ قال: أن ينظر في كتابه فيتجاوز عنه، إنه من نوقش الحساب يومئذ يا عائشة هلك (بإسناد جيد، الألباني أصل صفة الصلاة). وهذا فيه أن الحساب اليسير هو العرض الذي فيه يتجاوز عن السيئات وتجزي الحسنات وتضاعف برحمة الله وأن الحساب العسير هو النقاش الذي فيه حساب الحسنات والسيئات كبيرها وصغيرها ولا يتجاوز عن شيء منها بعدل الله وكلاهما حساب. وهذا فيه أن الأنبياء والرسل سيحاسبون يوم القيامة.

ولهذا فإن الله عز وجل أحصى كل شيء عدداً حتى يقوم بنفسه جل جلاله بحاسب المكلفين بعدله يوم الحساب وهو سبحانه سريع الحساب كما في قوله تعالى: وَإِنْ مَا تُرِيكَ بَعْضُ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ تُتَوَفَّنَا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ

يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ^ج وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ الرعد. ومن عدل الله أنه سبحانه سريع الحساب وحسابه لا يكون إلا بما كسبت كل نفس كما في قوله تعالى: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ^ج إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ إبراهيم. وأنه سبحانه سريع الحساب ولكن حسابه لا ظلم فيه كما في قوله تعالى: الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ^ج إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾ غافر. ولهذا فقد وصف الله جل جلاله نفسه بأنه أسرع الحاسبين كما في قوله تعالى: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ^ج أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾ الأنعام. وقد كان النبي يدعو الله بصفة سريع الحساب ومن ذلك عندما دعا على الأحزاب، فَقَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعُ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اهْزِمْهُمْ وَزَلِّزْهُمْ (صحيح البخاري)

3.2 صفة العد والحساب

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ ^ج يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ^ط وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ ^ج بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة

وقد كان النبي يدعو الله بصفة سريع الحساب ومن ذلك عندما دعا على الأحزاب، فَقَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعُ الْحِسَابِ، اهْزِمِ الْأَحْزَابَ، اهْزِمْهُمْ وَزَلِّزْهُمْ (صحيح البخاري)

(صحيح البخاري، صحيح مسلم)

يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ، قَالُوا: وَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتُمُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، فَقَامَ عُكَّاشَةُ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُجْعَلَ مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتَ

منهم، قال: فَقَامَ رَجُلٌ، فقال: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنيَ منهم، قال: سَبَقَكَ بِهَا عَكَاشَةُ (صحيح مسلم).

جاءت امرأةٌ إلى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا لَمَمٌ، فقالت: يا رسولَ اللَّهِ، أَدْعُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَنِي. قال: إِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يَشْفِيَكِ، وَإِنْ شِئْتَ فَاصْبِرِي، وَلَا حِسَابَ عَلَيْكَ. قالت: بَلْ أَصْبِرُ، وَلَا حِسَابَ عَلَيَّ (إسناده حسن، تخريج المسند لشعيب).

لا حساب على من ضحك إليه الله في الدنيا وهم الشهداء
أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَيُّ الشَّهَدَاءِ أَفْضَلُ قَالَ: الَّذِينَ إِنْ يُلْقُوا فِي الصَّفِّ لَا يَلْفَتُونَ وَجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا ،
أَوَّلُكَ يَنْطَلِقُونَ فِي الْغُرَفِ الْعُلَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ، وَإِذَا ضُحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي
الدُّنْيَا فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ (صححه الألباني في صحيح الترغيب).

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ يَدْخُلَانِ
الْجَنَّةَ: يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقْتَلُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُسْتَشْهِدُ. الراوي: أبو هريرة |
المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 2826 | خلاصة حكم المحدث :
[صحيح]

أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَكْمَلَهَا كُتِبَتْ كَامِلَةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْمَلَهَا
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَأَكْلَمُوا بِهِ مَا ضَمِيَ مِنْ فَرِيضَتِهِ،
وَالزَّكَاةُ مِثْلُ ذَلِكَ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حِسَابِ ذَلِكَ (صحيح، تخريج مشكل الآثار، شعيب الأرنؤوط).

«إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ، قَسَمَ مِنْهَا رَحْمَةً بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا فَوَسَّعَتْهُمْ إِلَى آجَالِهِمْ، وَأَخَّرَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ
لِأُولِيائِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَابِضُ تِلْكَ الرَّحْمَةِ الَّتِي قَسَمَهَا بَيْنَ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَى تِسْعٍ وَتِسْعِينَ، فَكَلَّمَهَا
مِائَةَ رَحْمَةٍ لِأُولِيائِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». الراوي: أبو هريرة | المحدث: الحاكم | المصدر: المستدرک علی

الصحيحين الصفحة أو الرقم : 186 | خلاصة حكم المحدث : صحيح على شرط الشيخين
صُم من كلّ عشرة أيّام يوماً، ولك أجرُ تلك التسعة، فقلتُ : إني أقوى من ذلك، قال : صُم
من كلّ تسعة أيّام يوماً، ولك أجرُ تلك الثمانية، قلتُ : إني أقوى من ذلك، قال : فصُم من كلّ ثمانية
أيّام يوماً، ولك أجرُ تلك السبعة، قلتُ : إني أقوى من ذلك، قال : فلم يزلّ حتّى قال : صُم يوماً،
وأفطر يوماً الراوي : عبدالله بن عمرو | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح النسائي الصفحة أو الرقم
: 2394 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

حديثُ البطاقةِ، في الرّجلِ الَّذي يُؤْتَى به ويُوضَعُ له في كَفِّهِ تسعةٌ وتسعون سِجْلاً، كُلُّ سِجْلٍ مَدَّةَ
البصرِ، ثُمَّ يُؤْتَى بتلكِ البطاقةِ فيها : لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فيقولُ : يا رَبِّ، وما هذه البطاقةُ مع هذه السِّجَلاتِ
؟ فيقولُ اللهُ تعالى : إِنَّكَ لَا تُظَلِّمُ. فتُوضَعُ تلكِ البطاقةُ في كِفَّةِ المِيزانِ. قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ
عليه وسلَّم : فَطاشَتِ السِّجَلاتُ ، وتُثَلَّتِ البطاقةُ الراوي : - | المحدث : أحمد شاكر | المصدر : عمدة
التفسير الصفحة أو الرقم : 2/7 | خلاصة حكم المحدث : [أشار في المقدمة إلى صحته]

3.3 التجارة مع الله في الدنيا

3.4 القبر أول منازل الآخرة

وما تقول ؟ قلتُ : تقول أعاذُكم اللهُ من فتنةِ الدجالِ، ومن فتنةِ عذابِ القبرِ قالت عائشةُ : فقام
رسولُ اللهِ فرفع يديه مدًّا، يستعيذُ بالله من فتنةِ الدجالِ، ومن عذابِ القبرِ ثم قال : أما فتنةُ الدجالِ،
فإنه لم يكن نبيُّ إلا (قد) حذَرَ أمته، وسأحدِّثكم (وه) بحديثٍ لم يُحذَره نبيُّ أمته : إنه أعورُ،

وإنَّ اللهَ ليس بأعورَ، مكتوبٌ بينَ عينيه كافرٌ، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ. فأما فتنةُ القبرِ في تفتنونَ، وعنيّ تُسألونَ، فإذا كان الرجلُ الصالحُ أُجْلِسَ في قبره غيرَ فزعٍ ولا مشعوفٍ، ثم يقال له : فيم كنتَ ؟ فيقول في الإسلام فيقال ما هذا الرجلُ الذي كان فيكم ؟ فيقول : محمدٌ رسولُ الله، جاءنا بالبيناتِ من عند الله فصدّقناه، فيُفرجُ له فُرْجَةٌ قَبْلَ النارِ، فينظرُ إليها يُحِطِّمُ بعضها بعضًا، فيقال له : انظرِ إلى ما وراك اللهُ، ثم يُفرجُ له فُرْجَةٌ إلى الجنةِ، فينظرُ إلى زهرتها وما فيها، فيقال له هذا مقعدُك منها ويقال على اليقينِ كنتَ وعليه مُتٌ، وعليه تُبعثُ إن شاء الله وإذا كان الرجلُ السوءُ، أُجْلِسَ في قبره فزعاً مشعوقاً فيقال له : فيم كنتَ ؟ فيقول : سمعتُ الناسَ يقولون قولاً فقلتُ كما قالوا، فيُفرجُ له فُرْجَةٌ إلى الجنةِ، فينظرُ إلى زهرتها وما فيها، فيقال له انظرِ إلى ما صرف اللهُ عنك ثم يُفرجُ له فُرْجَةٌ قَبْلَ النارِ فينظرُ إليها يُحِطِّمُ بعضها بعضاً ويقال (له) هذا مقعدُك منها، على الشكِّ كنتَ، وعليه مُتٌ وعليه تُبعثُ إن شاء الله ثم يُعَذَّبُ

الراوي : عائشة أم المؤمنين | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الترغيب الصفحة أو الرقم :

3557 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

جاءت يهوديةٌ فاستطعمت على بابي، فقالت : أطعموني أعاذكم اللهُ من فتنةِ الدجالِ ومن فتنةِ عذابِ القبرِ، فلم أزل أحبسها حتى أتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقلتُ : يا رسولَ الله ما تقولُ هذه اليهوديةُ ؟ قال : وما تقولُ ؟ قلتُ : تقولُ : أعاذكم اللهُ من فتنةِ الدجالِ ومن فتنةِ عذابِ القبرِ. قالت عائشةُ : فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه مدًّا يستعيذُ بالله من فتنةِ الدجالِ ومن فتنةِ عذابِ القبرِ، ثم قال : أما فتنةُ الدجالِ فإنه لم يكن نبيٌّ إلا وقد حذرَّ أمتهَ وسأحذرُّكموه بحديثٍ لم يُحذرْه نبيٌّ أمتهُ، إنه أعورُ والله ليس بأعورَ، مكتوبٌ بينَ عينيه كافرٌ يقرؤه كلُّ مؤمنٍ، فأما فتنةُ القبرِ في تفتنونَ وعنيّ تُسألونَ، فإن كان الرجلُ الصالحُ أُجْلِسَ في قبره غيرَ فزعٍ ولا مشعوفٍ، ثم يقال له :

فيم كنت؟ فيقول: في الإسلام، فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيُفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً، فيقال له: انظر إلى ما وراك الله، ثم يُفرج له فرجة على الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها ويقال: على اليقين كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله. وإذا كان الرجل السوء جلس في قبره فزعاً مشعوباً فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري. فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت كما قالوا: فيُفرج له فرجة قبل الجنة فينظر إلى زهرتها وما فيها فيقال له: انظر إلى ما صرف الله عنك، ثم يُفرج له فرجة قبل النار فينظر إليها يحطم بعضها بعضاً ويقال له: هذا مقعدك منها، على الشك كنت وعليه مت وعليه تبعث إن شاء الله. ثم يُعذب

الراوي: عائشة أم المؤمنين | المحدث: السيوطي | المصدر: شرح الصدور الصفحة أو الرقم:

193 | خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح

الراوي: عائشة أم المؤمنين | المحدث: شعيب الأرنؤوط | المصدر: تخريج المسند لشعيب الصفحة

أو الرقم: 25089 | خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح على شرط الشيخين

3.5 يوم القيامة

كل إنسان سواء كان متعلماً أو أمياً لا يعلم القراءة والحساب يكون يوم القيامة قارئاً وحاسباً والدليل قوله تعالى:

وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ^ط وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ اِقْرَأْ كِتَابَكَ
كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ الإسراء

وجاء في تفسير الطبري: (اقرأ كِتَابَكَ): اقرأ كِتَابَ عملك الذي عملته في الدنيا، الذي كان كتابنا يكتبناه، ونخصيه عليك (كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) يقول: حسبك اليوم نفسك عليك حاسباً يحسب عليك أعمالك، فيحصيها عليك، لا نبتغي عليك شاهداً غيرها، ولا نطلب عليك محصياً سواها. حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة (اقرأ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) (سيقراً يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا.

جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ، فَقَالَ: إِنَّهُ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ جَعَلَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَىٰ إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَىٰ إصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الْمَلِكُ، فَلَقَدْ رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعْبُجًا وَتَصْدِيقًا لِقَوْلِهِ، ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ [الأُنْعَام: 91] إِلَىٰ قَوْلِهِ يُشْرِكُونَ [الزمر: 67]. الراوي : عبد الله بن مسعود | المحدث : البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 7513 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

جَاءَ حَبْرٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَىٰ إصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَىٰ إصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْبُجًا مِمَّا قَالَ الْحَبْرُ، تَصْدِيقًا لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بَيْنَ يَدَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ [الزمر: 67]. 7148- [20-...]

حدثنا عثمان بن أبي شيبة، وإسحاق بن إبراهيم كلاهما، عن جرير، عن منصور بهذا الإسناد، قال:

جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ... بِمَثَلِ حَدِيثٍ فُضِّلَ وَلَمْ يَذْكُرْ: ثُمَّ يَهْزُهُنَّ. وَقَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَعَجُّبًا لِمَا قَالَ تَصَدِّيقًا لَهُ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَتَلَا الْآيَةَ. عرض مختصر.. الراوي : عبدالله بن مسعود | المحدث : مسلم | المصدر : صحيح مسلم الصفحة أو الرقم : 2786 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

3.5.1 البعث

3.5.2 المحشر

3.5.3 الحساب يبدأ عند الميزان وقبل الجزاء

نقل القرطبي أن الحساب يكون قبل الميزان وفيه تعرض الأعمال فقط قبل أن توزن على الميزان وهذا لا يصح. لأن الحساب لا يكتمل إلا بعد وزن الأعمال كلها كبيرها وصغيرها وعدّها وجمعها. ولهذا فإن الحساب يبدأ مع بداية وزن الأعمال وينتهي عند الانتهاء من وزنها وعدّها وجمعها. يبدأ الحساب مع وزن الأعمال وهنا تعرض الأعمال وتوزن على الميزان كلها صغيرها وكبيرها حتى يحسب حسابها الحساب الكامل والوافي الذي لا ظلم فيه، وبناء على الحساب الكلي يعطى الجزاء إما جنة وإما نار. لكن هذا الحساب نوعان، إما الحساب اليسير وإما الحساب العسير. فمن كان حسابه يسيرا يعطى كتاب أعماله يمينه وأما من كان حسابه عسيرا يعطى كتاب أعماله من وراء ظهره في يده الشمال

قال تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا

﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ الانشقاق. وقد جاء عن الطبري قوله في تفسير هذه الآيات: وقوله: (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) يقول تعالى ذكره: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه. (فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) بأن ينظر في أعماله، فيغفر له سيئها، ويُجَازَى على حسنِها. وقوله: (وَيَقْلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) يقول: وينصرف هذا المحاسب حساباً يسيراً إلى أهله في الجنة مسروراً. (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) وأما من أعطي كتابه منكم أيها الناس يومئذ وراء ظهره، وذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه وجعل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم جل ثناؤه أحياناً أنهم يؤتون كتبهم بشمالهم، وأحياناً أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم. (فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) يقول: فسوف ينادي بالهلاك، وهو أن يقول: واثيراه، واويلاه، وهو من قولهم: دعا فلان لهفه: إذا قال: والهفاه. وقوله: (وَيَصْلَى سَعِيرًا) اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء مكة والمدينة والشام: (وَيَصْلَى) بضم الياء وتشديد اللام، بمعنى: أن الله يصلبهم تصلياً بعد تصليته، وإنضاجاً بعد إنضاجه، كما قال تعالى: كُفَّاهُ نَضَاجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا، واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك، بقوله: ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلَّوْهُ وَقَرَأَ ذَلِكَ بعض المدنيين وعامة قراء الكوفة والبصرة: (وَيَصْلَى) بفتح الياء وتخفيف اللام، بمعنى: أنهم يصلونها ويردونها، فيحترقون فيها، واستشهدوا لتصحيح قراءتهم ذلك كذلك بقول الله: يَصْلَوْنَهَا وَإِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ. وقوله: (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) يقول تعالى ذكره: إنه كان في أهله في الدنيا مسروراً لما فيه من خلافة أمر الله، وركوبه معاصيه. وقوله: (إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) بلى يقول تعالى ذكره: إنَّ هذا الذي أُوتِيَ كتابه وراء ظهره يوم القيامة، ظنَّ في الدنيا أن لن يرجع إلينا، ولن يُبعث بعد مماته، فلم يكن يبالي ما ركب من المآثم؛ لأنه لم يكن يرجو ثواباً، ولم يكن يخشى عقاباً، يقال منه: حار فلان عن هذا الأمر: إذا رجع عنه، ومنه الخبر الذي روي عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخَوَرِ بَعْدَ الْكَوَرِ " يعني بذلك: من الرجوع إلى الكفر، بعد الإيمان. وقوله: (بَلَى) يقول تعالى ذكره: بلى لِيُحَوَّرَنَّ وَلَيَرْجَعَنَّ إِلَى رَبِّهِ حَيًّا كَمَا كَانَ قَبْلَ مَمَاتِهِ. وقوله: (إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) يقول جل ثناؤه: إن رب هذا الذي ظن أن لن يحور، كان به بصيرا، إذ هو في الدنيا بما كان يعمل فيها من المعاصي، وما إليه يصير أمره في الآخرة، عالم بذلك كله [هـ].

وقد صح أن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: سمعتُ النبي ﷺ يقولُ في بعضِ صلواتِهِ: اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حَسَابًا يَسِيرًا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا الْحَسَابُ الْيَسِيرُ؟ قَالَ: أَنْ يَنْظُرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نَوَقَشَ الْحَسَابَ يَوْمَئِذٍ يَأْتِيهِ هَلَكٌ (بإسناد جيد، الألباني أصل صفة الصلاة). وهذا فيه أن الحساب اليسير هو العرض الذي فيه يتجاوز عن السيئات وتجزى الحسنات وتضاعف برحمة الله وأن الحساب العسير هو النقاش الذي فيه حساب الحسنات والسيئات كبيرها وصغيرها ولا يتجاوز عن شيء منها بعدل الله وكلاهما حساب. وهذا فيه أن الأنبياء والرسل سيحاسبون يوم القيامة.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: مَنْ حُوسِبَ عَذِبَ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [الانشقاق: 8] قَالَتْ: فَقَالَ: إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَهْلِكُ، وفي رواية: عذب (صحيح البخاري، صحيح مسلم). والمقصود والمراد بقول النبي ﷺ: (من حوسب عذب)، هو الحساب العسير الذي يكون فيه النقاش ولهذا جاء بيان ذلك في نهاية الحديث كما في أغلب الأحاديث الأخرى: (من نوقش الحساب عذب) كما سبق بيانه، وهذا هو المعنى الصحيح وهو الحساب العسير الذي فيه تناقش الأعمال كبيرها وصغيرها. فمن المعلوم أن كل المكلفين من الجن والإنس وحتى الأنبياء سيحاسبون يوم القيامة، فلا يكون المعنى أن كل من حوسب عموما عذب فهذا لا يتوافق ما عدل الله ومع كتابه وما صح عن نبيه ﷺ.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال:

النبي ﷺ فقالت:

ومن عدل الله جل جلاله أنه سبحانه يقضي في المظالم بين الناس يوم الحاسب ولهذا فقد قال النبي ﷺ: من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتخله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه حُمل عليه (صحيح البخاري). ومن ذلك أيضا أن الله يجزي عباده كل بحسب ما دل عليه من العمل فعن جرير بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء (صحيح مسلم).

العجائب:

إن الله سيخلص رجلاً من أممي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتتكم من هذا شيئاً؟ أظلمت كتبتي الحافظون؟ يقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك فيقول يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تعلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء (صحيح الترمذي، صحيحه الألباني)

الجزاء إما جنة أو نار

الجنة

مائة درجة

وهي مائة درجة كما جاء ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وَلَدَ فِيهَا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا نُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِثَّةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ، فَاسْأَلُوهُ الْفَرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ -أَرَاهُ- فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ. (صحيح البخاري).

أعلى مراتب الجنة هي الفردوس الأعلى كما جاء عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ وَهُوَ صَحِيحٌ: إِنَّهُ لَمْ يَقْبِضْ نَبِيٌّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ فَلَمَّا نَزَلَ بِهِ، وَرَأْسُهُ عَلَى نَحْذِي غُيْثِي عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَأُشْخَصَ بَصَرُهُ إِلَى سَقْفِ الْبَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى فَقُلْتُ: إِذَا لَا يَخْتَارُنَا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ، قَالَتْ: فَكَانَتْ آخِرَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى (صحيح البخاري). فعرفت عائشة رضي الله عنه أن الرسول ﷺ أوري مقعده في الجنة فاختار الرفيق الأعلى قبل أن تقض روحه ﷺ.

وأدناهم مرتبة هو آخر رجل يدخل الجنة وهو آخر رجل يخرج من النار كما صح ذلك عن النبي ﷺ حيث قال: إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ: رَجُلٌ يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ: فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلَأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلَأَى، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ؛ فَإِنَّ

لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِهَا - أَوْ إِنَّ لَكَ عَشْرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا - قَالَ: فَيَقُولُ: أَسْخَرُ بِي - أَوْ أَتَضَحَّكُ بِي -
وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، قَالَ: فَكَانَ
يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً (صحيح البخاري، صحيح مسلم واللفظ له) .

الحكم الرشيد

4.1 مقدمة

قال تعالى:

يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ [ص: 26]

تفسير ابن كثير:

هذه وصية من الله - عز وجل - لولاءة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلووا عن سبيله وقد تواعد [الله] تعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب ، بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد ، حدثنا مروان بن جناح ، حدثني إبراهيم أبو زرعة - وكان قد قرأ الكتاب - أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل

في أمان . قلت يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود ؟ إن الله - عز وجل - جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال : (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون) الآية .

وقال عكرمة : (لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب) هذا من المقدم والمؤخر لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا .

وقال السدي : لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .
وهذا القول أمشى على ظاهر الآية فالله أعلم .

4.2 مكانة ذي السلطان المقسط

أول من يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَلَا الْجَانِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ) (رواه أبو داود، وحسنه الألباني).

4.3 أركان الحكم الرشيد

يقام الحكم الرشيد على ثلاثة أركان وهي: (1) إقامة الحق بالعلم الصحيح، (2) إقامة الميزان الشرعي بالعدل والقسط، (3) الأخذ بأسباب القوى كالحديد وما يلزم ذلك من علوم كالحساب والطب وغيرها من العلوم التي تكمن المسلمين من دحر الأعداء ونشر الحق ونصرتة. فهذا كله من نصر الله

ورسله وقد وعد سبحانه بنصر من ينصره كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَصَرُّوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧٧﴾ محمد.

وبهذه الأمور الثلاثة التي يبنى عليها الحكم الرشيد يكون التمكن الذي وعد الله به كما ذكر سبحانه في قصة ذي القرنين في قوله تعالى: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ الكهف. وقد بين معنى ذلك الشيخ العثيمين رحمه الله أن معنى "من كل شيء سببا" أن الله أتاه كل الأسباب التي بها يكون التمكن في الأرض من قوة السلطة وتمام الملك فانتفع بما أعطاه الله من الأسباب. فهذا التمكن جاء بتسخير الله وهذا لأن ذي القرنين أخذ بالأسباب التي أعطاه الله له مع إقامة الحق وإقامة العدل كما في قوله تعالى: قَالَ أَمَا مِنْ ظَلَمٍ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مِنْ آمَنٍ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ حَسَنٌ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ الكهف. وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله أن هذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء، العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله [هـ]. وقد أثبت سبحانه له التمكن والرشد لما له من الخبرة في إتباع الأسباب كما في قوله تعالى: كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ الكهف. ومعنى ذلك أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة كما جاء في تفسير السعدي. ومن ذلك أنه كان لديه من الأسباب العلية ما يمكنه من فهم العديد من العلوم التي تمكنه من الانتقال إلى مشارق الأرض ومغاربها وفهم اللغات الأخرى، ومن ذلك ما فقه به السنة أولئك القوم (الذين لا يفقهون قولاً) الذين اشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج [٥] إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجرة، وشكر ربه على تمكنه واقتداره [هـ]. فلم يطلب منهم إلا أن يعينوه على حمل

زبر أي قطع الحديد ووضعه في مكانه بين الجبلين وإشعال النار له بالمنافخ الشديدة والآلات العظيمة لإذابة النحاس حتى يكون سائلا فيصبه عليها ليستحكم السد استحكما هائلا يعجز بأجوج ومأجوج على الصعود فوقه فضلا عن ثقبه.

وقد علم ذا القرنين أن كل ذلك من فضل الله عليه حيث قال تعالى: قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ^ط وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. وما أجمل ما أورده السعدي في تفسيره هذه الآية حيث قال: فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولها وقال: هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي أَي: من فضله وإحسانه عليّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال: قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَكُفِّرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ النمل. بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم شرا وبطرا. كما قال قارون، لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، قال: قَالَ إِنَّمَا أَوْتَيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي الْقَصَص.

وقد علم أيضا ذا القرنين بما لديه من الخبرة بأسباب الحديد وما قد يطرأ عليه من صدى وتأكل بعد زمن أنه سيأتي يوم وينهار هذا السد العظيم ويخرج مأجوج ومأجوج في آخر الزمان كما في قوله تعالى: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ الكهف. وجاء في تفسير السعده رحمه الله أن قوله: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي أَي: لخروج مأجوج ومأجوج جَعَلَهُ أَي: ذلك السد المحكم المتقن دَكَّاءَ أَي: دكه فانهدم، واستوى هو والأرض وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا [هـ]. ولهذا فقد أخبر سبحانه بوقوع ذلك لا محالة في قوله تعالى: حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ الأنبياء. وقد قال السعدي رحمه الله: أنه في آخر الزمان، يفتح السد عنهم، فيخرجون إلى

الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله من كل من مكان مرتفع، وهو الحذب ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما لبذواتهم، وإما لما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لا يد لأحد بقتالهم.

وكل ما تقدم فيه أن ذا القرنين لم يكن فقط يأخذ بالأسباب وإنما كان يقيم الحق والعدل مع الأخذ بالأسباب والعلم بها وذلك من فضل الله عليه وتوفيقه له رحمه الله تعالى ورضي عنه. وقد قال عنه الشيخ ابن باز رحمه الله: ذو القرنين ملك عظيم صاحب خير، وإحسان، وإصلاح، واختلف الناس في نبوته، والمشهور أنه ملك صالح. وفي موضع آخر رحى الشيخ ابن باز رحمه الله أن ذا القرنين نبيا من الأنبياء لأنه كان يتبع أمر الله في الأرض وظاهر الآيات أنه كان يتلقى هذه الأوامر والتوجيهات من ربه جل جلاله وهذا شأن النبي.

4.4 شروط الحكم الرشيد

ولقد وضع النبي ﷺ لنا أسس هذه الدولة التي يحكم فيها بكأب الله عز وجل وسنة نبيه ويكون فيها الشورى، والرحمة، واللين، والحكمة، والعدل، والرشاد. ففي هذه الدولة يتساوى فيها المسلمون في الحقوق والواجبات الأساسية ومن أعظم ذلك حرمة الدم والمال والعرض وإن اختلفت ألوانهم وأشكالهم فقال ﷺ: يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمري على أسود، ولا أسود على أحمري، ألا بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله، ثم قال: أي يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، ثم قال: أي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال:

ثم قال: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قالوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قال: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حُرْمَةً يَوْمَكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبْلَغْتُ؟ قالوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ، قال: لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ (صحيح، تخریج المسند لشعيب، الصحيح المسند).

ومن ذلك أيضا أن المسلمين يتساوون أيضا في الحدود وهذا من عدل الإسلام إذ تطبق الحدود على الشريف والضعيف على حد السواء بدون تفریق فقد صح عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أَنَّ قُرَيْشًا أَهْمَهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غُرُورَةِ الْفَتْحِ، فَقَالُوا: مَنْ يُكَلِّفُ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حُبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأُتِيَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكَلَّمَهُ فِيهَا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟ فَقَالَ لَهُ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ، قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاخْتَطَبَ، فَأُتِيَ عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: خَسَنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدُ، وَتَزَوَّجَتْ، وَكَانَتْ تَأْتِينِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (صحيح مسلم).

4.5 واجبات الحكم الرشيد

تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة:

لولا قَوْمُكَ حَدِيثُ عَهْدٍ بِكُفْرِ لَنَقَضْتُ الْكَعْبَةَ لَفَعَلْتُ لَهَا بِأَيِّن: بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ النَّاسُ، وَبَابٌ يَخْرُجُونَ

قال الشيخ ابن باز: فترك ﷺ نقض الكعبة وإدخال حجر إسماعيل فيها خشية الفتنة، وهذا يدل على وجوب مراعاة المصالح العامة وتقديم المصلحة العليا، وهي تأليف القلوب وتثبيتها على الإسلام على المصلحة التي هي أذى منها وهي إعادة الكعبة على قواعد إبراهيم.

الرحمة:

قال ﷺ: مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمَهُ، وَمَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُغْفَرُ لَهُ (صحيح الترمذي).

التيسير:

قال ﷺ: نَسِرُوا وَلَا تَعْسِرُوا، وَبَشَرُوا وَلَا تَنْفِرُوا (صحيح البخاري).

إِنَّ الدِّينَ يَسْرٌ، وَلَا يُشَادُّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشَرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَ الرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ الرَّاوي: أبو هريرة | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح الجامع الصفحة أو الرقم: 1611 | خلاصة حكم المحدث: صحيح

جاء عن سعد بن أبي وقاص أنه استأذن عمرُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساءٌ من قريشٍ يَكَلِّمُهُ وَيَسْتَكْثِرُنَّهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهُنَّ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عُمَرُ قُنَّ يَبْتَدِرْنَ الْحِجَابَ، فَأُذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَضْحَكُ، فَقَالَ عُمَرُ: أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعَنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ! قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كُنْتَ أَحَقُّ أَنْ يَهَبْنَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ عَدَوَاتٍ أَنْفُسِهِنَّ؟ أَتَهَبْنِي وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! قُلْنَ: نَعَمْ، أَنْتَ أَقْطُ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا بَجًّا إِلَّا سَلَكَ بَجًّا غَيْرَ بَجِّكَ (صحيح

(البخاري).

عن أبي هريرة قال: يَبْنَى الْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحُرَابِهِمْ، دَخَلَ عُمَرُ فَأَهْوَى إِلَى الْحَصَى فَخَصَّبَهُمْ بِهَا، فَقَالَ: دَعَهُمْ يَا عُمَرُ. [وفي رواية زاد]: فِي الْمَسْجِدِ. (صحيح البخاري).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَرْنِي بِرِدَائِهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، حَتَّى أَكُونَ أَنَا أَلْتِي أَسْأَمُ، فَاقْدُرُوا قَدَرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السِّنِّ، الْحَرِصَةِ عَلَى اللَّهِ. (صحيح البخاري).

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دَخَلَ عَلَيْهَا، وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ فِي أَيَّامٍ مَنَى تَغْنِيَانِ، وَتُدْفَقَانِ، وَتَضْرِبَانِ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَغَشٍّ بِثَوْبِهِ، فَاتَّهَرَهُمَا أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ: دَعُهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنِّي أَيَّامٌ عِيدٍ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامٌ مَنَى. وَقَالَتْ عَائِشَةُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَرْنِي، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ، وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ، فَزَجَرَهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعَهُمْ، أَمَّا بَنِي أَرْفَدَةَ يَعْنِي مِنَ الْأَمْنِ. (صحيح البخاري).

الأمانة: قَالَ ﷺ: مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللَّهُ رَعِيَّةً، يَمُوتُ يَوْمَ يَمُوتُ، وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ (صحيح الجامع وصححه الألباني). وفي رواية: مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحْطَ بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَاحَةَ الْجَنَّةِ (صحيح البخاري).

النصيحة من الرعية:

وفي صحيح الترمذي من حديث أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: إِنْ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ.

الشورى:

قال تعالى: وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ الشورى يقول الشيخ الألباني رحمه الله: فنسأل الله عز وجل أن يرحم عباده المسلمين وأن يلهيهم الرجوع إلى الدين على الفهم الصحيح، وأن لا يتعصبوا لحاكم، وأن يعطوا كلمة شاعت في العصر الحاضر: "ولي الأمر هكذا يريد"، ولي الأمر من هو؟ هو عمر بن الخطاب!، هو رجل من الناس، ولي الأمر هذا واجب عليه من قديم أنه يشكل مجلس شورى وهو أحوج إلى هذا المجلس من عمر بن الخطاب، عمر بن الخطاب لو كان يريد أن يعتد برأيه وبشخصه وبعلمه وبخاصة بعد أن سمع تلك الشهادة ممن لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى: "يا بن الخطاب، ما سلكت فجأ إلا سلك الشيطان فجأ غير فجك"، كان هو يستقل! افعلوا، لا تفعلوا، افعلوا، اجمعوا، امسكوا، إلى غيره، لكن لا، هو يعرف، كما أنزل الله على قلب محمد عليه السلام: "وشاورهم في الأمر"، ورسول الله أولى أن لا يشاور فضلا عن عمر، عمر أولى أن يشاور من الرسول، والرسول أولى من عمر أن لا يشاور، لأنه ما بتكلم إلا بوحي السماء ولكن جعلها قاعدة شرعية أبدية: "وأمرهم شورى بينهم". فكل دولة مسلمة تدعي بأنها تحكم شريعة الله وتحكم بما أنزل الله، قبل كل شيء يجب أن يكون لديها مجلس شورى، هذا المجلس يجب أن يكون فيه نخبة العلماء، أولا علماء في الشرع، ثانيا علماء في كل العلوم التي بحاجة لهذا المجتمع إن كان مثلاً إقتصاد، إن كان اجتماع، إن كان سياسة، إن كان جيش، إلى اخره. هذا المجلس إذا طرأ على البلاد الإسلامية طارئ يستشار، بعد ذلك يقال رأى ولي الأمر كذا. أما ولي الأمر ما استشار قيل له افعَل كذا ففعل ثم يفرض على أهل العلم ان يبرروا وأن يسوغوا هذا الواقع، هذا ليس من الإسلام في شيء أبدا.

4.6 الحكم الرشيد في زمن الصحابة

البيان الواضح لسنين الخلافة الراشدة

قال صلى الله عليه وسلم

خِلافةُ النَّبِيِّ ثَلَاثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ

الراوي : سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح الجامع

| الصفحة أو الرقم : 3257 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

قال سعيدٌ: قال لي سَفِينَةُ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ: أَبُو بَكْرٍ سَنَتَيْنِ، وَعُمَرُ عَشْرًا، وَعُثْمَانُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ، وَعَلِيٌّ كَذَا، قال سعيدٌ: قُلْتُ لسَفِينَةَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا لَمْ يَكُنْ بِمُخْلِيفَةٍ، قال: كَذَبَتْ أَسَاطِيرُ بَنِي الزَّرَقَاءِ - يعني: بني مَرْوَانَ - الراوي: سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث: الألباني | المصدر: صحيح أبي داود الصفحة أو الرقم: 4646 | خلاصة حكم المحدث: حسن

وجاء في تفسير ابن كثير وجاء في تفسير القرطبي ان الشعبي قال: كان بين عمر وأبي خصومة ، فتقاضيا إلى زيد بن ثابت ، فلما دخلا عليه أشار لعمر إلى وسادته ، فقال عمر: هذا أول جورك ، أجلسني وإياه مجلسا واحدا ، فجلسا بين يديه .

لَمَّا تَوَفَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ، وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ الْعَرَبِ، قَالَ عُمَرُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، كَيْفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مَنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَنَّا قَدْ كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَاتَلْتَهُمْ عَلَى مَنَعِهَا قَالَ عُمَرُ: فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ

أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْحَقُّ. عرض مختصر.. الراوي : أبو هريرة | المحدث :

البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 6924 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى، فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لِلَّهِ النَّاسُ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْذُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْذُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ [آل عمران: 144]، وَاللَّهُ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يَسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوها. عرض مختصر.. الراوي : عبدالله بن عباس | المحدث :

البخاري | المصدر : صحيح البخاري الصفحة أو الرقم : 1242 | خلاصة حكم المحدث : [صحيح]

قال أبو بكر، بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ ، وَتَضَعُونَهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ وَإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يُعْصِمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي ، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا ، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يَوْشِكُ أَنْ يُعْصِمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ الراوي : أبو بكر الصديق | المحدث : الألباني | المصدر : صحيح

أبي داود الصفحة أو الرقم : 4338 | خلاصة حكم المحدث : صحيح

أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى، فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ لِلَّهِ النَّاسُ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْذُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْذُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ إِلَى الشَّاكِرِينَ [آل

عمران: [144]، والله لكانَّ النَّاسَ لم يَكُونُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَهَا حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ، فَمَا يَسْمَعُ بَشَرٌ إِلَّا يَتْلُوها. عرض مختصر.. الراوي: عبدالله بن عباس | المحدث:

البخاري | المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 1242 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ أَخَذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ حَتَّى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: إِنِّي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطَّابِ شَيْءٌ، فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي فَأَبَى عَلَيَّ، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَتُمُّ أَبُو بَكْرٍ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، فَجَعَلَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَعَّرُ، حَتَّى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَأَسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي؟ مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُؤْذِي بَعْدَهَا. عرض مختصر.. الراوي: أبو الدرداء | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح

البخاري الصفحة أو الرقم: 3661 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

لما بويع أبو بكر بالخلافة بعد بيعة السقيفة تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

(يا أيها الناس، قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتوني على حقٍ فأعينوني، وإن رأيتوني على

باطل فسددوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم. ألا إن أقوام عندي الضعيف حتى أخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى أخذ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم).

أن رجلاً، قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت كأن ميزاناً دلي من السماء، فوزنت بأبي بكر فرجحت بأبي بكر، ثم وزن أبو بكر بعمر، فرجح أبو بكر، ثم وزن عمر بعثمان، فرجح عمر، ثم رفع الميزان، فاستهلها رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء

الراوي: سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم | المحدث: البوصيري | المصدر: إتحاف الخيرة المهرة الصفحة أو الرقم: 11 / 5 | خلاصة حكم المحدث: إسناده صحيح | أحاديث مشابهة | شرح حديث مشابه

أن رجلاً قال: يا رسول الله رأيت كأن ميزاناً دلي من السماء فوزنت فيه أنت وأبو بكر فرجحت بأبي بكر ثم وزن فيه أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر بعمر ثم وزن فيه عمر وعثمان فرجح عمر بعثمان ثم رفع الميزان فاستألفها يعني تأولها ثم قال: خلافة نبوة ثم يؤتي الله الملك من يشاء

الراوي: أبو بكر نفع بن الحارث | المحدث: الألباني | المصدر: تخریج کتاب السنة الصفحة أو الرقم: 1135 | خلاصة حكم المحدث: صحيح

أريت في المنام أني أنزع بدلو بكره على قليب، فجاء أبو بكر فزع ذنوباً، أو ذنوبين نزعا ضعيفاً، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فيه حتى روي الناس، وضربوا بعطن. الراوي: عبدالله بن عمر | المحدث: البخاري | المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو

الرقم: 3682 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة عشية رجم الأسلمي، يقول: لا يزال الدين قائماً

حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ يَكُونَ عَلَيْكُمْ اثْنَا عَشَرَ خَلِيفَةً، كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: عُصْبِيَّةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَفْتَتِحُونَ الْبَيْتَ الْأَبْيَضَ، بَيْتَ كِسْرَى، أَوْ آلِ كِسْرَى. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ كَذَّابِينَ، فَاحْذَرُوهُمْ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: إِذَا أَعْطَى اللَّهُ أَحَدَكُمْ خَيْرًا، فَلْيَبْدَأْ بِنَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ. وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: أَنَا الْفَرَطُ عَلَى الْحَوْضِ. الراوي: جابر بن سمرة | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 1822 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

4.7 مختصر سيرة معاوية بن أبي سفيان

وثبت من طرق عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ما رأيت أحدا أسود من معاوية، قال الراوي: ولا عمر؟ قال: كان عمر خيرا منه، وكان معاوية أسود منه 41. قال الإمام أحمد: "معنى أسود: أي أَسْنَى، وقال: السيّد: الحليم، والسيّد: المعطي، أعطى معاوية أهل المدينة عطايا ما أعطاه خليفة قد كان قبله".

قال عنه عبد الله بن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: ما رأيت رجلاً كان أخلقَ للملك من معاوية. قال قبيصة بن جابر: ما رأيت أحداً أعظم حلماً، ولا أكثر سُودداً، ولا أبعد أناةً، ولا ألين مخرجاً، ولا أرحب باعاً بالمعروف من معاوية. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: ما رأيت أحداً أسود (من السيادة) من معاوية.

وعن أبي الدرداء -رضي الله عنه- أنه قال لأهل الشام: ما رأيت أحداً أشبه صلاة بصلاة رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من إمامكم هذا (يعني: معاوية).

أخرج الطبراني عن سعيد المقبري، قال: قال عمر بن الخطاب: تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!

قال عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- لما وُلَّاهُ الشام: لا تذكروا معاوية إلا بخير؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (اللهم اهد به).

روى البخاري في الصحيح أنه قيل لابن عباس: هل لك في أمير المؤمنين معاوية فإنه ما أوتر إلا بوحدة، قال: إنه فقيه.

ولقد دعى النبي ﷺ لمعاوية تعلم الكتاب والحساب معا فعن العرياض بن سارية أنه قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَدْعُو إِلَى السَّحْرِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: هَلُمَّ إِلَى الْغَدَاءِ الْمُبَارِكِ ثُمَّ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ، وَالْحِسَابَ، وَفِي الْعَذَابِ [7][8][9][10].¹ وفي رواية أخرى: "اللهم علمه الكتاب ومكن له في البلاد وقه العذاب". ولعل هذا فيه الإشارة الكافية لأهمية علم الحساب وأنه من الدين وأنه من أسباب التمكين لأن به يقام العدل في الحكم. ولقد إستجاب الله جل جلاله هذا الدعاء لنبيه ﷺ فقد كان معاوية رضي الله عنه حكيما عدلا حتى عرف بالمهدي عند أئمة التابعين فقد جاء عن مجاهد رحمه الله أنه قال: "لو رأيتم معاوية لقلمت هذا المهدي" ع. وقال قتادة رحمه الله: "لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم: هذا المهدي" ع. وقد ذكر عند الأعمش عمر بن عبد العزيز وعده، فقال الأعمش: "فكيف لو أدركتم معاوية؟ قالوا: يا أبا محمد، يعني في حله؟ قال: لا والله، ألا بل في عدله" ع.

وفيما شجر بين معاوية وعلي رضي الله عنهم يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: وأهل السنة يقولون: إِنَّ عَلِيًّا وَأَصْحَابَهُ هُمُ الْمَصِيبُونَ، وَأَنْ مُعَاوِيَةَ قَدْ أَخْطَأَ، وَأَنْ عَمَلَ مُعَاوِيَةَ عَمَلُ بَغْيٍ، وَلَكِنَّهُ مَجْتَهِدٌ لِّلْمُطَابَلَةِ

¹أحمد: 17152، وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء وابن كثير في البداية والنهاية، والإمام الألباني في السلسلة الصحيحة.

بدم قتلة عثمان، فاجتهد فأخطأ فله أجر الاجتهاد، وسَمَّاهُ النبيُّ: باغيًّا، قال في عمار: تقتل عَمَّارًا الفِئَةُ الباغِيَّةُ، وهم معاوية وأصحابه، قتلوه، فعليُّ وأصحابه هم أهل العدل، ولهم البيعة الصحيحة، والذين مع معاوية بيعتهم غير صحيحة، مجتهدون لهم أجرٌ واحدٌ، رضي الله عنهم وأرضاهم، والواجب الكفُّ عن مساوئهم، والتَّرضي عنهم، والإيمان بأنهم مجتهدون: مَنْ أصاب فله أجران، وَمَنْ أخطأ فله أجرٌ.

4.8 مختصر سيرة عمر بن عبد العزيز

تبدأ قصة عمر بن عبد العزيز مع الخليفة الراشد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عندما نهى في خِلافته عَن مَذَقِ اللَّبَنِ بِالمَاءِ، نَخْرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي حَوَاشِي الْمَدِينَةِ فَإِذَا بِامْرَأَةٍ تَقُولُ لِابْنَةِ لَهَا أَلَا تَمَذِّقِينَ لِبْنِكَ فَقَدْ أَصْبَحَتْ. فَقَالَتْ الْجَارِيَةُ كَيْفَ أَمَذَقَ وَقَدْ نَهَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمَذَقِ. فَقَالَتْ قَدْ مَذَقَ النَّاسُ فَا مَذَّقِي مَا يَدْرِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَتْ إِنْ كَانَ عَمْرٌ لَا يَعْلَمُ فَإِنَّهُ عَمْرٍ يَعْلَمُ، مَا كُنْتُ لِأَفْعَلَهُ وَقَدْ نَهَى عَنْهُ. فَوَقَعَتْ مَقَاتِلَتَا مِنْ عَمْرٍ، فَلَمَّا أَصْبَحَ، دَعَا عَاصِمًا ابْنَهُ فَقَالَ يَا بَنِي أَذْهَبَ إِلَى مَوْضِعٍ كَذَا وَكَذَا فَاسْأَلِ عَنِ الْجَارِيَةِ وَوصفها لَهُ. فَذَهَبَ عَاصِمٌ، فَإِذَا هِيَ جَارِيَةٌ مِنْ بَنِي هِلَالٍ. فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ أَذْهَبَ يَا بَنِي فَتَزَوَّجَهَا، فَمَا أَحْرَاهَا أَنْ تَأْتِيَ بِفَارِسٍ يَسُودُ الْعَرَبَ. فَتَزَوَّجَهَا عَاصِمُ بْنُ عَمْرٍ فَوَلَدَتْ لَهُ بِنْتُ عَاصِمِ بْنِ عَمْرٍ ابْنُ الْخَطَّابِ، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ فَأَتَتْ بِعَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ. وَجَاءَ أَيْضًا أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ ذَاتَ يَوْمٍ اسْتَيْقِظَ مِنْ نَوْمِهِ فَسَحَّ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ وَفَرَكَ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ مِنْ هَذَا الَّذِي مِنْ وَلَدِ عَمْرِ يُسَمَّى عَمْرٍ يُسِيرُ بِسِيرَةِ عَمْرِ يُرَدِّدُهَا مَرَّاتٍ [20]. وَقِيلَ إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ إِنَّ مِنْ وَلَدِي رَجُلًا يُوجِهُهُ شَتْرٌ بِمِثْلِ الْأَرْضِ عَدْلًا [8].

وَوَلَدَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالْمَدِينَةِ فَلَبَّاهُ شَبَّ وَعَقَلَ وَهُوَ غُلَامٌ كَانَ يَأْتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو كَثِيرًا

لقراءة أمه مِنْهُ (خال أمه) وكان يحبه ويحب التشبه به [20]. وروى ضمام بن إسماعيل عن أبي قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير فأرسلت إليه أمه وقالت ما يبكيك؟ قال ذكرت الموت قال وكان يومئذ قد جمع القرآن فبكت أمه حين بلغها ذلك [8]. ونقل الزبير بن بكار عن العتيبي أن أول ما استبين من عمر بن عبد العزيز أن أباه ولي مصر وهو حديث السن يشك في بلوغه فأراد إخراجه فقال يا أبت أو غير ذلك؟ لعله أن يكون أنفع لي ولك أن أبقى في المدينة فأقعد إلى فقهاء أهلها وأتأدب بآدابهم فوجهه إلى المدينة فاشتهر بها بالعلم والعقل مع حداثة سنه [8]. ولما أرادت أم عمر أن تهجر إلى مصر لتلتحق بزوجها عبد العزيز بن مروان الذي كان واليا لمصر، راجعت خالها عبد الله بن عمر رضي الله عنه فطلب منها عبد الله بن عمر ترك عمر بن عبد العزيز في المدينة وقال لها: خَلْفِي هَذَا الْغُلَامَ عِنْدَنَا يُرِيدُ عَمْرَ فَإِنَّهُ أَشْبَهَكُمْ بِنَا أَهْلَ الْبَيْتِ. نَخْلِفْتَهُ عِنْدَهُ. فَنَشَأَ فِي الْمَدِينَةِ وَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ النَّافِعَ مَعَ مَا كَانَ لَهُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ الَّتِي عَرَفَ بِهَا. وَعِنْدَ وَفَاةِ أَبِيهِ، بَعَثَ إِلَيْهِ عَمَهُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَخَلَطَهُ بَوْلَهُ وَقَدَّمَهُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَزَوْجَهُ بَابِنْتَهُ فَاطِمَةَ [8]. جاء عنه أنه دائما ما يفقده رفقاءه فيجدونه يجلس بائكا. وسأله عن ذلك أمير المؤمنين وابن عمه سليمان بن عبد الملك فقال: مَا يَبْكِيكَ يَا أَبَا حَفْصٍ، فَقَالَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَبْكَانِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنِّي ذَكَرْتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَدَّمَ شَيْئًا وَجَدَهُ، وَلَمْ أَقْدَمْ شَيْئًا فَلَمْ أَجِدْ شَيْئًا. وَخَرَجَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَعَهُ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى الْحِجِّ فَأَصَابَهُمْ مَطَرٌ شَدِيدٌ وَرَعْدٌ وَبَرَقَ فَقَالَ سُلَيْمَانُ هَلْ رَأَيْتَ مِثْلَ هَذَا يَا أَبَا حَفْصٍ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا فِي حِينِ رَحْمَتِهِ فَكَيْفَ بِهِ فِي حِينِ غَضَبِهِ [20].

وجاء أيضا أنه ذات ليلة خرج عمر بن عبد العزيز على مركب له يُسِيرُ وَحْدَهُ وَتَبِعَهُ مُرَاحِمٌ فَتَقَدَّمَ عَمْرُ وَتَأَخَّرَ مُرَاحِمٌ فَنَظَرَ مُرَاحِمٌ فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يُسَافِرُ عَمْرَ وَعَهْدَهُ بِهِ وَحْدَهُ وَقَدْ وَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِ عَمْرٍ فَقَالَ مُرَاحِمٌ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَنْ هَذَا إِنْ هَذَا لَذُو دَالَّةٍ عَلَيْهِ فَخَرَكْتُ لِلْخَوْفِ بِهِ فَأَدْرَكْتَهُ فَإِذَا

هُوَ وَحْدَهُ لَا أَرَى مَعَهُ أَحَدًا غَيْرَهُ فَقُلْتُ لَهُ رَأَيْتُ مَعَكَ رَجُلًا آتَانَا قَدْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى عَاتِقِكَ وَهُوَ يُسَلِّرُكَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مِنْ هَذَا إِنْ هَذَا لَذُو دَالَّةٍ عَلَيْهِ فَلِحَقَّتْكَ فَلَمْ أَرِ أَحَدًا غَيْرَكَ فَقَالَ عُمَرُ أَوْقَدْ رَأَيْتَهُ يَا مُزَاهِمَ قَالَ نَعَمْ قَالَ إِنِّي لِأَحْسِبُكَ رَجُلًا صَالِحًا ذَلِكَ يَا مُزَاهِمَ الْخَضِرُ أَعْلَمَنِي أَنِّي سَأَلِي هَذَا الْأَمْرَ وَأَعَانَ عَلَيْهِ [20]. وذكر ذلك الذهبي فقال: عن رياح بن عبيدة قال خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده فقلت في نفسي هذا شيخ جاف فلما صلى ودخل لحقته فقلت له من الشيخ الذي كان يتكئ على يدك فقال يا رياح رأيته؟ قلت: نعم قال ما أحسبك إلا رجلاً صالحاً ذاك أخي الخضر أتاني فأعلمني أني سألي أمر الأمة وإني سأعدل فيها [8].

وولي عمر بن عبد العزيز أميرا على المدينة بأمر الخليفة قبله سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ حَيْثُ أَنَّ سُلَيْمَانَ لَمْ يَسْتَطِعْ تَوْرِيثَ الْمَلِكِ لِلْأَبْنَاءِ لَصِغَرِهِمْ فَكَانَ يَشْكُوهُ فِي مَرَضِهِ وَيَقُولُ: (إِنْ بَنِي صَبِيَّةٌ صَغَارَ، أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ كِبَارٌ) وَ، (إِنْ بَنِي صَبِيَّةٌ صَبِيغُونَ، أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رُبْعِيُونَ). وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَرِدُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) عَارِضًا عَلَيْهِ أَنْ يَحْتَسِبَ ذَلِكَ لِلَّهِ جَلْ جَلَالَهُ إِنْ وَلِيَ غَيْرَهُمْ. فَخُذْتُ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ نَفْسَهُ بِوَلَايَةِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمَّا كَانَ يَعْرِفُ مِنْ حَالِهِ، فَشَاوَرَ رَجَاءً فِيمَنْ يَعْقِدُ لَهُ فَأَشَارَ عَلَيْهِ رَجَاءٌ بِعُمَرَ وَسَدَّدَ لَهُ رَأْيَهُ فِيهِ، فَوَفَّقَ ذَلِكَ رَأْيَ سُلَيْمَانَ وَقَالَ لِأَعْقَدَنَ عَقْدًا لَا يَكُونُ لِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَصِيبٌ فَاسْتَخْلَفَ فِيهِ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَزَيْدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ مِنْ بَعْدِ عُمَرَ. فَلَمَّا لَقِيَ سُلَيْمَانَ رَبَّهُ وَقَضَى اللَّهُ عَلَيْهِ الْمَوْتَ فَقَامَ عُمَرُ حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمُبَرَّ فَنَعَى لِلنَّاسِ سُلَيْمَانَ وَفَتَحَ الْكُتَابَ فَإِذَا فِيهِ اسْتِخْلَافُ عُمَرَ وَزَيْدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ فَسَمِعَ النَّاسُ وَأَطَاعُوا وَقَامُوا فَبَايَعُوا لِعُمَرَ عَبْدِ الْعَزِيزِ. وَجَاءَ أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَدْ رَأَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ قَائِلًا مِنَ السَّمَاءِ يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَقُولُ أَتَاكُمْ الْعَدْلُ وَاللِّينُ وَإِظْهَارُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الْمُصْلِحِينَ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ مَنْ هُوَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ فَتَزَلْ إِلَى الْأَرْضِ وَكُتِبَ بِإِدِهِ عُمَرَ فَاسْتَخْلَفَ عُمَرَ فِي يَوْمٍ

تِلْكَ اللَّيْلَةُ [20].

وجاء أيضا في كتاب سيرة عمر عبد العزيز [20] أنه لما دفن سُلَيْمَان دَعَا عمر بن عبد العزيز بِدَوَاةٍ وَفَرَطَاسٍ فَكُتِبَ ثَلَاثَةُ كُتُبٍ لَمْ يَسْعُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُؤَخِّرَهَا فَأَمَضَاهَا مِنْ فَوْرِهِ فَأَخَذَ النَّاسُ فِي كِتَابِهِ إِيَّاهَا هَتَّالِكُ فِي هَمْزِهِ يَقُولُونَ مَا هَذِهِ الْعَجَلَةُ أَمَا كَانَ يَصْبِرُ إِلَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى مَنْزِلِهِ هَذَا حُبُّ السُّلْطَانِ. فإذا به يعجل بالحكم بالعدل في ثلاث مسائل وهي:

• كَانَ سُلَيْمَانُ قَدْ أَمَرَ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِحَصَارِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ بِرَأْسِ الْبَحْرِ وَأَشْفَى عَلَى فَتْحِهَا ثُمَّ خَدَعَ عَنْهَا حَتَّى أَحْرَزُوا طَعَامَهُمْ وَحَوَائِجَهُمْ ثُمَّ أَغْلَقَهَا دُونَهُ بَعْدَ الْإِشْفَاءِ عَلَيْهَا فَبَلَغَ ذَلِكَ سُلَيْمَانَ فَغَضِبَ مِمَّا فَعَلَ بِهِ فَخَلَفَ أَنْ لَا يَقْفِلَهُ مِنْهَا مَا دَامَ حَيًّا فَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْمَقَامُ وَجَاعُوا حَتَّى أَكَلُوا الدَّوَابَّ مِنَ الْجُحْدِ وَالْجُوعِ حَتَّى يَتَنَحَّى الرَّجُلُ عَنْ دَابَّتِهِ فَتَقَطَّعَ بِالسُّيُوفِ فَبَلَغَ رَأْسُ الدَّابَّةِ كَذَا وَكَذَا دَرَاهِمًا وَلَجَّ سُلَيْمَانُ فِي أَمْرِهِمْ فَكَانَ ذَلِكَ يَغْمُ عُمْرُ فَلَانٍ وَلِي رَأْيٍ أَنَّهُ لَا يَسْعُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَلِي شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ ثُمَّ يُؤَخِّرُ قَفْلَهُمْ سَاعَةً فَذَلِكَ الَّذِي حَمَلَهُ عَلَى تَعْجِيلِ الْكُتُبِ.

• كُتِبَ بِعَزْلِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ التَّنُوخِيِّ وَكَانَ عَلَى خِرَاجِ مِصْرَ وَأَمْرُهُ أَنْ يُجْبَسَ فِي كُلِّ جُنْدٍ سَنَةً وَيُقَيَّدَ وَيَحْلَ عَنِ الْقَيْدِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ ثُمَّ يَرُدُّ فِي الْقَيْدِ وَكَانَ غَاشِمًا ظُلُومًا مَعْتَدِيًا فِي الْعُقُوبَاتِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقْطَعُ الْأَيْدِي فِي خِلَافِ مَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيَشْقُ أَجْوَافَ الدَّوَابِّ فَيَدْخُلُ فِيهَا الْقِطَاعَ وَيَطْرَحُهُمُ لِلتَّمَاثِيحِ فَجَبَسَ بِمِصْرَ سَنَةً ثُمَّ نَقَلَ إِلَى أَرْضِ فَلَسْطِينَ فَجَبَسَ بِهَا سَنَةً ثُمَّ مَاتَ عُمْرُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَوَلِي يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَرَدَّ أُسَامَةَ عَلَى مِصْرَ.

• كُتِبَ بِعَزْلِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي مُسْلَمٍ عَنْ إِفْرِيقِيَّةٍ وَكَانَ عَامِلَ سُوءٍ يَظْهَرُ التَّأَلُّهُ وَالنَّفَازَ لِكُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ السُّلْطَانُ مِمَّا جَلَّ أَوْ صَغُرَ مِنَ السَّيَرَةِ بِالْجَوْرِ وَالْخَالَفَةِ لِلْحَقِّ وَكَانَ فِي هَذَا يَكْثُرُ الذِّكْرُ وَالتَّسْبِيحُ

وَيَأْمُرُ بِالْقَوْمِ فَيَكُونُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ يُعَذِّبُونَ وَهُوَ يَقُولُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَآلِهُ أَكْبَرُ شَدَّ يَا غُلَامَ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا لِبَعْضِ مَوَاضِعِ الْعَذَابِ وَهُوَ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ شَدَّ يَا غُلَامَ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا فَكَانَتْ حَالَتُهُ تِلْكَ شَرَّ الْحَالَاتِ فَكُتِبَ بَعْزُهُ.

وكل هذا فيه أن عمر بن عبد العزيز كان رجلاً عادلاً لا يرضى بالظلم حيث عجل بالعدل والإنصاف عندما تولى الأمر رحمه الله. وجاء عن ميمون بن مهران أنه قال: سمعت عمر بن عبد العزيز يقول لو أقت فيكم خمسين عاماً ما استكملت فيكم العدل إني لأريد الأمر من أمر العامة فأخاف ألا تحمله قلوبهم فأخرج معه طمعاً من طمع الدنيا [8]. وجاء عن عبد الله بن محمد عن الأوزاعي أنه قال كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رسالة لم يحفظها غيري وغير مكحول: أما بعد فإنه من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما ينفعه والسلام [8]. وقال الأوزاعي كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثاً ثم عاقبه كراهية أن يجعل في أول غضبه [8]. وجاء أيضاً أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بن أرطاة عامله على العراق: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك، واعلم أن ما لك عند الله أكثر مما لك عند الناس [21]. وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر: إن رجلاً شتمك فأردت أن أقتله، فكتب إليه عمر عبد العزيز: لو قتلت لأفدتك به، فإنه لا يقتل أحد بشفة أحد إلا رجل شتم نبياً [21].

وبعد أن دفن سليمان وقام عمر بن عبد العزيز بالأمر قربت إليه المراكب، فقال ما هذه، فقالوا مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال يا مراحم ضم هذا إلى بيت مال المسلمين. ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط كانت تضرب للخلفاء أول ما يلون، فقال ما هذه، فقالوا سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط يجلس فيها الخليفة أول ما يلي، قال يا مراحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ثم ركب بغلته. وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي

لم يجلس عليه أحد يفرش للظفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يقضي إلى الحَصِير، ثم قال يا مُراحم ضم هذا لأموال المسلمين. فلما أصبح عمر، قال له أهل سُلَيْمَانَ هذا لك وهذا لنا، قال وما هذا وما هذا، قالوا هذا بما لبس الخليفة من الثياب ومَسَّ من الطيب فهو لولده، وما لم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده وهو لك، قال عمر ما هذا لي ولا لِسُلَيْمَانَ ولا لكم ولكن يا مُراحم ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين. فتشاور عليه وزراء فيما بينهم فقالوا أما المراكب والسراقات والمجر والشوار والوطاء فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمت، وبقيت خصلة هي الجوّاري نعرضن عليه فعسى أن يكون ما تريدون فيهن، فإن كان وإلا فلا طمع لكم عنده. فأني بالجوّاري فعرضن عليه كأمثال الدمي فلما نظر إليهن جعل يسألن واحدة واحدة من أنت، ولمن كنت، ومن بعث بك، فتخبره الجارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت، فيأمر بردهن إلى أهلهن ويحملن إلى بلادهن حتى فرغ منهن. فلما رأوا ذلك أيسوا منه وعلموا أنه سيحمل الناس على الحق. واحتجب من الناس ثلاثاً أيام لا يدخل عليه أحد، ووجه بني مَرْوَانَ وبني أُمَيَّةَ وأشرف الجنود والعرب وغيرهم ببابه ينظرون ما يخرج عليهم منه، فجلس للناس بعد ثلاث أيام وحملهم على شريعة من الحق فعرفوها، فرد المظالم، وأحيا الكتاب والسنة، وسار بالعدل، ورفض الدنيا وزهد فيها، وتجرد لإحياء أمر الله عز وجل فلم يزل على ذلك حتى قبضه الله عز وجل فرحمه الله [20].

وجاء أيضاً أنه لما انصرف عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن الملك تبعه الأمويون، فلما دخل إلى منزله قال له الحاجب: الأمويون بالباب. قال: وما يريدون؟ قال: ما عودتهم الخلفاء قبلك. قال ابنه عبد الملك وهو إذ ذاك ابن أربع عشرة سنة: اتدن لي في إبلاغهم عنك. قال: وما تبلغهم؟ قال: أقول: أبي يقرنكم السلام ويقول لكم إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم [21]. وجاء عن ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز أنه قال لأبيه: يا أبت، مالك لا تنفذ الأمور؟ فوالله ما أبالي لو

أَنَّ الْقُدُورَ غَلَّتْ بِي وَبَكَ فِي الْحَقِّ! قَالَ لَهُ عُمَرُ: لَا تَعْجَلْ يَا بَنِيَّ، فَإِنَّ اللَّهَ ذَمَّ الْخَمْرَ فِي الْقُرْآنِ مَرَّتَيْنِ وَحَرَّمَهَا فِي الثَّلَاثَةِ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ أَحْمِلَ الْحَقَّ عَلَى النَّاسِ جَمْلَةً فَيُدْفَعُونَهُ جَمْلَةً وَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ فِتْنَةً [21]. وهذا فيه أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ ابْنًا صَالِحًا، وَقَدْ جَاءَ أَنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَبِيهِ. فَلَمَّا نَزَلَ بَعْدَ الْمَلِكِ بْنِ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَوْتَ قَالَ لَهُ عُمَرُ: كَيْفَ تَجِدُكَ يَا بَنِيَّ؟ قَالَ أَجِدُنِي فِي الْمَوْتِ، فَاحْتَسِبْنِي، فَتَوَابَ اللَّهُ خَيْرَ لَكَ مِنِّي، فَقَالَ: يَا بَنِيَّ، وَاللَّهِ لَأَنْ تَكُونَ فِي مِيزَانِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ فِي مِيزَانِكَ. قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَنْ يَكُونَ مَا تَحِبُّ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَا أَحِبُّ! ثُمَّ مَاتَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ دَفْنِهِ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ يَا بَنِيَّ فَلَقَدْ كُنْتُ سَارًّا مَوْلُودًا، وَبَارًّا نَاشِئًا، وَمَا أَحَبُّ أَنْيَ دَعْوَتِكَ فَأُجِبْتَنِي؛ فَرَحِمَ اللَّهُ كُلَّ عَبْدٍ، مِنْ حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ، ذَكَرْتُ أَوْ أَنْتَى دَعَا لَكَ بِرَحْمَةٍ! فَكَانَ النَّاسُ يَتَرَحَّمُونَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ لِيَدْخُلُوا فِي دَعْوَةِ عُمَرَ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَدَخَلَ النَّاسُ يَعِزُّونَهُ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي نَزَلَ بَعْدَ الْمَلِكِ أَمَرَ لَمْ نَزَلْ نَعْرِفُهُ، فَلَمَّا وَقَعَ لَمْ نَتَّكِرْهُ [21].

وَجَاءَ عَنْ عُمَرَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ كَانَ لَا يُحِبُّ مَنْ يَقُومُ لَهُ، وَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَامَ النَّاسُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ النَّاسِ إِنْ تَقُومُوا نَقِمَ وَإِنْ تَقْعُدُوا نَقَعَدُ فَإِنَّمَا يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ إِنْ اللَّهَ فَرَضَ فَرَائِضَ وَسَنَ سَنَنَا مِنْ أَخَذَ بِهَا لِحَقٍّ وَمَنْ تَرَكَهَا مُحَقِّقًا وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْحَبَنَا فَلْيَصْحَبْنَا بِخُجَسٍ يُوصِلُ إِلَيْنَا حَاجَةً مِنْ لَا تَصِلُ إِلَيْنَا حَاجَتُهُ وَيَدُلُّنَا مِنَ الْعُدْلِ إِلَى مَا لَا نَهْتَدِي إِلَيْهِ وَيَكُونُ عَوْنًا لَنَا عَلَى الْحَقِّ وَيُؤَدِّي الْأَمَانَةَ إِلَيْنَا وَإِلَى النَّاسِ وَلَا يَغْتَبِ عِنْدَنَا أَحَدًا وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَهُوَ فِي حَرْجٍ مِنْ صَحْبَتِنَا وَالْدُّخُولِ عَلَيْنَا [20]. وجاء عنه أَنَّهُ كَانَ يَرُدُّ الْإِطْرَاءَ فَعَنِ عُمَرُ بْنُ عُثْمَانَ الْحَمَصِيِّ حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ جَعُونَةَ قَالَ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ مِنْ قَبْلِكَ كَانَتْ الْخِلَافَةُ لَهُمْ زَيْنًا وَأَنْتَ زَيْنَ الْخِلَافَةِ فَأَعْرَضَ عَنْهُ [8]. وقال ابن عيينة قال رجل لعمر بن عبد العزيز جزاك الله عن الإسلام خيراً قال بل جزى الله الإسلام عني خيراً [8]. وذات يوم ناداه رجل فقال

يَا خَلِيفَةَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ مَهْ إِنِّي لَمَّا وَلَدْتُ اخْتَارَ لِي أَهْلِي اسْمًا فَمَسُونِي عُمَرُ فَلَوْ نَادَيْتَنِي يَا عُمَرُ أَجَبْتُكَ [٥] فَلَمَّا وَلِيْتُمُونِي أُمُورَكُمْ سَمِعْتُمُونِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَوْ نَادَيْتَنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجَبْتُكَ وَأَمَّا خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَلَسْتُ كَذَلِكَ وَلَكِنْ خَلَفَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ دَاوُدُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَبْهَهُ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) [20].

وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِذْ كَانَ وَالِيَا عَلَى الْمَدِينَةِ إِذَا بَاتَ عَلَى ظَهْرِ الْمَسْجِدِ مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقْرَبْهُ امْرَأَةً إِعْظَامًا لِمَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [20]. ومن حكمه أنه أرجع مبدأ الشورى، فلَمَّا قَدِمَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَدِينَةَ وَنَزَلَ دَارَ مَرْوَانَ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَسَلَمُوا، فَلَمَّا صَلَّى الظُّهْرَ دَعَا عَشْرَةَ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ: عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبَا بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَأَبَا بَكْرٍ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي حَتْمَةَ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ يَسَارٍ، وَوَالِقَاسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ بْنِ رَبِيعَةَ، وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَجَلَسُوا، فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي إِنَّمَا دَعَوْتُكُمْ لِأَمْرٍ تَوْجِرُونَ عَلَيْهِ، وَتَكُونُونَ فِيهِ أَعْوَانًا عَلَى الْحَقِّ، مَا أُرِيدُ أَنْ أَقْطَعَ أَمْرًا إِلَّا بِرَأْيِكُمْ أَوْ بِرَأْيٍ مِنْ حَضَرٍ مِنْكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَحَدًا يَتَعَدَّى، أَوْ بَلَّغَكُمْ عَنْ عَامِلٍ لِي ظُلَامَةً، فَأُخْرِجِ اللَّهَ عَلَى مَنْ بَلَغَهُ ذَلِكَ إِلَّا بِلَغْنِي. فَخَرَجُوا يَجْزُونَهُ خَيْرًا، وَاقْتَرَفُوا [11]. وجاء أيضا أنه لما قدم أنس بن مالك خَادِمَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعِرَاقِ إِلَى الْمَدِينَةِ، كَانَتْ تَعْبِجُهُ صَلَاةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَكَانَ عُمَرُ أَمِيرَهَا، فَصَلَّى أَنَسُ خَلْفَهُ فَقَالَ مَا صَلَّيْتُ خَلْفَ إِمَامٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشْبَهَ صَلَاةَ بِصَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِمَامِكُمْ هَذَا. وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَتِمُّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ وَيُخَفِّفُ الْقُعُودَ وَالْقِيَامَ [11]. وعن عطاء قال كان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ويكون [8].

وكان يكره كل الظالمين وبالأخص المجاح ومن ذلك أن المجاح قد ولي الموسم، فكتب عمر إلى الخليفة يستعفيه أن يمر عليه بالمدينة. فكتب أمير المؤمنين إلى المجاح إن عمر بن عبد العزيز كتب إلي يستعفيني من ممرك عليه فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحى عن المدينة [20]. جاء أيضا حمد بن علي، ثنا أبو العباس بن قتيبة، ثنا إبراهيم بن هشام بن يحيى، حدثني أبي، عن جدي قال: قال عمر: " مَا حَسَدْتُ الْمَجَاحَ عَدُوَّ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ حَسَدِي إِيَّاهُ عَلَى حُبِّ الْقُرْآنِ وَإِعْطَائِهِ أَهْلَهُ، وَقَوْلِهِ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، فَإِنَّ النَّاسَ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تَفْعَلُ [22].

وكان عمر عبد العزيز متبعاً لكتاب الله وسنة نبيه فقال: سَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَوَلَاةُ الْأَمْرِ مِنْ بَعْدِهِ سُنَنًا الْأَخْذَ بِهَا اعْتَصَامٌ بِكِتَابِ اللَّهِ وَقُوَّةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ تَبْدِيلُهَا وَلَا تَغْيِيرُهَا وَلَا النَّظَرُ فِي أَمْرِ خَالَفَهَا مِنْ اهْتَدَى بِهَا فَهُوَ مُهْتَدٍ وَمَنْ اسْتَنْصَرَ بِهَا فَهُوَ مَنْصُورٌ وَمَنْ تَرَكَهَا وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَاهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى وَأَصْلَاهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا [20]. وكان عمر بن عبد العزيز يخطب في قومه بالوعظ والتذكير بأمر الله فتارة يخطب عن التقوى وتارة يخطب عن البعث والتوبة والإستغفار وكان يبيكي على المنبر ويبكي من حوله من الناس. وخطب أيضا: أيها الناس، لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تحييص ما سلف منها بالتوبة منها؛ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ، ذَلِكَ ذِكْرُ لِلذَّاكِرِينَ، وقال عز وجل: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ [21]. وكانت خطبه قصيرة جدا ولكن بالغة ومؤثرة ومن ذلك أنه ذات يوم خطب بالناس فقال أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كتاب فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ألا إني لست بقاض وإنما أنا منفذ لله ولست بمبتدع ولكني متبع ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله عز وجل لست بخيركم وإنما أنا رجل منكم ألا وإني أثقلكم حملا

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ آدَاءَ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابَ الْمُحَارِمِ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ [20]. فأحبه الناس لما كان فيه من خير، ومن ذلك أن سهيل بن أبي صالح قال: كنت مع أبي غداة عرفة فوقفنا لننظر لعمر ابن عبد العزيز وهو أمير الحاج فقلت يا أبتاه والله إني لأرى الله يحب عمر قال لم؟ قلت: لما أراه دخل له في قلوب الناس من المودة وأنت سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ: "إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إن الله قد أحب فلانا فأحبه" (صحيح البخاري، صحيح مسلم) [8].

وكان عمر بن عبد العزيز يخاف الله، وسئلت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر بن عبد العزيز عن عبادة عمر فقالت والله ما كان بأكثر الناس صلاة ولا أكثرهم صياما ولكن والله ما رأيت أحدا أخوف لله من عمر لقد كان يذكر الله في فراشه فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف حتى نقول ليصبحن الناس ولا خليفة لهم [20]. وقرأ عمر بن عبد العزيز بالناس ذات ليلة (والليل إذا يغشى) فلما بلغ (فأنذرتكم نارا تلظى) خنقته العبرة فلم يستطع أن ينفذها فرجع حتى إذا بلغها خنقته العبرة فلم يستطع أن ينفذها فتركها وقرأ سورة غيرها [20]. وكان رضي الله عنه رحيفا بالمسلمين، ومن ذلك أنه كتب على أبي بكر بن حزم إن كل من هلك وعليه دين لم يكن دينه في خرقه فأقض عنه دينه من بيت مال المسلمين [20]. كان بتعاهد رعيته بالنصيحة، وعند وقوع الزلازل كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار إن هذه الرجفة شيء يعاتب الله به العباد وقد كنت كتبت إلى أهل بلد كذا وكذا أن يخرجوا يوم كذا فكن استطاع أن يتصدق فيلعل فإن الله عز وجل يقول (قد أفلح من تزكى) وقال قولوا كما قال أبوك آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقولوا كما قال نوح (وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) وقولوا كما قال موسى (رب إني ظلمت نفسي فأغفر لي) [20].

ولقد عرف الناس الغنى في زمن عمر بن عبد العزيز ومن ذلك أن يحيى بن سعيد قال بَعَثَنِي عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقضيتها وطلبت فقراءً نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ولم نجد من يأخذها مني قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم وولاهم للمسلمين [20]. ومن عدله أنه قال لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار صولحتم عليه، ولا تحدثن كنيسة ولا بيت نار، ولا تجر الشاة إلى مذبجها، ولا تحدوا الشفرة على رأس الذبيحة، ولا تجمعوا بين الصلاتين إلا من عذر [11].

قال معاوية بن يحيى: حدثنا أروطة قال: قيل لعمر بن عبد العزيز: لو جعلت على طعامك أمينا لا تغتال وحرصيا إذا صليت وتتح عن الطاعون، قال اللهم إن كنت تعلم أني أخاف يوما دون يوم القيامة، فلا تؤمن خوفي [8]. وقد سمع عمر عبد العزيز وشاع بين الناس أنه سحر، فعن معروف بن مشكان عن مجاهد قال لي عمر بن عبد العزيز ما يقول في الناس؟ قلت: يقولون مسحور، قال ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاما له فقال ويحك ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال وقال اذهب حيث لا يراك أحد [8]. وجاء عن زياد عن مالك قال: دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال، وتركتهم عالة. ولا بد لهم من شيء يصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيتك مؤنتهم إن شاء الله. فقال عمر أجلسوني. فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالفقر تخوفني يا مسلمة؟ أما ما ذكرت أني فطمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقا هو لهم، ولم أعطهم حقا هو لغيرهم؛ وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسرا وورقه من حيث لا

يتحسب، ورجل غير وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه. ادعوا لي بنيّ، فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً، فجعل يصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع ثم قال: بنفسي فتية تركتهم ولا مال لهم! يا بني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تَمُوتون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بنيّ، ميّلت رأيي بين أن تفتتروا في الدنيا وبين أن يدخل أبؤكم النار، فكان أن تفتتروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار، قوموا يا بنيّ عصمكم الله ورزقكم! قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر [21]. وعن عبيد بن حسان قال لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال اخرجوا عني فقعده مسلة وفاطمة على الباب فسمعوه يقول مرحبا بهذه الوجوه ليست بوجوه إنس ولا جان ثم تلا: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ القصص ثم هدأ الصوت فقال مسلة لفاطمة قد قبض صاحبك فدخلوا فوجدوه قد قبض [8]. وروى عن يوسف بن ماهك قال بينا نحن نسوي التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذا سقط علينا كُتَاب رَق من السماء فيه بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار. وقال الذهبي عن هذا: مثل هذه الآية لو تمت لنقلها أهل ذاك الجمع ولما انفرد بنقلها مجهول مع أن قلبي منشرج للشهادة لعمر أنه من أهل الجنة [8].

مات عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لخمس بقين من رجب بدير سمعان في سنة إحدى ومائة، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر، وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر، ومات بدير سمعان [11]. وقال هشام لما جاء نعيه إلى الحسن قال مات خير الناس [8]. فترك ورائه سيرة عطرة رحمه الله، فقال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء: وكان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين رحمة الله عليه. وخلص سيرته فقال: قد كان هذا الرجل حسن الخلق والخلق، كامل العقل، حسن السميت، جيد السياسة حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، ظاهر الذكاء والفهم، أواهاً منياً قاتناً لله

حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملوه وكرهوا محاققته لهم ونقصه أعطياتهم وأخذه كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حق، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين [8]. وقال عنه ميمون بن مهران إن الله كان يتعاهد الناس بنبي بعد نبي وإن الله تعاهد الناس بعمر بن عبد العزيز [8]. وقال حرملة سمعت الشافعي يقول للخلفاء خمسة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز وفي رواية الخلفاء الراشدون وورد عن أبي بكر بن عياش نحوه وروى عباد بن السماك عن الثوري مثله [8]. وعن عبد الرحمن بن زيد عن عمر بن أسيد قال والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول اجعلوا هذا حيث ترون فما يرح يرجع بماله كله قد أغنى عمر الناس [8]. وقال فيه حماد بن واقد سمعت مالك بن دينار يقول الناس يقولون عني زاهد إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتمته الدنيا فتركها [8]. وفي الزهد لابن المبارك أخبرنا إبراهيم بن نشيط حدثنا سليمان بن حميد عن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبد الملك فقال ألا تخبريني عن عمر؟ قالت ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استخلف [8]. وعن ابن المبارك عن هشام بن الغاز عن مكحول لو حلفت لصدقت ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز [8].

وولي يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة [21]. فزاد الظلم بعد ذلك.

4.9 الحساب في زمن الحكم الرشيد

البحث والعناية بعلم الحساب هو غاية جلييلة ومهمة عظيمة أعتنى بها المسلمون اللاحقون في زمن الخليفة الراشد هارون الرشيد التي أسس دار الحكمة في بغداد العراق حتى أصبح المسلمين في ذلك الوقت روادا في علم الحساب والذي كان مفتاحا لهم لشتى العلوم الأخرى حتى عرف ذلك الزمان بالعصر الإسلامي الذهبي. ومن أبرز من بحث وألف في علم الحساب هو العالم الفذ محمد بن موسى الخوارزمي رحمه الله تعالى والذي وصل صيته أقطاب الأرض حتى دخل أسمه معاجم وقواميس كافة اللغات الأخرى. فاللوغرتميات جاءت من الترجمة اللاتينية لإسمه وهو ما عرف عند العرب المتأخرين بالخورزميات. وهذا مفهوم يبنى عليه كافة الحسابات المركبة والمعقدة التي نراها اليوم من أنظمة الحساب والمنطق بشتى أنواعها بما فيها أنظمة الصواريخ والطيران وحتى أنظمة الذكاء الاصطناعي. وقد ألف الخوارزمي كتابه "المختصر في الجبر والمقابلة" وكان هذا الكتاب نافعا للمسلمين وغيرهم وهو أساس تقدم البشرية في شتى المجالات إلى يومنا هذا. ولهذا سمي علم الموازنة والمقابلة بعلم "الجبر" كما سماه الخوارزمي بذلك وتمت إضافة كلمة "الجبر" أيضا إلى كافة معاجم اللغات الأخرى. ويعتبر الخوارزمي إلى يومنا هو مؤسس علم الجبر والحساب والخورزميات ومن أهم علماء الحساب في تاريخ البشرية.

وللأسف فقد غاب وغيب على أغلب المسلمين في زماننا هذا أهمية ميراث الخوارزمي في علم الجبر والحساب. وهو ميراث حري بنا جمع شتاته وإعادة بناء أركانه لتقوم الأمة بالميزان الذي أمرنا الله به. فقد جهل الكثير من المسلمين ميراث الخوارزمي حتى بخس قدره ونسي علمه فكان بين مفرط أو مدلس. ومن ذلك ضياع كتابه في الجبر والمقابلة من المسلمين حتى تمت طباعة أول نسخة عربية منه في عام 1939م (1357هـ) بناء على النسخة الأصلية الوحيدة التي سرقت من مصر ونقلت إلى بريطانيا

والتي يرجع تاريخها إلى عام 1439م (843هـ) أي بعد وفاة الخوارزمي بحوالي 500 عام شمسية. ليرجع لنا كتاب الخوارزمي بعد حوالي ألف عام من تأليفه. وفي كل هذه الأعوام ترجم كتابه إلى شتى اللغات ومنها الإنجليزية والألمانية والفرنسية وأصبحت مرجعا لجميع الحضارات الأوروبية وغيرها. ليتفاجأ المسلمون بوجود كلمات عربية في هذه الثقافات ومنها algorithms والتي تعني الخوارزميات وكلمة algebra وهي الجبر في معجم اللغة الإنجليزية على سبيل المثال لا الحصر.

ومن التدليس الذي تعرض له الخوارزمي في تقديم كتابه هو نسبة عمله إلى الحضارة المصرية في طرح مخالف للطرح الذي وضعه الخوارزمي في كتابه. وهذا ليس إلا إحقاقا للحق ولا يجب أن يحمل هذا على محمل الإستنقاص لمن نقل هذا العمل لنا تقديما وتعليقا فجزاهم الله خير الجزاء. ومن التدليس أيضا طرح كتابه في الحساب مجردا من الغاية التي كتب لها ومنه عدم ذكر سبب تأليف كتابه في الجبر والذي كان في الأساس سعيًا منه رحمه الله لتحقيق الحكم الرشيد بناء على الحساب الصحيح في الميراث والبيع والشراء والكرء وما يتعلق بذلك من حساب المسافات والأرض. ولتبيين طرح الخوارزمي نضع مقدمة كتابه رحمه الله والتي جاء فيها:²

²مع تصريف يسير من حذف لكلمات التي تخالف السياق وفي الغالب قد يظن انها أخطاء خلال النسخ.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب وضعه محمد بن موسى الخوارزمي افتتحه بأن قال:

الحمد لله على نعمه بما هو أهله من محامده التي بأداء ما افترض منها على من يعبد من خلقه يقع اسم الشكر ويستوجب المزيد إقرارا بروبوته وتذلا لعزته وخشوعا لعظمته. بعث محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنبوة على حين فترة من الرسل نورا من الحق ودروس من الهدى فبصر به من العمى واستنقذ به من الهلكة وكثر به بعد قلة وألف به بعد الشتات.

تبارك الله ربنا وتعالى جده وتقدست أسمائه ولا إله غيره، وصلى الله على محمد النبي وآله وسلم. ولم تزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب مما يصنفون من صنوف العلم ووجوه الحكمة نظرا لمن بعدهم واحتسابا للأجر بقدر الطاقة ورجاء أن يلحقهم من أجر ذلك وذخره وذكره ويبقى لهم من لسان صدق ما يصغر في جنبه كثير مما كانوا يتكفلونه من المؤونة ويحملونه على أنفسهم من المشقة في كشف أسرار العلم وغامضه. إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجا قبله فوريته من بعده. وإما رجل شرح مما أبقي الأولون ما كان مستغلقا فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه. وإما رجل وجد في بعض الكتب خلا فلما شعثه وأقام أوده وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه.

وقد شجعتني ما فضل الله به الامام المأمون أمير المؤمنين مع اخلافة التي حاز له إرثها وأكرمه بلباسها وحلاه بزينتها. من الرغبة في الأدب وتقريب أهله وإدنائهم وبسط كنفه لهم ومعونته إياهم على إيضاح ما كان مستبهما وتسهيل ما كان مستوعرا. على أن ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابا مختصرا حاصرا للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجارتهم. وفي جميع ما يتعاملون به بينهم من مساحة الأرضين وكرى الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوه وفنونه. مقدما لحسن النية فيه وراجيا لأن ينزله أهل الأدب بفضل ما استودعوا من نعم الله تعالى وجليل آلائه وجميل بلائه عندهم منزلة وبالله توفيتي في هذا وغيره عليه توكلت وهو رب العرش العظيم وصلى الله على جميع الأنبياء والمرسلين.

وعليه يعلم أن الخوارزمي رحمه الله إنما ألف كتابه هذا لتوضيح علم الحساب الصحيح الذي يحتاج إليه الناس في أمور دينهم ودنياهم. فقد إفتح الخوارزمي رحمه الله كتابه بالبسملة متبعا سنة الأنبياء في ذلك. وكان رحمه الله حريصا وراجيا بأن يعتنى أهل الأدب بهذا الكتاب ويعطونه حقه وينزلونه منزلته لما علم ما فيه من أسس وقواعد لا غنى عنها في علم الحساب الصحيح. وختم مقدمته سائلا الله التوفيق في ذلك ومتوكلا عليه. وبهذا يتبين حسن مقصد الخوارزمي من تأليف كتابه فنسأل الله العلي العظيم أن يرحمه رحمة واسعة وأن يرفع قدره في الجنة وأن يجزيه عنا خير الجزاء.

فبدأوا بالعناية بعلم الحساب وجمع مؤلفاته من كافة أقطاب الدنيا فعكفوا على ترجمتها حتى فهموها وعقلوها وعرفوا ما شابهها من خطأ ونقصان. فأسسوا نظام الأرقام الذي نعرفه اليوم فقسّموا الأرقام إلى أرقام فردية وأسسوا علم الجبر وحساب المثلثات وغيرها من علوم الحساب بشكل لم تعرفه البشرية من قبل. وكان ذلك سببا في تحقيق الحكم الرشيد في المعاملات والبيع والشراء والكراء. فكان علم الحساب مفتاحا في تطور المسلمين في شتى مجالات الدنيا ومنها مجال الهندسة والطب في العصر الإسلامي الذهبي.

يعتبر المسلمون هم من وضع أسس العلم الحديث في زمن هارون الرشيد الذي أسس دار الحكمة في بغداد لتكون في ذلك الزمان عاصمة الحضارة في العلم حيث عرف هذا العصر بالعصر الإسلامي الذهبي. وبفضل التأمل والنظر في آيات القرآن الكريم الدالة على تعلم العدد والحساب وإقامة الوزن بالقسط وأن كل شئ خلق بقدر، استطاع المسلمون التفوق على غيرهم من الأمم الأخرى في علم الحساب فكانوا هم أول من أسس علم الجبر والمقابلة وكان ذلك على يدي العالم الجليل محمد بن موسى الخوارزمي -رحمه الله تعالى- الذي نُسبَ فضلُه ووضِعَ علمُه بين إفراط وتفریط. ولقد بين شيخ الإسلام بن تيمية أن أهل السنة في زمانه قد اعتنوا بالنظر في علم الجبر والمقابلة الذي أسسه الخوارزمي وأشار

إلى أهمية هذا العلم في العلم الشرعي ومن ذلك قوله: "وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ مُتَأَخَّرِي أَصْحَابِنَا يَشْتَغِلُونَ وَقْتَ بَطَالَتِهِمْ بِعِلْمِ الْفَرَائِضِ وَالْحِسَابِ وَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَالْهَنْدَسَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ فِيهِ تَفَرُّجًا لِلنَّفْسِ وَهُوَ عِلْمٌ صَحِيحٌ لَا يَدْخُلُ فِيهِ غَلْطٌ. وَقَدْ جَاءَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا هَوَّتُمْ فَأَلْهَوْا بِالرِّمِيِّ وَإِذَا تَحَدَّثْتُمْ فَتَحَدَّثُوا بِالْفَرَائِضِ. فَإِنَّ حِسَابَ الْفَرَائِضِ عِلْمٌ مَعْقُولٌ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِ مَشْرُوعٍ فَتَبَقَى فِيهِ رِيَاضَةُ الْعَقْلِ وَحِفْظُ الشَّرْعِ" [12].³ وكل هذا فيه اهتمام السلف بهذا العلم العظيم في أوقات فراغهم رغم إنشغالهم بالأمور العظيمة الأخرى في بيان الحق ورد البدع والشبهات التي عصفت في ذلك الزمن كعلم الكلام والفلسفة التي تخالف صريح كتاب الله جل جلاله وسنة نبيه ﷺ.

وينسب لشيخ الإسلام قوله عن الخوارزمي: "وإن كان علمه صحيحاً إلا إن العلوم الشرعية مستغنية عنه وعن غيره". ولكن هذا القول لم يثبت عن شيخ الإسلام في حق الخوارزمي. بل هذا من التدليس والتفريط في هذا العلم العظيم الذي ابتلينا به في زماننا. وإنما كان شيخ الإسلام يرد على من غلى في علم الحساب وأراد أن يجعل الشريعة متوقفة عليه من غلاة المنطق، فقال في ذلك: "وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ يُمْكِنُ الْجَوَابُ عَنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ شَرْعِيَّةٍ جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدُونِ حِسَابِ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ. وَإِنْ كَانَ حِسَابُ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ صَحِيحًا فَتَحْنُ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ شَرْيْعَةَ الْإِسْلَامِ وَمَعْرِفَتَهَا لَيْسَتْ مَوْقُوفَةٌ عَلَى شَيْءٍ يَعْلَمُهُ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ أَصْلًا وَإِنْ كَانَ طَرِيقًا صَحِيحًا. بَلْ طَرِيقُ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ فِيهَا تَطْوِيلٌ. يُغْنِي اللَّهُ عَنْهُ بَغْيَهُ كَمَا ذَكَرْنَا فِي الْمَنْطِقِ. وَهَكَذَا كُلُّ مَا بُعِثَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ الْعِلْمِ بِجَهَةِ الْقِبْلَةِ وَالْعِلْمُ بِمَوَاقِيتِ الصَّلَاةِ وَالْعِلْمُ بِطُلُوعِ الْفَجْرِ وَالْعِلْمُ بِالْهَلَالِ؛ فكلُّ هَذَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِهِ بِالطَّرِيقِ الَّتِي كَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ يَسْلُكُونَهَا وَلَا يَحْتَاجُونَ مَعَهَا إِلَى شَيْءٍ آخَرَ" [12].⁴

³ مجموع الفتاوى 9/129.

⁴ مجموع الفتاوى 9/215.

وقد ذكر شيخ الإسلام إعتناء أهل السنة في زمانه بالعلوم الصادقة ومنها الجبر والمقابلة وخص الخوارزمي في ذلك فقال: "لِهَذَا يَرَعِبُ كَثِيرٌ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ فِي النَّظَرِ فِي الْعُلُومِ الصَّادِقَةِ الدَّقِيقَةِ كَالْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ وَعَوِيصِ الْفَرَائِضِ وَالْوَصَايَا وَالْأُورُوهِ وَهُوَ عِلْمٌ صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ [٥] وَأَمَّا "حِسَابُ الْفَرَائِضِ" فَعَرَفَهُ أَصُولُ الْمَسَائِلِ وَتَصَحِيحُهَا وَالْمُنَاسَخَاتُ وَقِسْمَةُ التَّرِكَاتِ. وَهَذَا الثَّانِي كُلُّهُ عِلْمٌ مَعْقُولٌ يَعْلَمُ بِالْعَقْلِ كَسَائِرِ حِسَابِ الْمُعَامَلَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا النَّاسُ. ثُمَّ قَدْ ذَكَرُوا حِسَابَ الْمَجْهُولِ الْمُلْقَبَ بِحِسَابِ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ فِي ذَلِكَ وَهُوَ عِلْمٌ قَدِيمٌ لَكِنَّ إِدْخَالَهُ فِي الْوَصَايَا وَالْأُورُوهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَوَّلَ مَنْ عَرَفَ أَنَّهُ أَدْخَلَهُ فِيهَا مُحَمَّدٌ بْنُ مُوسَى الْخَوَارِزْمِيُّ. وَبَعْضُ النَّاسِ يَذْكُرُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِيهِ وَأَنَّهُ تَعَلَّمَ ذَلِكَ مِنْ يَهُودِيٍّ وَهَذَا كَذِبٌ عَلَى عَلِيٍّ". [12] ٥

سيرة هارون الرشيد المحيدان

الفوزان

كلام الفوزان في المأمون غرر به المعتزلة

ومن الحكم الرشيد مصالحة الكفار لدرء المفسد كما في العهد المكي وفيه ايضا ان النجاشي لم يكن مسلم ولا يظلم عنده أحد فهو حقق العدل

4.10 عودة الحكم الرشيد في آخر الزمان

فقال: يا أبا بكر، حدثني بشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الرؤيا الصالحة ويسأل عنها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم: "أيكم رأى رؤيا؟" فقال رجل: أنا يا رسول الله، رأيت كأن ميزانا دلي من السماء، فوزنت أنت بأبي

بكر فرجحت بأبي بكر، ثم وزن أبو بكر بعمر، فرجح أبو بكر بعمر، ثم وزن عمر بعثمان، فرجح عمر بعثمان، ثم رفع الميزان، فاستاء لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: " خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء "، قال عفان فيه: فاستألفها، (١) وقال حماد: فساءه ذلك (٢) ﴿

فقال حذيفة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء (٣) أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا، فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة " (٣) ثم سكت،



قال: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْتُمُونَ. قالوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قال: فُوا بَبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَالْأَوَّلِ، أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ.

يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعدده. الراوي: أبو سعيد الخدري وجابر بن عبد الله | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 2913 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

من خلفائكم خليفة يحثو المال حثيا، لا يعدده عددا. وفي رواية ابن حجر: يحثي المال. الراوي: أبو سعيد الخدري | المحدث: مسلم | المصدر: صحيح مسلم الصفحة أو الرقم: 2914 | خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

4.11 معادلات

فيما يلي مثال على معادلة رياضية:

$$E = mc^2 \quad (1)$$

ومثال آخر على معادلة معقدة:

$$\int_0^\infty e^{-x^2} dx = \frac{\sqrt{\pi}}{2} \quad (2)$$

4.12 نص الفصل الأول - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الأول تحتوي على نص إضافي لتوضيح كيفية تنسيق النصوص في كتب اللاتكس باللغة العربية.

4.13 نص الفصل الأول - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الأول تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

الحساب الشرعي

5.1 مقدمة

هذه المقدمة للفصل الأول.

5.2 الحساب داخل في المعاملات

ومن رحمة الله بنا أنه أباح لنا التعامل بالمكيل حجماء وبالميزان وزناً، وبالحساب عدا لكل ما هو قابل للقياس كالجم والوزن وغير ذلك. ومن حكمة الله وعدله أنه كلفنا ووصانا بالوفاء والقسط في ذلك كله كما جاء في العديد من الآيات منها قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ (الإسراء). وكل هذا حتى يتدرج الناس في إقامة العدل بسحب ما يستطيعون وبحسب ما علموا كما في قوله تعالى: وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا (الأنعام: 152).

ولقد عرف الناس قديماً الكيل لسهولته فيقاس بالصاع أي الحجم الثابت دون الحاجة إلى الميزان كما

كان شائعاً في عهد يوسف عليه السلام حيث قال لأخوته: أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكِيلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ (يوسف). ولم يأتي ذكر الميزان في قصة يوسف عليه السلام فدل ذلك على أن الميزان لم يكن شائعاً في ذلك الزمان ولكن يوسف عليه السلام كان عالماً بالحساب أيضاً كما سيأتي بيانه فأوفى الكيل بالعد والحساب وهذا من تمام حفظه وعلمه عليه السلام. ومما يدل على أن يوسف عليه السلام أقام الكيل بالحجم لا بالوزن هو استخدامه عليه السلام للسقاية وهي صواع الملك. وجاء في تفسير بن كثير رحمه الله تعالى أن السقاية هي إناء من فضة أو من ذهب وهي نفسها صواع الملك وهو صاعه الذي يكيل به ﴿١٤﴾.

ويكثر التعامل بالمكيال عند المزارعين لسهولة بينما يكثر التعامل بالميزان عند التجار لدقته. وقد أدرك ذلك النبي ﷺ وأقره في قوله: الْمِكْيَالُ مِكْيَالُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، والمِيزَانُ مِيزَانُ أَهْلِ مَكَّةَ^١. وهذا لأن أهل مكة عرفوا بالتجارة وأن أهل المدينة عرفوا بالزراعة. وأما في زماننا هذا فقد أصبح التعامل بالميزان والحساب أكثر من التعامل بالمكيال بسبب تطور العلوم والتكنولوجيا والتجارة. ولكن يبقى التعامل بالمكيال والميزان والحساب موجوداً ومطلوباً في كل المعاملات.

ومن المعلوم بالقياس أن الوزن يثبت والحجم يتغير وهذا لأن الأشياء في أصلها تثبت بالوزن ولكن قد تتغير في الحجم بحسب ما تتعرض له من حرارة أو ضغط أو غير ذلك من الظروف الأخرى. ولهذا العديد من قوانين الفيزياء في أصلها تبنى على ثبات الوزن كما هو معروف لأهل هذا التخصص. وهذا فيه فضل الميزان بالوزن على المكيال بالحجم فيكون الميزان أفضل وأكمل من المكيال. ومن كمال عدل الله أنه يحاسب المكلفين يوم القيامة بالميزان لا بالكيل كما في قوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

^١صححة الألباني في هداية الرواة.

(الأنبياء). فجعل سبحانه العبرة في يوم الحساب بالوزن الذي يقدر بالميزان وليس بالحجم الذي يقدر بالمكّال. ولهذا فقد قال النبي ﷺ: إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزُنُّ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ، وَقَالَ اقْرَأُوا: فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ (الكهف: 105) ﴿١٥﴾ [15]،² وهذا فيه أيضا أن موازين القسط ليوم القيامة ليس بالحجم والشكل وإنما بالوزن لما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والتي توافق ما شرعه الله لعباده وهذا هو الميزان الشرعي كما سيأتي بيانه.

5.3 أمثلة حسابية من القرآن والسنة

5.3.1 مكوث أهل الكهف

يقول جل جلاله عن مدة مكوث أهل الكهف في سورة الكهف: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا ﴿٢٥﴾ الكهف. فقد يسأل السائل لماذا جاء النص مع "وازدادوا تسعا" وهذا فيه الحكمة البالغة منه سبحانه. فن المعلوم أن الرسول ﷺ كان مخاطبا لأهل الكّاب وأن أهل الكّاب يستعملون السنوات الشمسية وأما المسلمين فهم يستعملون السنوات القمرية. فالمطلوب هنا حساب المدة بعدد السنوات الشمسية ليوافق ذلك حساب أهل الكّاب وتحويل ذلك إلى عدد السنوات القمرية الذي يستعمله المسلمين في تاريخهم. وبالحساب الصحيح يتبين الأتي:

عدد الأيام في السنة القمرية = 354 يوم

عدد الأيام في السنة الشمسية = 365 يوم

وبهذا يكون الفارق في عدد الأيام بينهما = 11 يوم

² صحيح البخاري: 4710، صحيح مسلم: 2785.

وعليه يكون في المئة سنة شمسية 36500 يوم وفي المئة سنة قمرية 35400 يوم. الفارق هو 1100 يوم. بتقسيم هذا الفارق على 354 نجد أن الفارق هو 3 سنوات قمرية. وبهذا يعلم أن لكل 100 سنة شمسية توجد 103 سنة قمرية تقريبا. وعليه يكون في كل 300 سنة شمسية هناك 309 سنة قمرية. ويكون الفارق هو فقط تسعة سنوات ولهذا جاء لفظ "وازدادوا تسعا" للبيان فهي 300 سنة شمسية بالنسبة لأهل الكتاب وزيادة عليها 9 سنوات لتوافق بذلك 309 سنة قمرية بالنسبة للمسلمين. وهذا ما يعرف في علم الحساب بوحدة قياس الأعداد. فبالحساب يمكن تحويل وحدة قياس من نوع إلى آخر. وفي هذا المثال كانت وحدة القياس هي الزمن وبه علم التحويل من القياس الشمسي إلى القياس القمري والاختلاف بينهما لا يعني التعارض بل لكل وحدة قياس حسابها الخاص. وهذا فيه بيان حكمة الله وعلوه سبحانه وأن كلامه هو الحق لهذا جاء بعد هذه الآية قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا^ط لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ^ج مَا لَّهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ الكهف. ويقول ابن كثير في تفسير الآية التي ذكر فيها عدد السنوات: هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: (وازدادوا تسعا) [هـ].

5.3.2 مكوث الوحي من عيسى عليه السلام إلى محمد ﷺ

وفي مثال آخر يشه المثال السابق في تفسير قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ^ط فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ^ق وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

﴿١٩﴾ المائدة. يقول ابن كثير في تفسيره عن هذا: (على فترة من الرسل) أي: بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم. وهو أنه ستمائة سنة. ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة. ولا منافاة بينهما، فإن القاتل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أراد قرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين؛ ولهذا قال تعالى في قصة أصحاب الكهف: وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ الكهف. أي: قرية، لتكميل الثلاثمائة الشمسية التي كانت معلومة لأهل الكتاب [هـ]. ولهذا فقد فهم المفسرين رحمهم الله بالقران الفرق بين عدد السنوات الشمسية والقمرية كما تقدم. وفيه أيضا عناية السلف رحمهم الله بالحساب وحساب الزمن وتحويله من وحدة قياس إلى أخرى.

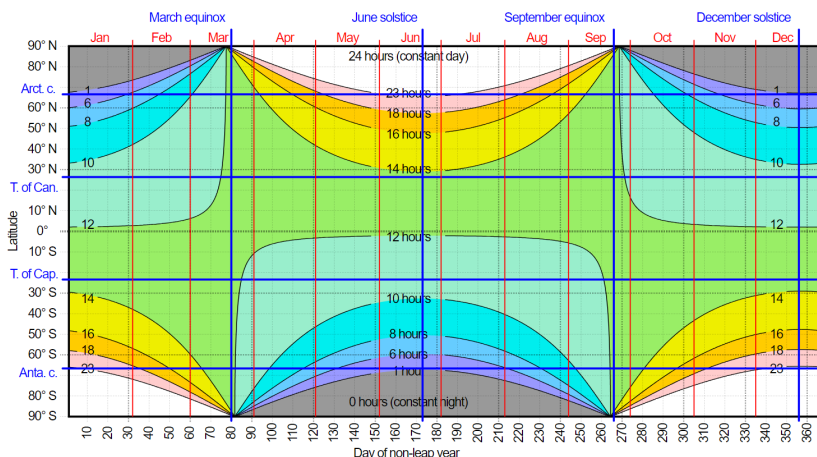
5.3.3 عدد ساعات اليوم واللييلة

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: يَوْمُ الْجُمُعَةِ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً، لَا يُوجَدُ فِيهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا إِلَّا آتَاهُ إِيَّاهُ فَالْتَمِسُوهَا آخِرَ سَاعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ. (أبو داود (1048)، والنسائي (1389) وصححه الألباني). وفيه أن النبي ﷺ علم أن عدد ساعات اليوم بالمتوسط هو 12 ساعة. فإن كان لعدد ساعات اللييلة مثل ذلك كانت عدد ساعات اليوم واللييلة معا 24 ساعة. وهذا ما أعتاد عليه الناس في زماننا من حساب عدد ساعات اليوم واللييلة. فإن ساعات اليوم واللييلة تطول وتقصر خلال العام وتتغير بتغير المكان ولكن بالإجمال فهي 24 ساعة. وهذا فيه دليل نبوته ﷺ ففي زمانه لم يكن هناك الساعات الدقيقة التي نعرفها اليوم.

وعدد ساعات اليوم والليل تضبط بالتاريخ الشمسي كما موضح في

وكما موضح أن الأماكن القريبة من القطبين يغيب فيها النهار أو الليل خلال 24 ساعة وبهذا

يمضي اليوم كاملا ويتعذر ضبط أوقات الصلاة بالطريقة المعتادة. وقد رخص أهل العلم على جواز ضبط وقت الصلاة فيها كما اعتاد الناس في سائر أوقات السنة أو قياسا على غيرها من الأماكن. فعَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكَلَابِيِّ، قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَالَ فَقَالَ "إِنْ يَخْرُجُ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَاجِبُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجُ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَأَمْرُكُمْ حَاجِبُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فَمَنْ أَدْرَكَكُمْ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ فَإِنَّهَا جَوَارُكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ". قُلْنَا وَمَا لُبُّهُ فِي الْأَرْضِ قَالَ "أَرْبَعُونَ يَوْمًا يَوْمٌ كَسَنَةٌ وَيَوْمٌ كَشْهَرٌ وَيَوْمٌ جُمُعَةٌ وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ". فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَتْ أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةٌ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ قَالَ "لَا أَقْدِرُوا لَهُ قَدْرَهُ ثُمَّ يَنْزِلُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ فَيُذَرِّكُهُ عِنْدَ بَابٍ لِدِ فَيَقْتُلُهُ (صححه الألباني). وفي هذا يقول الشيخ ابن باز رحمه الله: الواجب على سكان هذه المناطق التي يطول فيها النهار أو الليل أن يصلوا الصلوات الخمس بالتقدير إذا لم يكن لديهم زوال ولا غروب لمدة أربع وعشرين ساعة، كما صح ذلك عن النبي ﷺ في حديث النواس بن سمعان، المخرج في صحيح مسلم في يوم الدجال الذي كسنته، سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: اقدروا له قدره. وهكذا حكم اليوم الثاني من أيام الدجال، وهو اليوم الذي كشهروه، وهكذا اليوم الذي كأسبوع. أما المكان الذي يقصر فيه الليل ويطول فيه النهار أو العكس في أربع وعشرين ساعة فحكمه واضح: يصلون فيه كسائر الأيام، ولو قصر الليل جدا أو النهار؛ لعموم الأدلة، والله ولي التوفيق [هـ]. وهذا فيه أهمية الحساب وتسجيل بيانات أوقات الصلاة حتى يمكن تقديرها تقديرا صحيحا بقدر المستطاع إن تعذر معرفة ذلك من بغياب الليل أو النهار خلال 24 ساعة كما في فتنة المسيح الدجال.



شكل 1.5: عدد ساعات النهار بحسب خطوط العرض

5.3.4 نسبية الوقت في القرآن

قال تعالى في كتابه: وَيَسْجُدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ الحج. ويقول ابن كثير في تفسيره: هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه. وهذا فيه الدليل على أن حساب الوقت نسبي ويختلف كما أخبر الله سبحانه وتعالى في أكثر من موضع. ومن ذلك قوله تعالى: يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٥﴾ السجدة. وأيضا قوله تعالى: تَرْجِعُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤١﴾ المعارج. ففي هذه الآيات الدليل الواضح على أن الوقت لا يجري بنفس السرعة فبين الله تعالى ذلك بالنسبة لوقتنا في قوله "مما تعدون".

ويمكن توضيح ذلك المعنى عن طريق حساب فارق الوقت بين الجنة والأرض. فإن حملنا معنى

"عند ربك" أي في الجنة كما في قوله: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ آل عمران، فهذا يكون لكل يوم واحد في الجنة ألف سنة مما نعد في الأرض كما يلي:

$$1 \text{ يوم في الجنة} = 1000 \text{ سنة في الأرض}$$

نبدأ أولاً بتحويل اليوم الواحد إلى ثواني، فإن علمنا أن اليوم به 12 ساعة بالمتوسط (اليوم والليلة معا 24 ساعة) كما في المثال السابق، وأن الساعة بها 60 دقيقة وأن الدقيقة بها 60 ثانية، عليه يكون اليوم الواحد به 43200 ثانية. ثانياً نحسب عدد الأيام في كل 1000 سنة. فإن إستخدمنا عدد الأيام في السنة القمرية يكون عدد الأيام الكلي في كل 1000 سنة قرية 354000 يوم. وإبقاء الميزان وإستبدال وحدات القياس يكون الناتج:

$$43200 \text{ ثانية في الجنة} = 354000 \text{ يوما في الأرض}$$

فإن قسمنا عدد الثواني في الجنة على عدد الأيام يكون:

$$1 \text{ ثانية في الجنة} = 8.1944 \text{ يوما في الأرض}$$

وعليه بمرور ثانية واحدة في الجنة تمر علينا 8 أيام و4 ساعات و39 دقيقة و22 ثانية في الأرض مما نعد ونحسب. وهذا لا يجب أن يفهم أن الوقت في الجنة بطيء جداً بالنسبة لمن هو في الجنة ولكن فقط بالنسبة للأرض. فالوقت هو نفسه كوحدة قياس ولكن قياس نفس القيمة في نطاق مختلف لا يلزم التساوي وإنما كل قياس يرجع لنطاقه الذي قيس فيه.

وهذه الظاهرة تم إكتشافها حديثاً في بداية القرن العشرين على يدي العالم الفيزيائي ألبرت آشتاين وتعرف بظاهرة التمدد الزمني وهي جزء من النظرية النسبية. وهي ظاهرة مثبتة ويمكن حسابها بدقة

باستخدام مفاهيم معروفة وأهمها ثابت سرعة الضوء في الفراغ. وهي ظاهرة مهمة جداً وتستخدم لموائمة أنظمة الإتصال وأنظمة تحديد الموقع مع الأقمار الصناعية. بدون الأخذ بعين الإعتبار ظاهرة التمدد الزمني كل هذه الأنظمة تتعطل.

ومن المثبت أيضاً في النظرية النسبية أن مرور الوقت نسبي وهو يبطأ مع زيادة السرعة أو الجاذبية. ومن المعلوم أن الجاذبية تزداد مع زيادة كتلة الكواكب. وبهذا يعلم أن الوقت على القمر يمر أسرع بقليل بالنسبة للأرض بينما الوقت على الأرض يمر أسرع بالنسبة للشمس. وهذا الفارق يزيد من زيادة الفرق في الحجم. وعليه فإن مرور الوقت في الجنة أبطأ بكثير من الأرض دل على عظم الجنة بالنسبة للأرض. وهذا يتوافق مع قوله تعالى: وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ آل عمران.

5.3.5 ظاهرة الغلاف الجوي

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ يس.

5.3.6 ظاهرة تعاقب الليل والنهار

تَوَلَّجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ آل عمران.

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ النور.

5.3.7 ظاهرة توسع الكون

من أعظم بلايا هذا الزمان هو تصوير ووضع العلم في إطار منفصل عن الإيمان بل والاسوأ في إطار انكار وجود الخالق وهذا والله من اعظم الضلال والجهل.

بينما في الحقيقة العلم هو الطريق للتأمل في آيات الله الكونية والتي جميعها تنادي بوجود الخالق وقدرته وعظمته. فكل ما نراه من تناسق في هذا الكون من ليل ونهار وشمس وقر ومطر وشجر وحجر ودواب كلها من آيات الله الكونية.

ومن اعظم آيات الله الكونية أن الله عز وجل لم يجعل السماء ثابتة بل جعلها تتوسع فلو كانت ثابتة لقال الكثير ان هذا الكون ليس له بداية وهي ثابتة ازلا وبهذا يتكرون وجود الخالق. ولكن الله جل جلاله جعل السماء تتمدد ليكون هذا التمدد دليلا على ان اطراف السماء كلها جاءت من نقطة واحدة وهذا هو الدليل القاطع على بداية الكون.

الإقرار بأن هذا الكون له بداية كما تشير كل الأدلة والمفاهيم التي توصل لها البشر في القرن العشرين ومنها ما جاء في نظرية الانفجار العظيم يبطل كل ما تم طرحه من أصحاب النظريات الإلحادية إذا يتعذر على شي له بداية أن يبدأ من لا شيء.

قال تعالى: أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا^ط وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ^ط [الأنبياء: 30]

فقد اتفق المفسرون على ان معنى هذه الآية ان السماوات والأرض كانتا ملتصقتين وهذا ما يتوافق مع فهمنا اليوم بناء على المشاهدة أن الكون بدأ من نقطة واحدة.

فقد جاء في تفسير القرطبي ان ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة قالوا في تفسير هذه الآية: يعني أنها كانت شيئاً واحداً ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء. وكذلك قال كعب: خلق الله السماوات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحاً بوسطها ففتحتها بها ، وجعل السماوات سبعة والأرضين سبعة. وقول ثان قاله مجاهد والسدي وأبو صالح: كانت السماوات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقتها فجعلها سبع سماوات، وكذلك الأرضين كانت مرتبة طبقة واحدة ففتقتها فجعلها سبعة وقال الطبري في تفسير هذه الآيات: أو لم ينظر هؤلاء الذي كفروا بالله بأبصار قلوبهم، فيروا بها، ويعلموا أن السماوات والأرض كانتا رتقا: يقول: ليس فيهما ثقب، بل كانتا ملتصقتين، وقد جاء في تفسير ابن كثير:

ألم يروا (أن السماوات والأرض كانتا رتقا) أي: كان الجميع متصلاً ببعضه ببعض متلاصقاً متراكماً، بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ، ففتقت هذه من هذه. فجعل السماوات سبعة، والأرض سبعة، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء وأثبتت الأرض: ولهذا قال: (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) أي: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً ، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء

ويقول جل جلاله: وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ [الذاريات: 47]

وقد جاء في تفسير السعدي رحمه الله: بِأَيْدٍ أي: بقوة وقدرة عظيمة وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لأرجائها وأنحاءها،

5.3.8 ظاهرة المجال المغنطيسي

وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْفًا مَحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ الأنبياء.

الحساب الكوني

6.1 مقدمة

إن أفضل طريقة لفهم علم الحساب هو التأمل والتفكر في الظواهر الطبيعية التي خلقها الله وومحاولة حسابها. فهي المرجع لنا حتى نتحقق من صحة وسلامة الحساب. وهذا النهج هو نهج القرآن وهو أفضل الطرق وأحسنها. ويمكن دراسة علم الحساب مجردا من أي تطبيقات وهذا أيضا نهج معروف. ولكن الجمع بين علم الفيزياء والحساب لمحاولة محاكاة الظواهر الطبيعية من أفضل الطرق لتطوير علم الحساب. وهذا معروف حيث تفوق الباحثين الذين جمعوا بين الحساب والفيزياء مثل نيوتن وأينشتاين وفورير على غيرهم ممن درس علم الرياضيات المجرد فكانوا روادا في ذلك.

ولهذا يكون الطريق للبحث وفهم علم الحساب كما يلي:

1. التفكير في آيات الله الكونية والتأمل فيها ومحاولة فهمها وربطها ببعضها البعض على وجه الإجمال.

2. حساب هذه الظواهر على إنفراد ومع التدرج في التعقيد حتى يمكن حسابها بالدقة المطلوبة

ومن عدة طرق وجوانب.

3. الجمع بين الظواهر المترابطة ومحاولة فهم ترابطها وتأثيرها على بعضها البعض وحساب ذلك لبناء فهم أكثر شمولاً ودقة.

4. تلخيص القواعد الحسابية بناءً على ما سبق وتطبيقها في فهم ظواهر أخرى أكثر تعقيداً أو تصحيح الحساب فيما ينفع الناس في أمور دينهم ودنياهم.

6.2 جداول

فيما يلي مثال على جدول:

العنوان 1	العنوان 2	العنوان 3
الخلية 1	الخلية 2	الخلية 3
الخلية 4	الخلية 5	الخلية 6

جدول 1.6: مثال على جدول

6.3 مراجع باستخدام BibTeX

لإضافة مراجع باستخدام BibTeX، يمكن استخدام الملف التالي: `references.bib`

```
@book{example
```

```
author = "المؤلف",
```

```
title = "عنوان الكتاب",
```

```
publisher = "دار النشر",
```

```
year = "السنة"
```

```
}
```

ثم تضمين المراجع في المستند الرئيسي:

```
\bibliographystyle{plain}
```

```
\bibliography{references}
```

6.4 نص الفصل الثاني - الصفحة الثانية

هذه الصفحة الثانية للفصل الثاني تحتوي على نص إضافي لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

6.5 نص الفصل الثاني - الصفحة الثالثة

هذه الصفحة الثالثة للفصل الثاني تحتوي على المزيد من النصوص لاختبار تقسيم الصفحات وظهور الرؤوس والأقدام بشكل صحيح في النصوص العربية.

الذكاء الاصطناعي

7.1 مقدمة

7.2 المعرفة والوعي والإدراك

هناك نقاش مهم يتعلق بموضوع ما إذا كانت نماذج الذكاء الاصطناعي العام ستكون قادرة على المعرفة والإدراك والوعي في المستقبل القريب (تقريباً مع حلول 2030). وحيث أن أنه على عدة أمور وخاصة للمسلمين.

أغلب الباحثين في مجال الذكاء الاصطناعي يعتقدون أن نماذج الذكاء الاصطناعي العام والتي ستكون لها قدرات معرفية تتجاوز قدرة الإنسان في جميع المجالات، ستكون قادرة على الإدراك وسيكون لها وعي. وبطريقة غير مباشرة هذا ما هو إلا مقدمة للقول بأن هذه النماذج لها أرواح مثلها مثل البشر.

بالمختصر هذا أمر خطير يمس عقيدة المسلمين، والشرح كالآتي.

أولا يجب التنويه لأمر هام جدا ألا وهو أن المعرفة والإدراك والوعي كلها تتطلب مشاعر وهي أمور تختص بها الروح والتي هي من أمر الله التي بها يبث الله الحياة في خلقه. وهذا معروف بما نعلمه عن الروح بما دلت عليه البراهين في الكتاب والسنة من أن الروح تنفخ في الجنين في بطن أمه وتصعد إلى السماء وتهبط وتقبض في النوم وترسل وتعذب في القبر وتضرب ضربة يسمعها كل شيء إلا الثقلين. فالأنس والجن والحيوانات كلها ذات أرواح وتكون حية فقط عند وجود الروح في الجسد وتموت بمفارقة الروح الجسد. وهذا موضوع بحث فيه الإمام ابن القيم في كتابه الروح لمن أراد أن يطلع. وقد ذكر الشيخ ابن باز رحمه الله أن الحياة نوعا: حياة روح وحركة مثل الإنسان والحيوان والجن وحياة نمو فقط مثل النباتات وهي ليس لها خصائص حياة الروح مثل السمع والبصر والحركة. أنظر الرابط أول التعليق.

ولهذا فإن الإدعاء بأن نماذج الذكاء الإصطناعي العام سيكون لها وعي وإدراك بمعنى القدرة على الإحساس والاستقلال بذاتها كما هو معروف من خصائص الروح هو أمر ينافي عقيدة المسلمين. القدرات المعرفية الخارقة المجردة من الإحساس لا تلزم الوعي والإدراك. فالحاسب الإلي له قدرة كبيرة لحفظ ومعالجة وتحليل كميات كبيرة من البيانات وتزداد هذه القدرة مع زيادة القدرة الحاسوبية والتخزينية. ولكن هذا لا يجعل الحاسب واعي أو مدرك.

رد شبه الملحدین

8.1 مقدمة

الحساب فيه الرد على شبه الملحدین.

8.2 المعرفة والوعي والإدراك

الملحق

9.1 مسألة محاجة إبراهيم لقومه

قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرْتَنِي أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْتَنِي يَهْدِيَني رَبِّي لَأَكُونَ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ الأنعام. قال ابن كثير رحمه الله: وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة؟ فروى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ما يقتضي أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلاً بقوله: (لئن لم يهْدني ربي لأكون من القوم الضالين) [٠] والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظرا

لقومه [14]. وهذا ما رجحه السعدي في تفسيره [1].


ولعل ما رجه ابن جرير عن ابن عباس هو الأصح أي أنه مقام نظر فهذا إنما كان في بداية هداية الله له عند تفكره في خلق الله تبارك وتعالى كما دل السياق عليه لأن الله جل جلاله بدأ هذه الآيات بقوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ الأنعام. ولا يوجد ما يمنع أن يكون ذلك مقام نظر ومناظرة في نفس الوقت، والله فوق كل ذي علم عليم. وأما القول بأن هذا مقام مناظرة فقط دون نظر فهو يخالف سياق الآيات. فالإستدلال بقوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِئِي مَا تَعْبُدُ أَصْنَامًا مَلَكُوتَ إِيَّيَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ الأنعام على أن إبراهيم قد هدي قبل هذا المقام لا يثبت. فالعديد من القصص التي قصها الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم تبدأ بذكر القصة على وجه الإجمال أو التقديم ثم يأتي التفصيل في ذلك تبعا دون التقيد بالترتيب الزمني كما في قصة أصحاب الكهف وقصص موسى عليه السلام.

9.2 مسألة كروية الأفلاك لشيخ الإسلام ابن تيمية

يقول شيخ الإسلام: هَذَا وَقَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ أَنَّ الْأَفْلَاقَ مُسْتَدِيرَةٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ) وَقَالَ: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) وَقَالَ تَعَالَى: (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي فَلَكَةٍ مِثْلِ فَلَكَةِ الْغَزَلِ وَهَكَذَا هُوَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ الْفَلَكَ الشَّيْءُ الْمُسْتَدِيرُ. وَمِنْهُ يُقَالُ: تَفَلَكَ ثَدْيُ الْجَارِيَةِ إِذَا اسْتَدَارَ. قَالَ تَعَالَى: (يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ) وَالتَّكْوِيرُ هُوَ التَّدْوِيرُ. وَمِنْهُ قِيلَ: كَارَ الْعِمَامَةُ وَكَوَرَهَا إِذَا أَدَارَهَا. وَمِنْهُ قِيلَ: لِلْكُرَةِ كُرَةٌ وَهِيَ الْجِسْمُ الْمُسْتَدِيرُ وَلِهَذَا يُقَالُ: لِلْأَفْلَاقِ كُرُوبَةٌ الشَّكْلِ؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْكُرَةِ كُورَةٌ تَحَرَّكَتِ الْوَاوُ

وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا فُقِلَّتْ أَلْفًا وَكَوَرَتْ الْكَارَةُ إِذَا دَوَّرَتْهَا وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ يُكَوِّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا ثَوْرَانِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) وَقَالَ تَعَالَى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) مِثْلُ حُسْبَانِ الرَّحَا وَقَالَ: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يَسْتَدِيرُ مِنْ أَشْكَالِ الْأَجْسَامِ دُونَ الْمُضْلَعَاتِ مِنَ الْمُثَلَّثِ أَوْ الْمُرَبَّعِ أَوْ غَيْرِهِمَا فَإِنَّهُ يَتَفَاوَتُ لِأَنَّ زَوَايَاهُ مُخَالَفَةٌ لِقَوَائِمِهِ وَالْجِسْمُ الْمُسْتَدِيرُ مُتَشَابِهُ الْجَوَانِبِ وَالتَّوَاحِي لَيْسَ بَعْضُهُ مُخَالَفًا لِبَعْضٍ. (وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَعْرَابِيِّ الَّذِي قَالَ: إِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِكَ عَلَى اللَّهِ وَنَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ. فَقَالَ: وَيْحَكَ إِنَّ اللَّهَ لَا يُسْتَشْفَعُ بِهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ. إِنَّ شَأْنَهُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ إِنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ هَكَذَا وَقَالَ يَدِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ: وَإِنَّهُ لَيُطِّبُ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ بِرَأْسِهِ) رَوَاهُ. أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ مِنْ حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا سَأَلْتَ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ) فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ هِيَ الْأَعْلَى وَالْأَوْسَطُ وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الصُّورَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ فَأَمَّا الْمُرَبَّعُ وَنَحْوُهُ فَلَيْسَ أَوْسَطُهُ أَعْلَاهُ بَلْ هُوَ مُتَسَاوٍ. وَأَمَّا إِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ: فَقَالَ إِيَّاسُ بْنُ مُعَاوِيَةَ - الْإِمَامُ الْمَشْهُورُ قَاضِي الْبَصْرَةِ مِنَ التَّابِعِينَ -: السَّمَاءُ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُ الْقُبَّةِ. وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ جَعْفَرٍ بْنُ الْمُنَادِي مِنَ أَعْيَانِ الْعُلَمَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِمَعْرِفَةِ الْأَفَارِ وَالتَّصَانِيفِ الْكِبَارِ فِي فُنُونِ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ مِنَ الطَّبَقَةِ الثَّانِيَةِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَدَ: لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ أَنَّ السَّمَاءَ عَلَى مِثَالِ الْكُرَّةِ وَأَنَّهَا تَدُورُ بِجَمِيعِ مَا فِيهَا مِنَ الْكُوكَبِ كَدَوْرَةِ الْكُرَّةِ عَلَى قُطْبَيْنِ ثَابِتَيْنِ غَيْرِ مُتَحَرِّكَيْنِ: أَحَدُهُمَا فِي نَاحِيَةِ الشَّمَالِ وَالْآخَرُ فِي نَاحِيَةِ الْجَنُوبِ. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْكُوكَبِ جَمِيعَهَا تَدُورُ مِنَ الْمَشْرِقِ تَقَعُ قَلِيلًا عَلَى تَرْتِيبٍ وَاحِدٍ فِي حَرَكَاتِهَا وَمَقَادِيرِ أَجْزَائِهَا إِلَى أَنْ تَوَسَّطَ السَّمَاءَ ثُمَّ تَخْدِرُ عَلَى ذَلِكَ التَّرْتِيبِ. كَأَنَّهَا ثَابِتَةٌ فِي كُرَّةٍ تُدِيرُهَا جَمِيعَهَا دَوْرًا وَاحِدًا. قَالَ: وَكَذَلِكَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأَرْضَ بِجَمِيعِ حَرَكَاتِهَا مِنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِثْلُ الْكُرَّةِ. قَالَ: وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ لَا يُوجَدُ طُلُوعُهَا وَغُرُوبُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ فِي نَوَاحِي الْأَرْضِ فِي وَفْتٍ وَاحِدٍ بَلْ عَلَى الْمَشْرِقِ قَبْلَ الْمَغْرِبِ. قَالَ: فِكْرَةُ الْأَرْضِ مُثَبَّتَةٌ فِي وَسْطِ كُرَّةِ السَّمَاءِ كَالنَّقْطَةِ فِي الدَّائِرَةِ. يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ جُرْمَ كُلِّ كَوْكَبٍ يَرَى فِي جَمِيعِ نَوَاحِي السَّمَاءِ عَلَى قَدَرٍ وَاحِدٍ فَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى بَعْدِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ بِقَدَرٍ وَاحِدٍ فَاضْطِرَّارُ أَنْ تَكُونَ الْأَرْضُ وَسْطَ السَّمَاءِ. وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ النَّبَوِيَّةُ مِنْ أَنَّ الْعَرْشَ سَقْفُ الْجَنَّةِ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى عَرْشِهِ مَعَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْأَفْلَاقَ مُسْتَدِيرَةٌ مُتَنَاقِضٌ أَوْ مُقْتَضِي أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَحْتَ بَعْضِ خَلْقِهِ " كَمَا احْتَجَّ بَعْضُ الْجَهْمِيَّةِ عَلَى إنْكَارِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ بِاسْتِدَارَةِ الْأَفْلَاقِ وَأَنَّ ذَلِكَ مُسْتَزِمٌ كَوْنُ الرَّبِّ أَسْفَلَ. وَهَذَا مِنْ غَلْطِهِمْ فِي تَصَوُّرِ الْأَمْرِ وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الْأَفْلَاقَ مُسْتَدِيرَةٌ وَأَنَّ الْمُحِيطَ الَّذِي هُوَ السَّقْفُ هُوَ أَعْلَى عِلِّيْنِ وَأَنَّ الْمَرْكَزَ الَّذِي هُوَ بَاطِنُ ذَلِكَ وَجُوهُهُ هُوَ قَعَرُ الْأَرْضِ هُوَ " سَجِينٌ " وَأَسْفَلُ سَافِلِينَ " عَلِمَ مِنْ مُقَابَلَةِ اللَّهِ بَيْنَ أَعْلَى عِلِّيْنِ وَبَيْنَ سَجِينٍ مَعَ أَنَّ الْمُقَابَلَةَ: إِنَّمَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ أَوْ بَيْنَ السَّعَةِ وَالضِّيقِ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعُلُوَّ مُسْتَزِمٌ لِلْسَّعَةِ وَالضِّيقُ مُسْتَزِمٌ لِلْسُّفُولِ وَعَلِمَ أَنَّ السَّمَاءَ فَوْقَ الْأَرْضِ مُطْلَقًا لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ تَكُونَ تَحْتَهَا قُطٌّ وَإِنْ كَانَتْ مُسْتَدِيرَةٌ مُحِيطَةً وَكَذَلِكَ كُلُّهَا عَلَا كَانَ أَرْفَعَ وَأَشْمَلُ. وَعَلِمَ أَنَّ الْجِهَةَ قِسْمَانِ: قِسْمٌ ذَاتِيٌّ. وَهُوَ الْعُلُوُّ وَالسُّفُولُ فَقَطُّ. وَقِسْمٌ إِضَافِيٌّ: وَهُوَ مَا يَنْسَبُ إِلَى الْحَيَوَانِ بِحَسَبِ حَرَكَتِهِ: فَمَا أَمَامَهُ يُقَالُ لَهُ: أَمَامٌ وَمَا خَلْفَهُ يُقَالُ لَهُ خَلْفٌ وَمَا عَنْ يَمِينِهِ يُقَالُ لَهُ: يَمِينٌ وَمَا عَنْ يَسَرَّتِهِ يُقَالُ لَهُ الْيَسَارُ وَمَا فَوْقَ رَأْسِهِ يُقَالُ لَهُ فَوْقٌ وَمَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ يُقَالُ لَهُ تَحْتُ وَكَذَلِكَ أَمْرٌ إِضَافِيٌّ. أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَلَقَ رِجْلَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَرَأْسُهُ إِلَى الْأَرْضِ أَلَيْسَتْ السَّمَاءُ فَوْقَهُ وَإِنْ قَابَلَهَا بِرِجْلَيْهِ وَكَذَلِكَ الثَّمَلَةُ أَوْ غَيْرَهَا لَوْ مَشَى تَحْتَ السَّقْفِ مُقَابِلًا لَهُ بِرِجْلَيْهِ وَظَهَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ لَكَانَ الْعُلُوُّ مُحَاضِيًا لِرِجْلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَوْقَهُ وَأَسْفَلُ سَافِلِينَ يَنْتَبِي إِلَى جَوْفِ الْأَرْضِ. وَالْكَوَاكِبُ الَّتِي فِي السَّمَاءِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا مُحَاضِيًا لِرُءُوسِنَا وَبَعْضُهَا فِي النِّصْفِ الْآخَرِ مِنَ الْفَلَكَ فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهَا تَحْتَ

شَيْءٌ بَلْ كُلُّهَا فَوْقَنَا فِي السَّمَاءِ وَلَمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ إِذَا تَصَوَّرَ هَذَا يَسْبِقُ إِلَى وَهْمِهِ السُّفْلُ الْإِضَافِيُّ كَمَا احْتَجَّ بِهِ الْجَهْمِيُّ الَّذِي أَنْكَرَ عُلُوَّ اللَّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَخَيَّلَ عَلَى مَنْ لَا يَدْرِي أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ فَقَدْ جَعَلَهُ تَحْتَ نِصْفِ الْمَخْلُوقَاتِ أَوْ جَعَلَهُ فَلَكًا آخَرَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَاهِلُ. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ لَا زِمَ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِاللَّهِ وَلَا هِيَ لَا زِمَةٌ بَلْ هَذَا يُصَدِّقُهُ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي حَدِيثِ الْإِدْلَاءِ؛ فَإِنَّ الْحَدِيثَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَيَدُلُّ عَلَى إِحَاطَةِ الْعَرْشِ كَوْنُهُ سَقْفَ الْمَخْلُوقَاتِ. وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى قَوْلِهِ هَبَطَ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ كَمَا فَعَلَ التِّرْمِذِيُّ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ الْأَمْرُ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَعِلْمِ أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ وَلَمْ يَعْرِفْ صُورَةَ الْمَخْلُوقَاتِ وَخَشِيَ أَنْ يَتَأَوَّلَهُ الْجَهْمِيُّ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ قَالَ: هَكَذَا وَإِلَّا فَقَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُ حَقٌّ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَمَا عِلْمُ بِالْمَقُولِ مِنَ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ يُصَدِّقُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَيَشْهَدُ لَهُ. فَنَقُولُ: إِذَا تَبَيَّنَ أَنَّا نَعْرِفُ مَا قَدْ عَرَفَ مِنْ اسْتِدَارَةِ الْأَفْلَاكِ عِلْمٌ أَنَّ الْمُنْكَرَ لَهُ مُخَالَفٌ لِجَمِيعِ الْأَدِلَّةِ لَكِنْ الْمُتَوَقِّفُ فِي ذَلِكَ قَبْلَ الْبَيَانِ فَعَلَّ الْوَاجِبَ وَكَذَلِكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَسْتَفِيدُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةٍ لَا يَتَّقِي بِهَا  [12].¹

9.3 مسألة دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس

يقول الشيخ الألباني رحمه الله:

نحن الحقيقة لا نشك في أن قضية دوران الأرض حقيقة علمية لا تقبل جدلاً، في الوقت الذي نعتقد أنه ليس من وظيفة الشرع عموماً والقرآن خصوصاً أن يتحدث عن علم الفلك ودقائق علم الفلك

¹ مجموع الفتاوى 25/193.

وإنما هذه تدخل في عموم قوله عليه الصلاة والسلام الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة تأييد النخل حينما قال لهم (سائما هو ظن ظننته فإذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فأتوا منه ما استطعتم وما أمرتكم بشيء من أمور دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم).



فهذه القضايا ليس من المفروض أن يتحدث عنها الرسول عليه السلام وإن تحدث هو في حديثه أو ربنا عز وجل في كتابه فإنما للبالغة أو لآية أو لمعجزة أو نحو ذلك، ولذلك فنستطيع أن نقول أنه لا يوجد في الكتاب ولا في السنة ما ينفي هذه الحقيقة العلمية المعروفة اليوم والتي تقول أن الأرض كروية وأنها تدور بدرة الله عز وجل في هذا الفضاء الواسع، بل يمكن للمسلم أن يجد ما يشعر إن لم نقل ما ينص على أن الأرض كالشمس والقمر من حيث أنه كلها في هذا الفراغ كما قال عز وجل (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، لا سيما إذا استحضرنَا أن قبل هذا التعميم الإلهي بلفظة (وَكُلٌّ) تعني الكواكب الثلاثة حيث ابتدأ بالأرض فقال (وَإِلَى اللَّهِ الْأَرْضُ الْمِيثَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَنَهُ يَأْكُلُونَ) ثم قال (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، فلفظة (كُلٌّ) تشمل الآية الأولى الأرض ثم الشمس ثم القمر ثم قال تعالى (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) هذا ظاهر من سياق الآيات وهي بلا شك آيات في ملك الله عز وجل باهرة، أقول هذا مع العلم بأن العلماء في التفسير أعادوا اسم كل إلى أقرب مذكور وهو الشمس والقمر لكن ليس هناك ما يمنع أبدا من أن نوسع معنى الكل فيشمل الأرض التي ذكرت قبل الشمس وقبل القمر، هذا أقوله فإن صح فيها ونعمت وإن لم يصح فأقل ما يقال أنه لا يوجد في القرآن كما قلت آنفا ولا في السنة ما ينفي هذه الحقيقة العلمية، أما ما يقال أو ما يستدل به من الآيات كجعل الله عز وجل الجبال رواسي أن تَمِيدَ بِهِمْ وك (الأرض بعد ذلك دحاهل) ونحو ذلك من الآيات

فهي في الحقيقة لا تنهض لإبطال هذه الحقيقة العلمية الكونية من جهة بل لعل بعضها تكون حجة على المستدلين بها، فجعل الله عز وجل للجبال كالأوتاد تشبها بالأوتاد فهذا نص صريح بأن ذلك لا يمنع تحركها مطلقا وإنما يمنع تحرك الأرض تحركا اضطراريا بحيث لا يتمكن الساكنون عليها من التمتع بما فيها بل من الحياة عليها، ذلك لأننا نعلم أن الرواسي بالنسبة للسفن لا تمنع حركتها مطلقا لكنها تمنع أن تغرق هكذا في خضم البحر فتضربها الأمواج يمينا ويسارا ثم يكون مصيرها الغرق، كذلك الأوتاد التي تضرب للخيل ونحو ذلك من الدواب فهي لا تمنع أبدا أن تتحرك تحركا في مدى محدود أراد ذاك الحيوان الوائد إن صح التعبير وهو الذي ضرب الوتد بالحيوان. ونحن نرى في سوريا في بعض البساتين التي تزرع فيها بعض الحشائش التي هي طعام للخيل وللبقر ونحو ذلك من الحيوانات يسمى عندنا في بلاد الشام بالفصة وربما يسمى عندكم بالبرسيم. فهذا يزرع فيأتي الفلاح حينما ينبت فيضرب وتدا لفرسه أو لبقرته فتجد هذه البقرة تأكل من هذا البرسيم المقدار الذي يريده صاحبها فهي تتحرك لكن لا تتحرك كيف نشاء كحركة الفوضى كما لو أطلق لها الزمام وإنما تتحرك حركة نظامية ولذلك تجد قد شكلت دائرة، الفصة أو البرسيم الذي أكلته فأصبحت الأرض جرداء من الخضار وما حولها الخضار به لا يزال قائما، فتشبيه رب العالمين تبارك وتعالى للجبال بالنسبة للأرض كالمراسي بالنسبة للسفينة والأوتاد بالنسبة للحيوانات هذه أيضا بالنسبة للأرض، كل ذلك لا ينفي عن الأرض الحركة المنظمة بقدرة الله تبارك وتعالى،

لذلك قلت أن هذه الآيات أو بعضها على الأقل هي أقرب إلى الدلالة على أن الأرض تتحرك أقل مما يقال وأنها ليست ثابتة جامدة كما يتوهم كثير من الناس. خلاصة القول لا يوجد في الشرع أبدا ما ينفي كروية الأرض، ثم كروية الأرض أصبحت اليوم حقيقة علمية ملموسة لمس اليد، يعني يتم الإنسان في عقله وعلى الأقل في علمه فيما إذا جحد هذه الحقيقة لأنك اليوم تستطيع أن ترفع السماعة

ويتصل مع صديق لك صادق وتقول له ماذا عندكم اليوم نهار أم ليل سيقول لك عندنا ليل في الوقت الذي يؤذن عندنا مثلا لأذان المغرب يؤذن عندهم لصلاة الفجر أو يكون قد طلعت الشمس وهذا لا يمكن تصويره أبداً إلا كما يقول العلم بالتجربة أن هذا ينتج بسبب أن الأرض تدور حول الشمس دائرة كاملة ينتج من ورائها الليل والنهار، ثم أدق من ذلك حصول الفصول الأربعة بسبب ابتعاد الأرض عن الشمس واقترابها وهذا له تفصيله في علم الفلك وعلم الجغرافيا لسنّا في صده، لكن الشاهد أنه لا يمكن أن تحصل هذه الأمور الواضحة إلا والأرض أولاً كروية وإذا سلبت كرويتها فلا يمكن أن يقال بأنها ثابتة لأن البشر يسكنون هذه الأرض في كل جوانبها كما يقال اليوم في القطب الشمالي في القطب الجنوبي فلو كانت هي كروية وثابتة كيف يثبت من كانوا في أسفل القطب الجنوبي مثلاً بل ومن كان في طرفها لكنها لما كانت تدور بقدره الله العجيبة الدوران الذي لا يجعل حياة المستوطنين والساكين عليها مضطربة فهذا أمر في غاية الإعجاز الدالة على عظمة وقدره الله تبارك وتعالى.

وأنا أريد أن أذكر بشيء يقرب هذا الشيء البعيد الذي لا يدخل في أذهان بعض الناس، وأنا في ألبانيا كنت أجيرا في دكان خالي كان حلاقاً، فكان يأتيه زبون مثلاً فيطلب له فنجان قهوة، يأتي أجير القهوة وفي يده صحن صينية مثل هذه الصواني أكبر منها قليلاً لكن هذه لها حاملية يعني يمكن أن نصورها هكذا هنا يضع إصبعه ويمشي أولاً يلهو ويتسلى ويعمل فيها هكذا والفنجان على الصحن الصغير كما هي العادة لا يتحرك من مكانه، هذا مصغر جداً جداً ليفهم الإنسان كيف تدور الأرض ولا يضطرب البشر عليها والبشر بشر كما قال تعالى و (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) فإذا كان هذا الفنجان وهو موضوع في الصينية والذي يحركه هو إنسان جاهل غشيم قدرته ومداركه محدودة ومع ذلك ربنا عز وجل أعطاه شيء من العقل وشيء من القدرة بحيث أنه يدير هذه الصينية وعليها الفنجان وهو فوق صحن صغير فلا يقطر منه قطرة، هذا كما نراه ونحن صغار، فلهذا عز وجل ماذا نقول

"وليس يصح في الأذهان شيء فاحتاج إلى دليل" فالله عز وجل على كل شيء قدير . إذن القضية لا تحتاج إلا إلى شيء من العلم والإدراك الصحيح مع وجود الإيمان الكامل طبعاً بعظمة وقدرة الله التي لا يمكن أن يتصورها إنسان  .

يقول الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى:

الله جل وعلا أخبرنا أنه جعل الأرض قراراً، وأرساها بالجبال وثبتها وجعلها قراراً لعباده. عليها يسرون وعليها ينامون وفيها يحرثون ويغرسون الأشجار. وفي بحارها كذلك يعملون ما يعملون لطلب الرزق. فإذا زعم زاعم أو صور مصور أنها تسبح في الفضاء، لم يلزم بذلك أن يكون صادقاً سواء كان شيعياً أو نصرانياً أو يهودياً أو مسلماً. كلام الله أصدق من الجميع. أما الإنسان قد يتصور الشيء أنه يدور أو يسبح بالحركة وليس الأمر كما قال. وإنما يكون في الجو وربما يكون في رأيه الظاهري وهو بعيد عنه لا يمسه ولا يتيقن مما يقوله هؤلاء وما يصوره هؤلاء. فما أخبر الله عنه أنه يتحرك هو كما أخبر عنه سبحانه وتعالى. وما شاهده الناس من سير الكواكب هو كما أخبر، كما يرى ويشاهد. وأما زعم الزاعمين بأن هذا يدل على أن الأرض تدور وأنها تسبح في الفضاء وأنها محتركة والله يقول جعلها لنا قراراً وقال: وألقى في الأرض رواسي أن تُمَدَّ بكم. وبين سبحانه وتعالى أنه ثبتها بالجبال وأرساها وجعلها لها أوتاداً، فالواجب التمسك بهذا والأخذ بهذا وأنها لا تُمَدُّ ولا تضطرب ولا تدور، ولو دارت لأحسوا بها العباد من أجل الزلازل. ولو زلزل قليلة عرفها الناس. وربما هلك من حولها إذا عظمت الزلزة وتهدمت البيوت وسقطت الأشجار وهلك الناس بأقل زلزة.

فهذه التي يحكيها الناس من هؤلاء الفضائيين أو غيرهم يزعمون أنها تدل على حركة الأرض ودورانها ليس لنا أن نسلم لهم ذلك ولا يمكن أن نسلم لهم ذلك إلا بدليل من كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام أو شيء نلسمه بأيدينا ونراه بأبصارنا ونعقله لا شبهة فيه. فإذا وجد ذلك أمكن

تأويل أن تميد بالإضطراب الذي يضر الناس وأن الحركة التي لا تضر الناس من دوران وغيره لا تخالف المبدأ الذي ذكره الله. أما أن نفس المبدأ بالإضطراب فقط وأن الأرض تدور وتحرك ولكن ليس ميذا فهذا يحتاج إلى دليل. ومن قنع لذلك، من رأى وشاهد واعتقد لا يضره ذلك. ومن لم يعتقد ذلك ولم يظهر له ما يخالف ذلك لا يضره اعتقاده الذي يراه صحيحا، ويراها موافقا لكتاب الله وكل واحد له اعتقاده، فمن اعتقد ما ظهر له من كتاب الله فهو غير ملوم. ومن شاهد أشياء وتيقنها يقينا وأن هناك حركة لا تمتنع وصف الأرض بأنها غير مائدة وأنها قرار وأنه دوران خاص لا ينافي كونها قرارا ولا ينافي كونها قد أرسيت بالجبال ولا ينافي كونها لا تميد، من تيقن هذا وعرفه بقلبه وصدقه بعينه فلا لوم عليه إذا اعتقد ذلك. وليس له أن يلوم الآخرين. وليس له أن يقدح في الآخرين لأنهم لم يعلموا ما علم، وكل له علمه. كما أن من علم أن الحكم الفلاني هو التحريم أو الوجوب والآخر أشكل عليه الأمر فليس له أن يلوم من علم. فالجدة حجة على من لم يعلم. ومن علم وحفظ حجة على من لم يحفظ ولم يعلم. وكل له حجته وكل له دليل. فأنا أعتقد، وقد كتبت هذا في كتابا من مدة سنوات، أعتقد أنها قارة كما قال الله وأنها لا تدور ولا تضطرب ولا تتحرك بل هي ثابتة. وقد ذكرت كلام أهل العلم في ذلك. ومن زعم خلاف ذلك فإن كان متيقنا فلا لوم عليه وله ما اعتقد ولا يلزمنا أن نوافقه ونقلده، ولا يلزمنا أن يقلدنا ومن قال بقولنا .

9.4 مختصر رسالة الشيخ أحمد شاكر في الأخذ بالحساب

هذا مختصر لما قرره الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله في رسالته: أوائل الشهور العربية: هل يجوز شرعا إثباتها بالحساب الفلكي؟ [16]. ولعلنا نضع أهم ما جاء فيها في عدة نقاط مع شيء يسير من

التصرف.

- أُنْفَقَتْ - أو كادت - كتب العلماء والفقهاء على أن العبرة في ثبوت الشهر بالرؤية وحدها دون الاعتبار بالحساب. مع قلة أو ندرة وجود الأقوال في الأخذ بالحساب على الإطلاق وإنما فقط على وجه التقييد كما جاء في المذهب الشافعي: أنه يجوز للحاسب العمل بحسابه في نفسه مع جواز غيره تقليده. واختلف العلماء أيضا في الاعتبار باختلاف المطالع. فأما الشافعية فقد ذهبوا إلى أن لكل بلد رؤيتهم مع اختلاف في حد ذلك. كما أن النووي نقل إ اتفاق الإمام مالك وأبا حنيفة: أنه يلزم غير أهل البلد رؤية بلد آخر.

- الإختلاف في المطالع مع إختلاف أقوال العلماء في ذلك ترتب عليه الخلاف بين المسلمين في المواقيت ولم يجدوا التوحيد الكلمة فيها سبيلا. من ذلك الخلاف في يوم عرفة وهو يوم الحج الأكبر وهو أعظم المواسم الإسلامية وشهر ذي الحجة أخطر الشهور أثرا، إذ أن يوم عرفة، وهو التاسع منه هو ظرف محدود لأداء ركن الحج وهو الوقوف بعرفة وهو لا يدور إلا مرة واحدة في السنة. وأكثر الحجاج لا يحجون إلا مرة في العمر فلعلهم إن أخطأهم الوقوف يخشون أن لا يكونوا قد أدوا الفريضة على وجهها الصحيح.

- مما لا شك فيه أن العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام لم يكونوا يعرفون العلوم الفلكية معرفة علمية جازمة. أي أنهم كانوا أميين لا يكتبون ولا يحسبون، ومن عرف منهم شيئا من ذلك فإنما يعرف مبادئ أو قسورا عرفها بالملاحظة والتتبع، أو بالسماع والخبر، لم تبين على قواعد رياضية، ولا على براهين قطعية ترجع إلى مقدمات أولية يقينية. ولذلك جعل الرسول ﷺ مرجع إثبات الشهر إلى الأمر القطعي المشاهد الذي يكون برؤية الهلال بالعين المجردة. فإن هذا أحكم وأضبط وهو الذي يصل إليه اليقين مما في استطاعتهم ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ولم يكن مما يوافق حكمة الشارع أن

يجعل مناط إثبات الأهلة بالحساب وهم لا يعرفون شيئا من ذلك. فلو جعله لهم بالحساب لأعنتهم.

- كان أكثر الفقهاء لا يعرفون علوم الفلك (والحساب) أو يعرفون فقط بعض مبادئها. وكان بعضهم أو أغلبهم لا يثق بمن يعرفها. بل كان بعضهم يرمي المشتغل بها بالزيغ والابتداع ظنا منه أن هذه العلوم يتوسل بها أهلها إلى إدعاء العلم بالغيب (التنجيم). وكان بعضهم يدعى ذلك فعلا فأساء إلى نفسه وإلى علمه. والفقهاء معذورون في ذلك. ومن كان من الفقهاء والعلماء يعرف هذه العلوم لم يستطع أن يحدد موقفها الصحيح بالنسبة إلى الدين والفقه، بل كان يشير إليها على تحوف. ومن ذلك ما جاء عن الإمام الكبير تقي الدين بن دقيق العيد في وجوب الأخذ بالحساب عند الإغمام إن دل الحساب على أن الهلال قد طلع على نحو يرى لولا وجود المانع ولوجود السبب الشرعي الذي لا يلزم بالرؤية.² ومن ذلك أيضا ما جاء عن تقي الدين السبكي في الوجوب الأخذ بالحساب الثابت والصحيح قطعاً ولو جاءت شهادة الرؤية بخلافه لإستحالة ذلك حساً وعقلاً وشرعاً.³

² وهذا أكثر موافقة للسنة من القول بوجوب الأخذ بالرؤية على الإطلاق حتى مع وجود المانع لتعارض ذلك مع قوله ﷺ "فإن غم عليكم فأقدروا له".

³ هذا فيه تفصيل ولا يفهم منه أن الحساب القطعي الثابت يكون مخالف للرؤية وأما موافق لها عند الدرجات التي يظهر فيها الهلال، وإنما المقصود عدم الإعتبار بالشهادة نفسها لأنها في حقيقتها غير صحيحة لإنتفاء أسبابها كأن يكون القمر في الدرجات التي لا يمكن أن يظهر فيها، وإلا لو كانت الشهادة صحيحة فلا يجب أن تخالف الرؤية ولا الحساب القطعي وإلا فإما الشهادة غير صحيحة وإما الحساب غير صحيح. ولهذا ليس كل حساب قطعي وثابت كما أن ليس كل شهادة صحيحة وثابتة ولكن متى ثبت إحداها وجب الأخذ به.

9.5 مسألة الأخذ بالحساب لشيخ الإسلام ابن تيمية

وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قد بينا أن شريعة الإسلام ومعرفتها ليست موقوفة على شيء يتعلم من غير المسلمين أصلاً وإن كان طريقاً صحيحاً، بل طرق الجبر والمقابلة فيها تطويل. يغني الله عنه بغيره كما ذكرنا في المنطق. وهكذا كل ما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم مثل العلم بجهة القبلة والعلم بمواقيت الصلاة والعلم بطلوع الفجر والعلم بالهلال؛ فكل هذا يمكن العلم به بالطرق التي كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان يسلكونها ولا يحتاجون معها إلى شيء آخر. وإن كان كثير من الناس قد أحدثوا طرقاً أخرى؛ وكثير منهم يظن أنه لا يمكن معرفة الشريعة إلا بها. وهذا من جهلهم كما يظن طائفة من الناس أن العلم بالقبلة لا يمكن إلا بمعرفة أطوال البلاد وعروضها. وهو وإن كان علماً صحيحاً حسابياً يعرف بالعقل لكن معرفة المسلمين بقبلتهم ليست موقوفة على هذا [٥]. فلماذا كان قدماء علماء "الهيئة" كبطليموس صاحب المجسطي وغيره لم يتكلموا في ذلك بحرف وإنما تكلم فيه بعض المتأخرين مثل كوشيار الديلمي ونحوه لما رأوا الشريعة جاءت باعتبار الرؤية. فأحبوا أن يعرفوا ذلك بالحساب فضلوها وأضلوا. [١٢] ٤.

ولقد ناقش شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله العديد من الأمور فيما يخص بالأخذ بالرؤية بدلاً من الحساب. وقد رجح شيخ الإسلام عدم الجواز بالأخذ بالحساب على الإطلاق في إثبات الرؤية أو نفيها وقال: "الطريق إلى معرفة طلوع الهلال هو الرؤية؛ لا غيرها". ورجح ذلك لثبوت الأدلة وإجماع المسلمون المتقدمين عليه. ونقل أن بعض المتأخرين أجاز للحاسب أن يعمل بالحساب في حق نفسه إذا غم الهلال وقال عن هذا القول شاذ. كما أنه نقل أن تعليق عموم الحكم العام بالحساب لم يقله مسلم.

^٤مجموع الفتاوى 9/215.

والحقيقة أن شيخ الإسلام بنحس في أهمية علم الحساب في تقدير الأهلة وإستنقصه فقال: "تضييع زمان كثير واشتغال عما يعني الناس وما لا بد له منه وربما وقع فيه الغلط والاختلاف". كما أنه حمل حديث الرسول صلى الله عليه وسلم على وجوب عدم الأخذ بالكآبة والحساب بل الحفظ فقط فقال: "فأمتنا ليست مثل أهل الكآب الذين لا يحفظون كتبهم في قلوبهم بل لو عدمت المصاحف كلها كان القرآن محفوظا في قلوب الأمة وبهذا الاعتبار فالمسلمون أمة أمية بعد نزول القرآن وحفظه". وقال: "إننا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب": فلم يقل إنا لا نقرأ كآبا ولا نحفظ بل قال: لا نكتب ولا نحسب فديننا لا يحتاج أن يكتب ويحسب".

كما أن شيخ الإسلام قال أيضا: "والمعتمد على الحساب في الهلال كما أنه ضال في الشريعة مبتدع في الدين فهو مخطئ في العقل وعلم الحساب. فإن العلماء. بالهيئة يعرفون أن الرؤية لا تنضبط بأمر حسابي". وهذا فيه أن علم الجبر والمقابلة في زمن شيخ الإسلام كان ضعيفا عند المسلمين ولكن في الأصل فإن المسلمين هم من وضع أساس هذا العلم العظيم بناء على آيات الله الشرعية التي دلت على تعلم الحساب وإقامة الميزان. وقد تقدمت الأدلة في هذا البحث على أن شريعة الإسلام جاءت لرفع الأمية عن أمة الإسلام.

حتى أنه غلط القول في من يأخذ بالحساب من أهل البدع المارقين الخارجين عن شريعة الإسلام فقال: "الأخذ بالحساب أو الكآب كالجدول وحساب التقويم والتعديل المأخوذ من سيرهما. وغير ذلك الذي صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفيه عن أمته والنهي عنه. ولهذا ما زال العلماء يعدون من خرج إلى ذلك قد أدخل في الإسلام ما ليس منه فيقابلون هذه الأقوال بالإنكار الذي يقابل به أهل البدع [٥] فأما الذين يعتمدون على حساب الشهور وتعديلها فيعتبرونه برمضان الماضي. أو يوجب أو يضعون جدولا يعتمدون عليه فهم مع مخالفتهم لقوله صلى الله عليه وسلم لا نكتب ولا

نحسب [٥]. وهذا القدر موافق في أكثر الأوقات؛ لأن الغالب على الشهور هكذا ولكنه غير مطرد فقد يتوالى شهران وثلاثة وأكثر ثلاثين وقد يتوالى شهران وثلاثة وأكثر تسعة وعشرين فينتقض كتابهم وحسابهم ويفسد دينهم الذي ليس بقيم وهذا من الأسباب الموجبة لثلا يعمل بالكتاب والحساب في الأهلة. فهذه طريقة هؤلاء المبتدعة المارقين الخارجين عن شريعة الإسلام الذين يحسبون ذلك الشهر بما قبله من الشهور إما في جميع السنين أو بعضها ويكتبون ذلك [٥]. وأما الفريق الثاني: فقوم من فقهاء البصريين ذهبوا إلى أن قوله: فاقدروا له تقدير حساب بمنازل القمر وقد روي عن محمد بن سيرين قال: خرجت في اليوم الذي شك فيه فلم أدخل على أحد يؤخذ عنه العلم إلا وجدته يأكل إلا رجلا كان يحسب ويأخذ بالحساب ولو لم يعلمه كان خيرا له. وقد قيل: إن الرجل مطرف بن عبد الله بن الشخير وهو رجل جليل القدر إلا أن هذا إن صح عنه فهي من زلات العلماء. وقد حكى هذا القول عن أبي العباس بن سريج أيضا [٥]. واحتجاج هؤلاء بحديث ابن عمر في غاية الفساد مع أن ابن عمر هو الراوي عن النبي صلى الله عليه وسلم إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب فكيف يكون موجب حديثه العمل بالحساب. وهؤلاء يحسبون مسيره في ذلك الشهر ولياليه. وليس لأحد منهم طريقة منضبطة أصلا بل أية طريقة سلكوها فإن الخطأ واقع فيها أيضا فإن الله سبحانه لم يجعل لمطلع الهلال حسابا مستقيما بل لا يمكن أن يكون إلى رؤيته طريق مطرد إلا الرؤية وقد سلخوا طرقا كما سلك الأولون منهم من لم يضبطوا سيره إلا بالتعديل الذي يتفق الحساب على أنه غير مطرد.

كما أنه علق على أحاديث الرسول فقال: "فهذه الأحاديث المستفيضة المتلقاة بالقبول دلت على أمور. أحدها أن قوله: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) هو خبر تضمن نبيها. فإنه أخبر أن الأمة التي اتبعته هي الأمة الوسط أمية لا تكتب ولا تحسب. فن كتب أو حسب أو لم يكن من هذه الأمة في هذا الحكم. بل يكون قد اتبع غير سبيل المؤمنين الذين هم هذه الأمة فيكون قد فعل ما

ليس من دينها والخروج عنها محرم منهي عنه فيكون الكتاب والحساب المذكوران محرمين منها عنهما. وهذا كقوله: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) أي هذه صفة المسلم فمن خرج عنها خرج عن الإسلام ومن خرج عن بعضها خرج عن الإسلام في ذلك البعض وكذلك قوله: (المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم) [٥]. وأما الأمور المميزة التي هي وسائل وأسباب إلى الفضائل مع إمكان الاستغناء عنها بغيرها فهذه مثل الكتاب الذي هو الخط والحساب فهذا إذا فقدها مع أن فضيلته في نفسه لا تتم بدونها وفقدتها نقص إذا حصلها واستعان بها على كماله وفضله كالذي يتعلم الخط فيقرأ به القرآن؛ وكتب العلم النافعة أو يكتب للناس ما ينتفعون به: كان هذا فضلا في حقه وكماله. وإن استعان به على تحصيل ما يضره أو يضر الناس كالذي يقرأ بها كتب الضلالة ويكتب بها ما يضر الناس كالذي يزور خطوط الأمراء والقضاة والشهود: كان هذا ضررا في حقه وسيئة ومنقصة ولهذا نهى عمر أن تعلم النساء الخط [٥]. وإن أمكن أن يستغنى عنها بالكلية بحيث ينال كمال العلوم من غيرها. وينال كمال التعليم بدونها: كان هذا أفضل له وأكمل. وهذه حال نبينا صلى الله عليه وسلم الذي قال الله فيه: الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل فإن أميته لم تكن من جهة فقد العلم والقراءة عن ظهر قلب فإنه إمام الأئمة في هذا. وإنما كان من جهة أنه لا يكتب ولا يقرأ مكتوبا. كما قال الله فيه: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك [٥]. وأما سائر أكابر الصحابة كالخلفاء الأربعة وغيرهم فالغالب على كبارهم الكتابة لاحتياجهم إليها إذ لم يؤت أحد منهم من الوحي ما أوتيته صارت أميته المختصة به كمالا في حقه من جهة الغنى بما هو أفضل منها وأكمل ونقصا في حق غيره من جهة فقدته الفضائل التي لا تتم إلا بالكتابة.

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أنا أيها الأمة الأمية لا نكتب هذا الكتاب ولا نحسب هذا الحساب فعاد كلامه إلى نفي الحساب والكتاب فيما يتعلق بأيام الشهر الذي يستدل به على استسرار الهلال

وطلوعه. وقد قدمنا فيما تقدم أن النفي وإن كان على إطلاقه يكون عاما فإذا كان في سياق الكلام ما يبين المقصود علم به المقصود أخاص هو أم عام؟ فلما قرن ذلك بقوله: الشهر ثلاثون و الشهر تسعة وعشرون بين أن المراد به أنا لا نحتاج في أمر الهلال إلى كتاب ولا حساب إذ هو تارة كذلك وتارة كذلك. والفارق بينهما هو الرؤية فقط ليس بينها فرق آخر من كتاب ولا حساب كما سنبينه. فإن أرباب الكتاب والحساب لا يقدرّون على أن يضبطوا الرؤية بضبط مستمر وإنما يقربوا ذلك فيصيبون تارة ويخطئون أخرى.

كما أنه فسر الأمية بأنها صفة مدح: وظهر بذلك أن الأمية المذكورة هنا صفة مدح وكال من وجوه: من جهة الاستغناء عن الكتاب والحساب بما هو أبين منه وأظهر وهو الهلال. ومن جهة أن الكتاب والحساب هنا يدخلهما غلط. ومن جهة أن فيهما تعباً كثيراً بلا فائدة فإن ذلك شغل عن المصالح إذ هذا مقصود لغيره لا لنفسه وإذا كان نفي الكتاب والحساب عنهم للاستغناء عنه بخير منه وللمفسدة التي فيه كان الكتاب والحساب في ذلك نقصاً وعباً بل سيئة وذنباً فن دخل فيه فقد خرج عن الأمة الأمية فيما هو من الكمال والفضل السالم عن المفسدة ودخل في أمر ناقص يؤديه إلى الفساد والاضطراب. وأيضاً فإنه جعل هذا وصفاً للأمة. كما جعلها وسطاً في قوله تعالى جعلناكم أمة وسطاً فالخروج عن ذلك اتباع غير سبيل المؤمنين.

التبرير:

وأيضاً فالشيء إذا كان صفة للأمة لأنه أصلح من غيره؛ ولأن غيره فيه مفسدة: كان ذلك مما يجب مراعاته ولا يجوز العدول عنه إلى غيره لوجهين: لما فيه من المفسدة ولأن صفة الكمال التي للأمة يجب حفظها عليها. فإن كان الواحد لا يجب عليه في نفسه تحصيل المستحبات فإن كل ما شرع للأمة جميعاً صار من دينها وحفظ مجموع الدين واجب على الأمة فرض عين أو فرض كفاية. ولهذا

وجب على مجموع الأمة حفظ جميع الكتاب وجميع السنن المتعلقة بالمستحبات والرغائب وإن لم يجب ذلك على آحادها. ولهذا أوجب على الأمة من تحصيل المستحبات العامة ما لا يجب على الأفراد [٠] ونظائره كثيرة مما يوجب أن يحفظ للأمة - في أمرها العام في الأزمنة والأمكنة والأعمال - كمال دينها الذي قال الله فيه: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فما أفضى إلى نقص كمال دينها ولو بترك مستحب يفضي إلى تركه مطلقاً كان تحصيله واجبا على الكفاية إما على الأئمة وإما على غيرهم. فالكمال والفضل الذي يحصل برؤية الهلال دون الحساب يزول بمرعاة الحساب لو لم يكن فيه مفسدة.

الوجه الثاني: ما دلت عليه الأحاديث ما في قوله صلى الله عليه وسلم لا تصوموا حتى تروه ولا تفطروا حتى تروه كما ثبت ذلك عنه من حديث ابن عمر فنهى عن الصوم قبل رؤيته وعن الفطر قبل رؤيته

وأما العقل: فاعلم أن المحققين من أهل الحساب كلهم متفقون على أنه لا يمكن ضبط الرؤية بحساب بحيث يحكم بأنه يرى لا محالة أو لا يرى ألبتة على وجه مطرد وإنما قد يتفق ذلك أو لا ولعل من دخل في ذلك منهم كان مرموقاً بنفاق، فما النفاق من هؤلاء ببعيد أو يتقرب به إلى بعض الملوك الجاهل ممن يحسن ظنه بالحساب مع انتسابه إلى الإسلام.

ومن معرفة الحساب الاستسار والإبدار الذي هو الاجتماع والاستقبال فالناس يعبرون عن ذلك بالأمر الظاهر من الاستسار الهلالي في آخر الشهر وظهوره في أوله وكال نوره في وسطه والحساب يعبرون بالأمر الخفي من اجتماع القرصين الذي هو وقت الاستسار ومن استقبال الشمس والقمر الذي هو وقت الإبدار فإن هذا يضبط بالحساب. وأما الإهلال فلا له عندهم من جهة الحساب ضبط؛ لأنه لا يضبط بحساب يعرف كما يعرف وقت الكسوف والخسوف

فنقول الحاسب غاية ما يمكنه إذا صح حسابه أن يعرف مثلاً أن القرصين اجتماعاً في الساعة الفلانية وأنه عند غروب الشمس يكون قد فارقها القمر إما بعشر درجات مثلاً أو أقل أو أكثر. والدرجة هي جزء من ثلاثمائة وستين جزءاً من الفلك.

✉ [12].⁵

9.6 مختصر سيرة مطرف بن عبد الله بن الشخير

وكان يقول : عقول الناس على قدر زمانهم .

قال قتادة : قال مطرف : لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبلى فأصبر .

وعن محمد بن واسع قال : كان مطرف يقول : اللهم ارض عنا ; فإن لم ترض عنا فاعف عنا ; فإن المولى قد يعفو عن عبده وهو عنه غير راض .

وعن مطرف أنه قال لبعض إخوانه : يا أبا فلان إذا كانت لك حاجة فلا تكلمني واكتبها في رقعة ; فإني أكره أن أرى في وجهك ذل السؤال .

وفي " الحلية " روى أبو الأشهب ، عن رجل ، قال مطرف بن عبد الله : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحب إلي من أبيت أن قائماً وأصبح معجباً .

وقال مهدي بن ميمون : قال مطرف : لقد كاد خوف النار يحول بيني وبين أن أسأل الله الجنة .

كان ثقة لم ينبج بالبصرة من فتنة ابن الأشعث إلا هو وابن سيرين

⁵مجموع الفتاوى 25/126.

أبو عقيل بشير بن عقبة قال : قلت ليزيد بن الشخير : ما كان مطرف يصنع إذا هاج الناس؟ قال : يلزم قعر بيته ، ولا يقرب لهم جمعة ولا جماعة حتى تنجلي .

وقال أيوب : قال مطرف : لأن آخذ بالثقة في القعود أحب إلي من أن ألتبس فضل الجهاد بالتغريب .

قال قتادة : فكان مطرف إذا كانت الفتنة نهى عنها وهرب ، وكان الحسن ينهى عنها ولا يبرح . وقال حميد بن هلال : أتت الحرورية مطرف بن عبد الله يدعونه إلى رأيهم ، فقال : يا هؤلاء ، لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما وأمسكت الأخرى ؛ فإن كان الذي تقولون هدى أتبعها الأخرى ، وإن كان ضلالة ، هلكت نفس وبقيت لي نفس ؛ ولكن هي نفس واحدة لا أغرر بها .

ابن أبي عروبة : عن قتادة ، عن مطرف قال : لقيت عليا - رضي الله عنه - فقال لي : يا أبا عبد الله ، ما بطأ بك؟ أحب عثمان؟ ثم قال : لئن قلت ذاك ، لقد كان أوصلنا للرحم ، وأتقنا للرب . قال سليمان بن المغيرة : كان مطرف إذا دخل بيته ، سبحت معه آنية بيته .

قال أبو نعيم حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا إسحاق ، أنبأنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن قتادة قال : كان مطرف بن عبد الله وصاحب له سريرا في ليلة مظلمة ، فإذا طرف سوط أحدهما عنده ضوء ، فقال : أما إنه لو حدثنا الناس بهذا ، كذبونا . فقال مطرف : المكذب أكذب - يقول : المكذب بنعمة الله أكذب .

حدثنا أبو حامد بن جبلة : حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنا الحسين بن منصور ، حدثنا حجاج ، عن مهدي بن ميمون ، عن غيلان بن جرير ، قال : أقبل مطرف مع ابن أخ له من البادية - وكان يبدو - فبينما هو يسير سمع في طرف سوطه كالتسبيح فقال له ابن أخيه : لو حدثنا الناس بهذا ، كذبونا . فقال : المكذب أكذب الناس .

حدثنا أبو بكر بن مالك ، حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا محمد بن عبيد بن حساب ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا أبو التياح قال : كان مطرف بن عبد الله يبدو ؛ فإذا كان ليلة الجمعة ، أدلج على فرسه ، فرمى نور له سوطه ، فأدلج ليلة حتى إذا كان عند القبور ، هوم على فرسه ، قال : فرأيت أهل القبور ، صاحب كل قبر جالسا على قبره ، فلما رأوني ، قالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة قلت : أتعلمون عندكم يوم الجمعة؟ قالوا : نعم ، نعلم ما تقول الطير فيه . قلت : وما تقول الطير؟ قالوا : تقول : سلام سلام من يوم صالح . إسناده صحيح .

عبد الله بن جعفر الرقي ، حدثنا الحسن بن عمرو الفزاري ، عن ثابت [ص: 194] البناي ورجل آخر ، أنهما دخلا على مطرف وهو مغمى عليه ، قال : فسطعت معه ثلاثة أنوار : نور من رأسه ، ونور من وسطه ، ونور من رجله ، فهالنا ذلك ، فأفاق فقلنا : كيف أنت يا أبا عبد الله ؟ قال : صالح . فقيل : لقد رأينا شيئا هالنا . قال : وما هو؟ قلنا : أنوار سطعت منك . قال : وقد رأيت ذلك؟ قالوا : نعم . قال : تلك تنزيل السجدة ، وهي تسع وعشرون آية ، سطع أولها من رأسي ووسطها من وسطي وآخرها من قدمي ، وقد صبرت تشفع لي ، فهذه ثوابية تحرسني

وقال سليمان بن حرب : كان مطرف مجاب الدعوة ، قال لرجل : إن كنت كذبت فأرنا به . فمات مكانه .

قال مهدي بن ميمون : حدثنا غيلان بن جرير ، أنه كان بينه وبين رجل كلام ، فكذب عليه فقال : اللهم إن كان كاذبا فأمته . نخر ميتا مكانه ، قال : فرجع ذلك إلى زياد فقال : قتل الرجل؟ قال : لا ؛ ولكنها دعوة وافقت أجلا .

9.7 مسألة أول ما خلق الله

لقد تبث عن النبي ﷺ أن الله عز وجل لم يخلق السموات والأرض إلا بعد كتابة المقادير وكان عرشه على الماء سبحانه. ولكن اختلف أهل العلم في أول ما خلق الله قبل أن يخلق السموات والأرض. فمنهم من قدم العرش والماء على القلم واللوح المحفوظ، ومنهم من قدم القلم واللوح المحفوظ على العرش والماء. ولكن أهل العلم الذين بحثوا في هذه المسألة وجمعوا أدلتها وإجماع السلف وجهور أهل العلم فيها، قدموا الماء والعرش على القلم واللوح المحفوظ وهذا هو الحق كما قرر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وكذلك ابن القيم، وابن كثير، والهمداني، والعسقلاني والعديد من علماء الإسلام، والله أعلى وأعلم. وفيما يلي بيان أدلة وأقوال أهل العلم في هذه المسألة.

9.7.1 الأحاديث الخاصة بالمسألة

الحديث الأول

حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ، أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ سَرَجٍ. حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي أَبُو هَاشِمٍ الْخَوْلَانِيُّ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبَلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴿٤﴾ [4].⁶

وهذا الحديث فيه تقديم العرش والماء على كتابة المقادير أي القلم واللوح المحفوظ، والكتابة كانت قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة.

⁶ صحيح مسلم: 2653، وصححه الألباني في شرح الطحاوية.

الحديث الثاني

حدثنا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ، حَدَّثَنَا جَامِعُ بْنُ شَدَّادٍ، عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: "اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ"، قَالُوا: قَدْ بَشَرْتَنَا فَأَعْطِنَا - مَرَّتَيْنِ - ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: "اقْبُلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ"، قَالُوا: قَدْ قَبِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ؟ قَالَ: "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ". فَنَادَى مُنَادٍ: ذَهَبَتْ نَاقَتُكَ يَا ابْنَ الْحُصَيْنِ، فَانْطَلَقْتُ إِذَا هِيَ يَقْطَعُ دُونَهَا السَّرَابُ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ تَرَكْتُهَا [15].⁷ وهذا إن حمل على وجه الترتيب فيه تقديم العرش والماء على كناية المقادير، ومن ثم خلق السموات والأرض.

وجاء أيضا في صحيح البخاري نفس الحديث بسند آخر: حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين قال: إني عند النبي ﷺ إذ جاءه قوم من بني تميم فقال: "اقبلوا البشرى يا بني تميم"، قالوا: بشرتنا فأعطينا، فدخل ناس من أهل اليمن فقال: "اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم"، قالوا: قبلنا، جئناك لتنفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء"، ثم أتاني رجل فقال: يا عمران، أدرك ناقةك فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها فإذا السراب ينقطع دونها، وإيم الله، لوددت أنها قد ذهبت ولم أقم

⁷ صحيح البخاري: 3199

﴿15﴾⁸. وهذا فيه تقديم السموات والأرض على كتابة المقادير، وهذا إن حمل على وجه الترتيب فهو يتعارض مع أغلب الأحاديث الأخرى. ولهذا أغلب أهل العلم أخذ بالحديث السابق.

الحديث الثالث

حدثنا جعفر بن مسافر الهذلي، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا الوليد بن رباح، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي حفصة، قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بُنيَّ إِنَّكَ لَن تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ. وفي رواية: اكْتُبْ الْقَدَرَ، مَا كَانَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْآبَدِ. ومن مات على غير هذا فليس مِنِّي ﴿6﴾⁹. وفي الأخذ بظاهر هذا الحديث دون الجمع مع الأحاديث السابقة تقديم القلم واللوح المحفوظ على العرش والماء، أي أن الله خلق القلم أولاً ثم خلق اللوح المحفوظ وأمر القلم بكتابة المقادير على اللوح المحفوظ قبل العرش والماء وخلق السموات والأرض.

الحديث الرابع

حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن عُدُس، عن عَمِّهِ أَبِي رَزِينٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ كَانَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقَهُ؟ قَالَ: "كَانَ فِي عَمَاءٍ مَا تَحْتَهُ هَوَاءٌ، وَمَا فَوْقَهُ هَوَاءٌ، ثُمَّ خَلَقَ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ" ﴿7﴾¹⁰. ولكن هذا الحديث ضعفه الشيخ

⁸ صحيح البخاري: 7413

⁹ أبي داود: 4700 واللفظ له، أحمد: 22705، الترمذي: 3319، وصححه الألباني في صحيح الجامع.

¹⁰ أحمد: 16188 واللفظ له، الترمذي: 3109، ابن ماجه: 182، ضعفه الألباني.

الألباني وقال فيه نظر؛ لأن وكيعاً هذا مجهول [10]، وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج مسند الإمام أحمد إسناده ضعيف لنفس السبب.

9.7.2 أقوال أهل العلم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى:

وَمِنْ هَذَا: الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: وَمَا أَكْتُبُ. قَالَ: مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" (9.7.1 الحديث الثالث) فَهَذَا الْقَلَمُ خَلَقَهُ لِمَا أَمَرَهُ بِالتَّقْدِيرِ الْمَكْتُوبِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِمِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ مَخْلُوقًا قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا خُلِقَ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ وَخَلَقَهُ بَعْدَ الْعَرْشِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ (9.7.1 الحديث الأول، 9.7.1 الحديث الثاني) وَهُوَ قَوْلُ جُمْهُورِ السَّلَفِ كَمَا ذَكَرْتُ أَقْوَالَ السَّلَفِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

وأورد شيخ الإسلام خمسة عشرة وجهاً، وقال في الوجه الرابع عشر:

مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: "قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ" (9.7.1 الحديث الأول) فَإِنَّ الْخَلَائِقَ هُنَا الْمُرَادُ بِهَا الْخَلَائِقُ الْمَعْرُوفَةُ الْمَخْلُوقَةُ بَعْدَ خَلْقِ الْعَرْشِ وَكَوْنِهِ عَلَى الْمَاءِ. وَلِهَذَا كَانَ التَّقْدِيرُ لِلْمَخْلُوقَاتِ هُوَ التَّقْدِيرُ لِخَلْقِ هَذَا الْعَالَمِ كَمَا فِي حَدِيثِ الْقَلَمِ: (إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اكْتُبْ قَالَ: وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) (9.7.1 الحديث الثالث). وَكَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمِائَتِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" (9.7.1 الحديث الأول) وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الصَّحِيحِ: "كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ" (9.7.1 الحديث الثاني) يُرَادُ بِهِ أَنَّهُ كَتَبَ كُلَّ مَا أَرَادَ خَلْقُهُ مِنْ ذَلِكَ.

قال ابن القيم في نونية ابن القيم الكافية الشافية [١]:

هذا وعرش الرب فوق الماء من	...	قبل السنين بمدة وزمان
والناس مختلفون في القلم الذي	...	كتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده	...	قولان عند أبي العلا المهداني
والحق أن العرش قبل لأنه	...	قبل الكتابة كان ذا أركان
وكتابة القلم الشريف تعقبت	...	إيجاده من غير فصل زمان
لما براه الله قال اكتب كذا	...	فغدا بأمر الله ذا جريان
فجری بما هو كائن أبدا إلى	...	يوم المعاد بقدرة الرحمن

قال ابن كثير في البداية والنهاية [٢]:

واختلف هؤلاء في أيها خلق أولاً؟ فقال قائلون: خلق القلم قبل هذه الأشياء كلها، وهذا هو اختيار ابن جرير، وابن الجوزي، وغيرهما. قال ابن جرير: وبعد القلم السحاب الرقيق، وبعده العرش. واحتجوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد، وأبو داود والترمذي، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" لفظ أحمد. وقال الترمذي: حسن صحيح غريب (9.7.1 الحديث الثالث). والذي عليه الجمهور، فيما نقله الحافظ أبو العلاء المهداني وغيره: أَنَّ العرش مخلوق قبل ذلك، وهذا هو الذي رواه ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس، كما دلَّ على ذلك الحديث الذي رواه مسلم في "صحيحه" حيث قال: حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ السَّرْحِ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو هَانِئٍ الْخَوْلَانِيُّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبْلِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ

رسول الله ﷺ يقول: "كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ" (9.7.1 الحديث الأول)، قالوا: فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير. وقد دلَّ هذا الحديثُ أَنَّ ذلك بعد خلق العرش، فثبتَ تقدُّمُ العرش على القلم الذي كتبت به المقادير كما ذهب إلى ذلك الجماهير. ويُجمل حديثُ القلم على أَنَّهُ أَوَّلُ المخلوقات من هذا العالم.

ويؤيد هذا ما رواه البخاري، عن عمران بن حصين: قال: قال أهلُ اليمن لرسول الله ﷺ: جِئْنَاكَ لَنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَلَنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ. فَقَالَ: "كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ -وفي رواية: معه، وفي رواية: غيره- وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ"، وفي لفظ: "ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ" (9.7.1 الحديث الثاني). فسأَلوه عن ابتداء خلق السَّمَوَاتِ والأرض، ولهذا قالوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ، فأجابهم عما سأَلوا فقط. ولهذا لم يخبرهم بخلق العرش كما أخبر به في حديث أبي رزین المتقدم.

قال ابن جرير: وقال آخرون: بل خلق الله عز وجل الماء قَبْلَ الْعَرْشِ. رواه السُّدِّي عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرة عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ قالوا: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَلَمْ يَخْلُقْ شَيْئًا غَيْرَ مَا خَلَقَ قَبْلَ الْمَاءِ.

وقال أبو حجر العسقلاني في كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري ﴿١﴾ تعليقا على (9.7.1 الحديث الثاني):

قَوْلُهُ: (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ) [٠] وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ لَا الْمَاءُ وَلَا الْعَرْشُ وَلَا غَيْرُهُمَا؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَكُونُ قَوْلُهُ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ خَلَقَ الْمَاءَ سَابِقًا ثُمَّ خَلَقَ الْعَرْشَ عَلَى الْمَاءِ، وَقَدْ وَقَعَ فِي قِصَّةِ نَافِعِ بْنِ زَيْدٍ الْحِمَيْرِيِّ بَلْفُظٍ: كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ خَلَقَ الْقَلَمَ، فَقَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ فَصَرَ بِتَرْتِيبٍ

المخلوقات بعد الماء والعرش.

قوله: (وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض) هكذا جاءت هذه الأمور الثلاثة معطوفة بالواو، ووقع في الرواية التي في التوحيد: ثم خلق السماوات والأرض ولم يقع بلفظ ثم إلا في ذكر خلق السماوات والأرض، وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: (أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) (9.7.1 الحديث الأول) وهذا الحديث يؤيد رواية من روى: ثم خلق السماوات والأرض باللفظ الدال على الترتيب.

قوله: (وكان عرشه على الماء) قال الطيبي: هو فصل مستقل، لأن القديم من لم يسبقه شيء، ولم يعارضه في الأوليّة، لكن أشار بقوله: وكان عرشه على الماء إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خلقاً قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء. ومحصل الحديث أن مطلق قوله وكان عرشه على الماء مقيد بقوله ولم يكن شيء غيره، والمراد بـ كان في الأوليّة الأزليّة وفي الثاني الحدوث بعد العدم. وقد روى أحمد، والترمذي وصححه من حديث أبي رزين العقيلي مرفوعاً: أن الماء خلق قبل العرش، وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة: أن الله لم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء، وأما ما رواه أحمد، والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعاً: (أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب، فجري بما هو كائن إلى يوم القيامة) (9.7.1 الحديث الثالث) فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أوليّة القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أي أنه قيل له اكتب أول ما خلق [٠].

وحكى أبو العلاء الهمداني أن للعلماء قولين في أيهما خلق أولاً العرش أو القلم؟ قال: والأكثر على سبقي خلق العرش، واختار ابن جرير ومن تبعه الثاني، وروى ابن أبي حازم من طريق سعيد بن

جُبَيْرٌ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَلَقَ اللَّهُ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، فَقَالَ لِلْقَلَمِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ وَهُوَ عَلَى الْعَرْشِ: اكْتُبْ، فَقَالَ: وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: عَلَيَّ فِي خَلْقِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ سُبْحَانَ، وَلَيْسَ فِيهِ سَبْقُ خَلْقِ الْقَلَمِ عَلَى الْعَرْشِ، بَلْ فِيهِ سَبْقُ الْعَرْشِ. وَأَخْرَجَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ، عَنْ أَبِي ظَبْيَانَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: يَا رَبِّ وَمَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبِ الْقَدَرَ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ (9.7.1 الحديث الثالث) وَأَخْرَجَ سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، عَنْ أَبِي عَوَانَةَ، عَنْ أَبِي بَشِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: بَدَأَ الْخَلْقَ الْعَرْشَ وَالْمَاءَ وَالْهَوَاءَ، وَخَلَقَتِ الْأَرْضُ مِنَ الْمَاءِ وَاجْتَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الْآثَارِ وَاضِحٌ. قَوْلُهُ: (وَكُتِبَ) أَيُّ قَدَرٍ (فِي الذِّكْرِ) أَيُّ فِي مَحَلِّ الذِّكْرِ، أَيُّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ (كُلِّ شَيْءٍ) أَيُّ مِنَ الْكَائِنَاتِ، وَفِي الْحَدِيثِ جَوَازُ السُّؤَالِ عَنْ مَبْدَأِ الْأَشْيَاءِ وَالْبَحْثُ عَنْ ذَلِكَ وَجَوَازُ جَوَابِ الْعَالِمِ بِمَا يَسْتَحْضِرُهُ مِنْ ذَلِكَ، وَعَلَيْهِ الْكَفُّ إِنْ خَشِيَ عَلَى السَّائِلِ مَا يَدْخُلُ عَلَى مُعْتَقِدِهِ. وَفِيهِ أَنَّ جِنْسَ الزَّمَانِ وَنَوْعَهُ حَادِثٌ، وَأَنَّ اللَّهَ أَوَّجَدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ، لَا عَنْ عَجْزٍ عَنْ ذَلِكَ بَلْ مَعَ الْقُدْرَةِ.

9.8 مسألة يدين الله

يَطْوِي اللَّهُ عَرْزَ وَجَلِّ السَّمَوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ صَحِيحٌ
مسلم

قال الشيخ ابن باز رحمه الله محبياً على: ما معنى حديث "وكلتا يدي الرحمن يمين؟"

الحديث ثابت، ورواه مسلم، ومسلم رحمه الله تَوَخَّى الأحاديث الصَّحِيحة، وإذا كان جرح عمر بن حمزة بعض الناس فُسِّم لم يجرحه، وروى عنه، ووثَّقه ابنُ حبان، وصحَّح له الحاكم. فالمقصود أن الحديث لا بأس به، وهي شمال في الاسم، وأما في الفضل فهي يمين، ولهذا في الحديث الصحيح: كلنا يدي ربي يمين مباركة، فكلاهما يمين مباركة في الشرف والفضل، وتُسمَّى إحداهما: يميناً، كما قال تعالى: وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ [الزمر: 67]، وتُسمَّى الأخرى: شمالاً، وهي يمين في الفضل والبركة والشرف، وإن سُمِّيت شمالاً، لكنها في الفضل والشرف لها ما لليمين باليمن والخير والبركة والشرف، ولا منافاة، فالحديث كلنا يدي ربي يمين مباركة، يُبين فضلها وشرفها، وأنه لا نقص فيها، والتَّسمية بتسميتها شمالاً لا يدل على النقص، بل إنما هي مجرد أسماء فقط، كما أن تسمية يده: يد، وتسميته قدمه: قدم، وعين، وسمع، وبصر، كل هذا لا يتضمن المشابهة والتَّمثيل، فكلها صفات تليق بالله، وكلها كاملة، ليس فيها نقص، تليق بالله جلَّ وعلا، لا يُثايل فيها خلقه. □

9.9 مسألة أثقل المخلوقات

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٥٣٨:

وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ جَوَيْرِيَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا وَكَانَتْ تُسَبِّحُ بِالْحَصَى مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ إِلَى وَقْتِ الضُّحَى فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتَ بَعْدَكَ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قَلْبِيهِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خَلْقِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَى نَفْسِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلِمَاتِهِ . فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ زِنَةَ الْعَرْشِ أَثْقَلُ الْأَوْزَانِ.

9.10 مسألة تفاوت الزمان

وفي تفاوت الزمان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

وَالرُّسُلُ أَخْبَرَتْ بِخَلْقِ الْأَفْلَاقِ وَخَلْقِ الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ مَقْدَارُ حَرَكَتِهَا (أي حركة الأفلاك) مَعَ إِبْخَارِهَا بِأَنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ مَادَّةٍ قَبْلَ ذَلِكَ وَفِي زَمَانٍ قَبْلَ هَذَا الزَّمَانِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَسَوَاءٌ قِيلَ: أَنَّ تِلْكَ الْأَيَّامَ بِمِقْدَارِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَقْدَرَةِ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا؛ أَوْ قِيلَ: إِنَّهَا أَكْبَرُ مِنْهَا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ كُلَّ يَوْمٍ قَدَرُهُ أَلْفُ سَنَةٍ فَلَا رَيْبَ أَنَّ تِلْكَ الْأَيَّامَ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ غَيْرُ هَذِهِ الْأَيَّامِ وَغَيْرُ الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ مَقْدَارُ حَرَكَةِ هَذِهِ الْأَفْلَاقِ. وَتِلْكَ الْأَيَّامُ مُقَدَّرَةٌ بِحَرَكَةِ أَجْسَامٍ مَوْجُودَةٍ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَخَلَقَتْ مِنَ الدُّخَانِ وَقَدْ جَاءَتْ الْأَثَارُ عَنِ السَّلَفِ إِنَّهَا خُلِقَتْ مِنْ بَخَارِ الْمَاءِ؛ وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي كَانَ الْعَرْشُ عَلَيْهِ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ.

9.11 مسألة فناء النار

راجع كافة التفسير

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَوْا فَنَجَّى النَّارَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَنَجَّى الْجَنَّةَ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٍ ﴿١٠٨﴾ هُودُ.

9.12 مسألة العدل مع الكفار

الدولة الكافرة العادلة لها وعليها، فيذم كفرها ويحمد عدلها، ولا يرد عليها كل أمرها، بل يحمد ما فيها من العدل والإنصاف والمحاسن الإنسانية الموافقة للقطرة، ويذم ما فيها من كفر وفسق وعدوان على دين الله ورسوله وهذا ما أوصانا به جل جلاله في كتابه العظيم فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ المائدة. وقال القرطبي في تفسيره: ودلت الآية أيضا على أن كفر الكافر لا يمنع من العدل عليه. وقال ابن كثير في تفسيره: وقوله: (ولا يجرمكم شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا) أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا [هـ].

وقول شهادة الحق في الدولة الكافرة لا يعني موالاتها وإن كانت عادلة، بل هذا ما هو إلا شهادة الحق وقد تقدم بيان ذم ما فيها من كفر وفسق وعصيان لدين الله ورسوله. وهذا لأن الله جل جلاله أمرنا بالعدل في القول ولو على أنفسنا فقال جل في علاه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ النساء. وقد جاء في تفسير ابن كثير: وقوله (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى: (ولا يجرمكم شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعدلوا هو أقرب للتقوى) [المائدة: 8] [هـ]. ومن ذلك ما صح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: أفاء الله عرَّ وجلَّ خيرَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة،

نَحَرَصَها عليهم، ثُمَّ قَالَ لهم: يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، أَنْتُمْ أَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ، قَتَلْتُمْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ عَرًّا وَجَلًّا، وَكَذَبْتُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ يَجْعَلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ عَلَى أَنْ أَحْيَيْفَ عَلَيْكُمْ، قَدْ خَرَصْتُ عِشْرِينَ أَلْفَ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ، فَإِنْ شِئْتُمْ فَلَكُمْ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَلِي، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، قَدْ أَخَذْنَا، فَأَخْرَجُوا عَنْهَا. (صحيح على شرط مسلم، تخریج المسند لشعيب، تخریج سنن الدارقطني). وهذا فيه أن اليهود عرفوا أنه بالعدل قامت السموات والأرض وهذا ما سبق بيانه في الميزان الكوني، وأن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أقام فيهم الميزان الشرعي وأقر لهم بذلك بعدله معهم.

وقد جاء في تفسير الطبري عن ابن عباس قوله: "كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين"، قال: أمر الله المؤمنين أن يقولوا الحق ولو على أنفسهم أو آبائهم أو أبناءهم، ولا يجابوا غنياً لغناه، ولا يرحموا مسكيناً لمسكنته، وذلك قوله: "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا"، فتذروا الحق، فتجوروا [هـ]. وأيضاً جاء في تفسير الطبري: حدثنا سعيد، عن قتادة: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله الآية، هذا في الشهادة. فأقم الشهادة، يا ابن آدم، ولو على نفسك، أو الوالدين، أو على ذوي قرابتك، أو شرف قومك. فإنما الشهادة لله وليست للناس، وإن الله رضي العدل لنفسه، والإقسط والعدل ميزان الله في الأرض، به يردُّ الله من الشديد على الضعيف، ومن الكاذب على الصادق، ومن المبطل على الحق. وبالعدل يصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويردُّ المعتدي ويرتجئ، تعالى ربنا وتبارك. وبالعدل يصلح الناس، يا ابن آدم "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما"، يقول: أولى بغنيكم وفقيركم. قال: وذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام قال: "يا رب، أي شيء وضعت في الأرض أقل؟"، قال: "العدل أقل ما وضعت في الأرض". فلا يمنعك غنى غني ولا فقر فقير أن تشهد عليه بما تعلم، فإن ذلك عليك من الحق، وقال جل ثناؤه: " فالله أولى بهما " [هـ].

وقال ابن إسحاق: حدثني الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هشام عن أم سلمة رضي الله عن ها قالت:

لما ضاقت (مكة) وأوذى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شيء مما يكره وما ينال أصحابه فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن بأرض الحبشة ملكا لا يظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه) نفرجنا إليها أرسالا حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار آمنين على ديننا ولم نخش فيها ظلما

لَمَّا ضَاقَتْ عَلَيْنَا مَكَّةُ، وَأُوذِيَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُتِنُوا، وَرَأَوْا مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْبَلَاءِ، وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، وَكَانَ هُوَ فِي مَنَعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَعَمِّهِ، لَا يَصِلُ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِمَّا يَكْرَهُ مِمَّا يَنَالُ أَصْحَابَهُ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ بَأَرْضِ الْحَبَشَةِ مَلِكًا لَا يُظْلَمُ أَحَدٌ عِنْدَهُ، فَالْحَقُوا بِبِلَادِهِ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا وَمَخْرَجًا. نَفَرَجْنَا إِلَيْهِ أَرْسَالًا، حَتَّى اجْتَمَعْنَا، فَنَزَلْنَا بِخَيْرِ دَارٍ إِلَى خَيْرِ جَارٍ، أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا.

¹¹ صحيح البخاري: 3199، أورده الألباني في صحيح السيرة النبوية وفي السلسلة الصحيحة، وصححه الأرنؤوط في تخريج سير

9.13 مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين

إن من المسائل المهمة لأمة الإسلام بالعموم هي مسألة الخروج على ولي أمر المسلمين. فهذه مسألة خطيرة وعظيمة يجب ألا يتكلم فيها إلا بعلم. وقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على الدولة المسلمة الظالمة وبالأخص لما يترتب على ذلك من ظلم الذي يخالف الميزان الفطري والذي به يكون فساد المصالح العامة في الدنيا كسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض، والتي هي أشد ظلما في الدنيا من الظلم الذي يكون بخالفه الميزان الديني كمنع الزكاة أو الحكم بغير ما أنزل الله من باب الهوى. وقد تقدم معنا أن الله جل جلاله قدم في الدنيا إقامة الميزان بين الناس بالعدل على إقامة الحق في نفوس الناس لتقديم المصلحة العامة على الخاصة. ولذلك فقد نهى النبي ﷺ عن الخروج على ولاة الأمر المسلمين ولو كانوا ظالمين وعاصين لله ولرسوله ما أقاموا فينا الصلاة وكفى بنا أن نغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله كما جاء عن عوف بن مالك الأشجعي أن النبي ﷺ قال: خِيَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أُمَّتِكُمُ الَّذِينَ تَبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ، فَارْكُوهَا عَمَلَهُ، وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى، قَالَ: لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلَيْهِ وَالٍ، فَرَأَى يَأْتِي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، فَلْيَكْرَهُ مَا يَأْتِي مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ (صحيح مسلم، وصححه الألباني في تخریج کتاب السنة).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله أن النبي ﷺ قال: يَكُونُ بَعْدِي أُمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهَدَايَ، وَلَا يَسْتَنْوْنَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثَمَانِ إِنْسٍ، قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ، وَأَخَذَ مَالُكَ، فَاسْتَعِ

وَأَطِيعَ (صحيح مسلم). وقد أوصى بذلك النبي ﷺ في حجة الوداع فعن أم الحصين الأحمسية أنها قالت: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مَجْدَعٌ فَاسْمِعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني). وأيضاً حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أنه قال: وعظنا رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً بعد صلاة الغداة موعظةً بليغةً ذرّفت منها العيونُ ووجلت منها القلوبُ، فقال رجلٌ إنَّ هذه موعظةٌ مودِّعٌ فإذا تعهدُ إلينا يا رسولَ الله، قال أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإنَّ عبدٌ حبشيُّ فإنه من يعش منكم يَرَ اختلافاً كثيراً وإيّاكم ومحدثاتِ الأمور فإنَّها ضلالةٌ فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسُنَّتِي وسُنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديين عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ (صحيح الترمذي، وصححه الألباني).

فالأدلة في نهي الرسول ﷺ على الخروج على الولاة العصابة كثيرة جداً، فلا يسعنا الخروج على ولاة الأمر الظالمين والعاصين لله ورسوله ليس مجاملة أو حبا لهم ولا مهادنة في دين الله وإنما إلزاماً بأمر النبي ﷺ حقناً للدماء وتقديماً للمصلحة العامة على الخاصة، ولكن نبغضهم في الله على ما عصوا به الله ورسوله ولا نصدقهم ولا نعينهم على ظلمهم كما صح ذلك عن النبي ﷺ أنه قال لَكَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ: أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ، قال: وما إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قال: أمراءٌ يكونونَ بعدي، لا يَقْتَدُونَ بهديي، ولا يَسْتَنْوَنَ بسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي، وَلَسْتُ مِنْهُمْ، وَلَا يَرُدُّوهُ عَلَيَّ حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِينْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسِيرِدُوا عَلَيَّ حَوْضِي (صحيح ابن حبان). ويكفي ولي الأمر المسلم الظالم ذلاً وخسراناً أن أن النبي ﷺ قد تبرأ منه كما جاء في حديث سعد بن تميم أنه قيل: يا رسولَ الله، ما للخليفةِ مِن بعدِكَ؟ قال: مِثْلُ الَّذِي لِي، مَا عَدَلَ فِي الْحُكْمِ، وَقَسَطَ فِي الْقِسْطِ، وَرَحِمَ ذَا الرَّحِمِ، فَمَنْ فَعَلَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ (صحيح، تخرّج سنن أبي داود، وصححه الألباني).

ويُفرق بين النصح لولي الأمر الظالم وبين إنكار المنكر بالعموم، فإنكار المنكر بالعموم واجب على كل مسلم، وبالأخص رد الظالمين لمن استطاع أن يغير ويصلح بدون أن يترتب على ذلك مفسدة أعظم، فقد جاء عن أبي بكر الصديق أنه قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تَقْرءون هذه الآية، وتضعونها على غير موضعها (عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)، وإِنَّا سَمِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَا مِنْ قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا إِلَّا يَوْشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ (صحيح أبي داود، وصححه الألباني). ولقد بايع النبي ﷺ أصحابه على السمع والطاعة والنصح لكل مسلم كما جاء ذلك عن جرير بن عبد الله أنه قال: بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَلَقَّنِي، فِيمَا اسْتَطَعْتُ، وَالنَّصْحَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ (صحيح مسلم). فالنصح يكون لكل مسلم سواء كان ولي الأمر وغير ولي الأمر ويكون بحسب الحاجة وبالْحِكْمَةِ والموعظة الحسنة. ومن المصلحة في أغلب الأحوال أن تكون النصيحة لولي الأمر بالسري لما قد يترتب على الجهر بها من الفتن أو التحريض. ولهذا فقد قال النبي ﷺ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لَذِي سُلْطَانٍ فِي أَمْرِ فَلَا يُبْدِهِ عِلَانِيَةً وَلَكِنْ لِيَأْخُذَ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَلِكَ وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ (صححه الألباني في تخریج کتاب السنة). فلو كانت هذه النصيحة لسلطان ظالم فهذا من أفضل الجهاد كما جاء ذلك عن أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ، وَفِي رِوَايَةٍ: كَلِمَةُ حَقٍّ، عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ (صحيح ابن ماجه، وصححه الألباني).

وأما الخروج على ولاة الأمور فشرطه أن يكون عندهم كفرا بواحا ظاهرا لا شك فيه. فقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال: دَعَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعَنَا، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَبُسْرِنَا، وَآثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ

أَهْلُهُ، قَالَ: إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَ كُرِّ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ (صحيح مسلم). ومن المعلوم أنه ليس كل حكم بغير ما أنزل الله كفر ومن ذلك بلا شك القوانين الوضعية التي لا تعارض كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومثال ذلك الأمور التي فيها مصالح الناس كالأمور التنظيمية المباحة فهذا أمر مطلوب ولازم وبه يؤجر ولي الأمر لما في ذلك من نفع عام لجميع المسلمين، كت تنظيم طرق سير السيارات، وقوانين حماية البيانات، وغيرها من القوانين التي بها تحفظ الدماء، والأموال، والأعراض. والكفر البواح لا يكون بالحكم بغير ما أنزل الله مع الإقرار بالذنب دون الاعتقاد بجواز ذلك والجهر به كمن يفعل ذلك من باب الهوى. وإنما الكفر البواح هو الاعتقاد مع الجهر أن الحكم المخالف لشرع الله وكتابه هو حكم جائز على وجه التفضيل أو المساواة أو الرد أو غير ذلك. ومن ذلك من يعتقد بأفضلية حكم غير الله على حكم الله أو مساواة حكم غير الله مع حكم الله أو جواز حكم غير الله أو رد حكم الله، المخالف لشرع الله وكتابه والجهر بذلك. ولقد بين ذلك الشيخ ابن باز رحمه الله في بيان القوانين الوضعية والآراء البشرية التي تخالف شرع الله فقال: الحكم بغير ما أنزل الله [بالقوانين التي تخالف شرع الله] أقسام، تختلف أحكامهم بحسب اعتقادهم وأعمالهم، فمن حكم بغير ما أنزل الله يرى أن ذلك أحسن من شرع الله فهو كافر عند جميع المسلمين، وهكذا من يحكم القوانين الوضعية بدلا من شرع الله ويرى أن ذلك جائز، ولو قال: إن تحكيم الشريعة أفضل فهو كافر لكونه استحل ما حرم الله. أما من حكم بغير ما أنزل الله اتباعا للهوى أو لرشوة أو لعداوة بينه وبين المحكوم عليه أو لأسباب أخرى وهو يعلم أنه عاص لله بذلك وأن الواجب عليه تحكيم شرع الله [وإنما خالفها فعلا لا عقيدة لهوى] فهذا يعتبر من أهل المعاصي والكبائر ويعتبر قد أتى كفرا أصغر وظلما أصغر وفسقا أصغر كما جاء هذا المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن طاووس وجماعة من السلف الصالح وهو المعروف عند أهل العلم. والله ولي التوفيق (مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: 4/416).

9.14 مسألة التفرق في الدين

9.15 مسألة تجريح الأعيان

يقول شيخ الإسلام بن تيمية: ولعلم أن المؤمن تجب موالاته، وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته، وإن أعطاك وأحسن إليك؛ فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب؛ ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه، والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه، والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه، والعقاب لأعدائه. وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة: استحق من الموالاته والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداته والعقاب بحسب ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة، فيجتمع له من هذا وهذا، كاللص الفقير تقطع يده لسرقته، ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته. هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وخالفهم الخوارج، والمعتزلة، ومن وافقهم عليه، فلم يجعلوا الناس لا مستحقين للثواب فقط، ولا مستحقين للعقاب فقط.

وقال أيضًا: معلوم أنه في كل طائفة بر، وفاجر، وصديق، وزنديق، والواجب موالاته أولياء الله المتقين من جميع الأصناف، وبعض الكفار والمنافقين من جميع الأصناف، والفاسق المليل يعطى من الموالاته بقدر إيمانه، ويعطى من المعاداته بقدر فسقه، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الفاسق المليل له الثواب والعقاب إذا لم يعف الله عنه، وإنه لا بد أن يدخل النار من الفاسق من شاء الله، وإن كان لا يخلد في النار أحد من أهل الإيمان، بل يخلد فيها المنافقون كما يخلد فيها المتظاهرون بالكفر. اهـ.

9.16 دعاء النبي ﷺ

اسأل الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن يبارك فيه ويجعله سبباً لعودة أمة الإسلام إلى الطريق المستقيم، وأن يجعل دعوتنا دعوة الراشدين في العلم كما في قوله تعالى: وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُلْغِ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ آل عمران. اللهم اجعل دعائنا كدعاء نبيينا ﷺ كما جاء عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (صحيح مسلم). وكما جاء أيضاً عن عائشة أم المؤمنين أن النبي ﷺ عليها هذا الدعاء: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرٍ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْراً (صحيح ابن ماجه وصححه الألباني).

وكما جاء عن أم المؤمنين أم سلمة أن أكثر دعاء نبيينا ﷺ كان: اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك (صحيح الترمذي وصححه الألباني). وكما جاء عن عبدالله بن عمر أن نبينا ﷺ قلماً يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ،

وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا، اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، واجعله الْوَارِثَ مِنَّا، واجعلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمْنَا، وانصرنا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا (صحيح الترمذي). وكما جاء عن زيد بن أرقم رضي الله عنه أنه قال: لَا أَعْلَمُكُمْ إِلَّا مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبَخْلِ وَالْجَبَنِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيَّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَعِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ودعوة لَا يُسْتَجَابُ لها (صحيح النسائي). وعن أنس ابن مالك أنه قال: كَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ (وفي رواية في صحيح النسائي: لَا يَدْعُهُنَّ): اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْبَخْلِ وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ (صحيح الترمذي، صححه الألباني).

المصادر

[1] عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت 1376 هـ). تفسير السعدي - تيسير الكريم

الرحمن في تفسير كلام المنان. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 2000 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[2] أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت 671 هـ). تفسير القرطبي - الجامع لأحكام

القرآن. دار الكتب المصرية - مصر، الطبعة الثانية، 1384 هـ - 1964 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[3] أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ). تفسير الطبري - جامع البيان عن تأويل آي

القرآن. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان - مصر، الطبعة الأولى، 1422 هـ - 2001 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[4] أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261 هـ). صحيح مسلم. مطبعة عيسى

البابلي الحلبي وشركاه - مصر، الطبعة الأولى، 1374 هـ - 1955 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

- [5] محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت 510 هـ). تفسير البغوي - معالم التنزيل في تفسير القرآن. دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، 1417 هـ - 1997 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.
- [6] أبو داود سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني (ت 275 هـ). سنن أبي داود. دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 1430 هـ - 2009 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.
- [7] الإمام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ). مسند الإمام أحمد بن حنبل. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1421 هـ - 2001 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.
- [8] شمس الدين الذهبي (673-748 هـ). سير أعلام النبلاء. دار الحديث - مصر، الطبعة الأولى، 1427 هـ - 2006 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.
- [9] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ). البداية والنهاية. دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 1420 هـ - 1999 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.
- [10] محمد ناصر الدين الألباني (ت 1460 هـ). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها. مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - السعودية، الطبعة الأولى، 1415 هـ - 1995 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.
- [11] محمد بن جرير الطبري (224-310 هـ). كّاب تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف - مصر، الطبعة الثانية، 1387 هـ - 1967 م. الكّاب في المكتبة الشاملة.

[12] شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت 728 هـ). مجموع الفتاوى. مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - السعودية، الطبعة الأولى، 1423 هـ - 2003 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[13] عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ). الجامع الصغير وزيادته مع أحكام محمد ناصر الدين الألباني من صحيح أو ضعيف الجامع الصغير. مكتبة الشاملة - إلكتروني فقط. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[14] عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ). تفسير بن كثير - تفسير القرآن العظيم. دار طيبة للنشر والتوزيع - السعودية، الطبعة الثانية، 1420 هـ - 1999 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[15] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (ت 256 هـ). صحيح البخاري. دار التأصيل - مصر، الطبعة الأولى، 1433 هـ - 2012 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[16] أحمد محمد شاكر (ت 728 هـ). أوائل الشهور العربية: هل يجوز شرعاً إثباتها بالحساب الفلكي؟ بحث جديد علي حر. 1357 هـ - 1939 م. الإرشيف.

[17] محمد ناصر الدين الألباني (ت 1460 هـ). صحيح سنن النسائي. مكتب الترية العربي لدول الخليج - السعودية، الطبعة الأولى، 1409 هـ - 1988 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[18] شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (ت 728 هـ). درء تعارض العقل والنقل. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - السعودية، الطبعة الثانية، 1411 هـ - 1991 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[19] أبو هلال العسكري (ت 395 هـ). معجم الفروق اللغوية. مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، 1412 هـ - 1991 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[20] عبد الله بن عبد الحكم الفقيه (ت 214 هـ). سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه. عالم الكتب - لبنان، الطبعة السادسة، 1404 هـ - 1984 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[21] ابن عبد ربه الأندلسي (ت 368 هـ). العقد الفريد. دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى، 1404 هـ - 1984 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.

[22] أبو نعيم الأصبهاني (ت 430 هـ). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، 1394 هـ - 1974 م. الكتاب في المكتبة الشاملة.